يونس احمد السامرائي

البحتري في سامراء

حتى نهاية عصر المتوكل

(ساعدت وزارة الثقافة والاعلام على نشره)

مطبعة الارشاد - بغداد
١٩٧٠

مقـــدمة

كتب عن البحتري كثيرون ، ولا غرو فهو أحد كبار شعراء القرن الثالث الهجري ، ان لم يكن أكبرهم على الاطلاق • وقد لقي من الاقبال على شعره ، والاحتفال به ما لم يلقه شاعر قبله ، كما تيسّر له ان يكون شاعر البلاط العباسي حقبة من الزمن لم تتيسر لشاعر آخر ؛ فتغنى بأوصاف من اتصل بهم من الخلفاء ورجالات الدولة ، وأشاد بأعمالهم ، ونادمهم في مجالسهم ، وخلّد آثارهم ، ودافع عن حكمهم وسياستهم ، وسجّل كل صغيرة وكبيرة لهم ، فكان ديوانه ـ بحق ـ سجلا ضخماً لفترة من أزهى الفترات العباسيــة في المجـالات : السياسية والعلمية والادبية والحضارية وغيرهـــا •

نعم كتب عن الشاعر الكثيرون ، ولكنني حاولت في هذا البحث أن أكتب عن البحتري بطريقة أخرى ، حاولت أن أتسلسل مع الشاعر منذ وطئت قدماه أرض سامراء مسترفداً ، وحاولت أن استشهد بكل ما نظمه في خلفاء هذه المدينة ورجالها ، وكنت اجتزىء أحياناً بأجزاء من القصائد وأهمل في الغالب المقدمات الغزلية التي التزمها البحتري في عموم شعره •

وأنا أعرف جيدا ان في النصوص التي استشهدت بها شيئا من التكرار ، تكرار المعاني والاوصاف التي كان الشاعر يقيم فيها قصيده ، ولكنني ازعم ان البحتري كان ـ على الرغم من ذلك ـ بارعاً في تناول الموضوع وانتقاء اللفظ حتى ليخيل الى القارىء أن ليس هناك تكرار يدعو الى السأم والملل •

ان فكرة الكتابة عن البحتري في سامراء طرأت عليّ وانا أعدّ رسالتي عن (سامراء في ادب القرن الثالث الهجرى) اذ وجدت ان لهذا الشـــاعر أثرا بعيدا في تخليد هذه المدينة ، وتخليد خلفائها ورجالها ، بما نظمه من رائع الشعر ، وبارع القصيد •

لقد جهد البحتري ـ بحق عند اتصاله بخلفاء هذه المدينة ـ ان يعصـر ذهنه ، ويكدّ قريحته ، ويستنفد كل ما رزقه من مكنة أدبية ، وطاقة فنية ،

ليرتفع بشعره الى أقصى درجات الجودة والبراعة .

وان نظرة سريعة الى شعره هذا لتظهر بجلاء ما كان عليه من الروعة والسمو والاجادة ، ولهذا فما يكاد مصدر قديم او حديث يتحدث عن شعر البحتري ، يخلو من نموذج او نموذجات من هذا الشعر الذي قاله في خلفاء هذه المدينة وآثارها .

ان هذا البحث يتناول حياة الشاعر في هذه المدينة ، في الحقبة التي عاشها فيها ، منذ اختلافه اليها الى آخر عهد المتوكل ، وهي فترة تعدّ من أهم فترات حياة الشاعر لما لقيه فيها من الصيت المدوّي ، والثراء العريض .

واني لارجو أن اكون قد وفقت في رسم صورة واضحة لهذا الجزء المهم من حياة هذا الشاعر الكبير .

يونس احمد السامرائي

تمهيـــد :

بناء سامراء :

لعل من أهم الاحداث العمرانية في القرن الثالث الهجري هو ابتناء مدينة سامراء ، واتخاذها حاضرة للخلافة العباسية مدة أربت على نصف قرن من الزمن ، الأمر الذي أثر على بغداد الحاضرة الأصلية تأثيراً كبيراً في نواح شتى .

وذهب المؤرخون ـ بعد انشاء هذه المدينة واشتهارها ـ يضربون في أحشاء الزمن السحيق للوقوف على أصلها وعراقتها فذهبوا في ذلك مذاهب شتى ، ولكنهم يكادون يتفقون على ان موضعها كان مأهولا منذ العصــور الضاربة في اعماق ما قبل التأريخ ، وانه كان يعرف باسماء نكاد هي الأخرى تكون متقاربة من حيث المادة الاشتقاقية .

وذهب المؤرخون كذلك يتلمسون الاسباب التي حدت بالمعتصم الى ابتناء هذه المدينة واتخاذها عاصمة له دون بغداد ، فذكروا أسـباباً عديدة تحل في جملتها الى عوامل : دينية وسياسية واجتماعية وغيرها[1] .

والحق ان ابتناء هذه المدينة كان حدثاً مهماً في غضون القرن الثـالث الهجري ، اذ استطاعت ان تزاحم العاصمة الاصلية بغداد وتحتل مركزهـا العلمي والادبي والسياسي والاجتماعي والمعماري وما الى ذلك ، كما تهيأ لها ان تكون المدينة العباسية الاولى طوال الحقبة التي مكثت فيها عاصـمة للخلافة العباسية ، فقصدها العلماء والادباء ، وأمّها الفقهـاء والمحدثون ، واختلف اليها أصحاب الفنون والحرف المتنوعة ، وأصبحت قبلة لكل من ينشد مركزاً سياسياً واجتماعياً ، كما غدت مبتغى لكل من يرجو ثراء عريضاً وصيتاً مدوّياً .

والغريب في أمر هذه المدينة ، ان ابتناءها كان سريعاً جداً ، وانهـا

---

(١) أنظر : رسالتنا : سامراء في أدب القرن القرن الثالث الهجري ص ٩ ـ ١٢ .

اشتملت على عمائر ومبان تكاد تنفرد بها دون غيرها من المدن ، حتى أصبحت – بحق – مدينة القصور والبرك والرياض .

وكان من حسن طالع هذه المدينة ان يهيأ لها بعض أفذاذ الشعراء وعلى رأسهم ابو عبادة البحتري الذي لم يأل جهداً في تخليد عمائرها وقصورها ، فاندفع يشيد بكل ما قام به خلفاؤها من اعمال عمرانية وسياسية واجتماعية حتى ليكد ديوانه ينطوي في اغلبه على اعمال اولئك الخلفاء في هذه المدينة .

ومما يسترعي النظر في أمر هذه المدينة كذلك اللدد الحاد الذي نشب بينها وبين بغداد ، او على الاصح بين أهلها وأهل بغداد والذين استمر بينهما قوياً عنيفاً حتى بعد ان خربت سامراء واندثرت وانتقل مركز الحكم الى بغداد ثانية في اواخر عهد الخليفة المعتمد ، وهو نزاع – فيما نحسب – سياسي بين العرب والاتراك ، يمثل الجانب الاول منه أهل بغداد ، ويمثل الثاني أهل سامراء ومن الطريف في أمر هذه المدينة ايضاً اسمها واللغات الواردة فيه ، فليس لمدينة أخرى – فيما نظن – من الاسماء العديدة واللغات الكثيرة ما لمدينة سامراء هذه !

ولعل طول اسمها – وهو سرّ من رأى – الذي أطلقه عليها – كما يقال المعتصم – وتركيبه من فعلين يتوسطهما اسم – كان مدعاة لتفنن الشعراء والادباء في تحويره وتخفيفه ، ونحته وتطويره ، فكان من جراء ذلك هذه اللغات المتعددة لهذا الاسم والتي جاءت في تضاعيف الكتب والدواوين ، والتي كانت كلها لا تتعدى السرور بالمدينة بعد ازدهارها ، او الاستياء منها بعد خرابها .

والملاحظ انه على الرغم من كثرة اللغويين واختلافهم الى هذه المدينة الجديدة فان أحداً منهم لم يحاول – على ما يظهر – ابداء رأي حول هذا الاسم الغريب .

وان هذا الاسم وهو « سُرّ من رأى » قد ورد في شعر الشعراء

وتصانيف الادباء والمؤرخين والبلدانيين منذ تأسيس هذه المدينة في سنة احدى وعشرين ومائتين للهجرة •

ومن اسمائها : زوراء بني العباس والعسكر ، وسُرَّ من رأى ، وسَرَّ من رأى وسُرَّ من رئي وسُرَّ من را وسُرَّ مرّى ، وسُرَّ من راء ، وسَرَّ من راء وسرور من رأى ، وسُرّاء ، وسَرّاء ، وساء من رأى وسامره ، وسامرّا ، وسامرّاء[1] •

ومما يلفت النظر في أمر هذه المدينة نشأتها السريعة وازدهارها العظيم في كل شأن من الشؤون ، بيد ان هذا الازدهار لم يدم طويلاً اذ سرعان ما دبّ فيها الخراب والاندراس عقب انتقال الخلفاء العباسيين منها الى بغداد ثانية • فأصبحت قصورها وعمائرها أطلالاً وآكاماً تمتد الى مسافات شاسعة تبعث في النفس ألماً وحسرة ، وفي القلب عظة وعبرة ، فندبها الشعراء ، وبكاها الادباء ، وقد تكلمنا على ذلك مفصلاً في كتابنا « سامراء في ادب القرن الثالث الهجرى » فلا حاجة الى تكراره هنا مرة أخرى[2] •

هذه المدينة العظيمة الزاهرة هي التي قيض لابي عبادة البحتري أن يقضي في ربوعها زهرة حياته وعنفوان شبابه ، ويواكب فيها الأحداث الخطيرة التي مرت بخلفائها ووزرائها ، فسجل كل ذلك تسجيلاً دقيقاً صادقاً مما سنشير اليه في اعقاب هذا التمهيد •

---

(١) يحسن الرجوع الى كتابنا « سامراء في أدب القرن الثالث الهجري » حيث فصّلنا القول هناك وذكرنا الشواهد الكثيرة على ذلك •

(٢) وصف ابن المعتز كثيرا خراب سامراء واندراسها ، ومن ذلك ــ وهو مما لم نذكره في رسالتنا ــ قوله :

ألم ترني ربطت بشر أرض	فهل انا واجد منها انفلاتا
وصارت (سرّ من رى ساء من رى)	فلا سقيت ولا كسيت نباتا
اذا ما المرء أصبح (ساءلوه)	وقالوا كيف بت وكيف باتا

(ديوان ابن المعتز) ج ٢/٦٢ طبعة استانبول وفي الديوان (سر من رأى وساء من رأى) بالهمزة والصوات كما اثبتناه لئلا يختل الوزن • وكذلك جاءت فيه (سائلوه) والصواب ما أثبتناه •

البحتري قبل اختلافه الى سامراء :

كثيراً ما يمهد الدارسون لحياة الشعراء والادباء بشيء عن عصر الاديب او الشاعر، يتناولون فيه الأحوال السياسية والاجتماعية والفكرية وما الى ذلك ، مما يلقي ضوء كاشفاً على كثير من تصرفات الاديب واطوار حياته ، وهو عمل يقره البحث العلمي الصحيح ، وبخاصة اذا ما توخى الباحث الدراسة الشاملة لجوانب حياة الاديب ونتاجه الفكري . غير اننا - على الرغم من ذلك - لم نأخذ بهذا المنهج في بحثنا هذا ، لاننا في الواقع نتوخى من هذه الدراسة ما يتصل بحياة الشاعر في غضون الحقبة التي أمضاها في كنف خلفاء هذه المدينة ووزرائها ورجالاتها ، ولهذا فسنحاول الاسترسال مع الحوادث التي عاصرها الشاعر وعايشها ، على ان نسجل خلال ذلك ما يعنّ لنا من الأمور المتصلة بحياته وأخلاقه وادبه .

ونرى من المفيد استكمالاً للدراسة ان نلم بشيء من اوليّة شاعرنا قبل ان يختلف الى هذه المدينة ويتسنى له الاتصال بخلفائها وامرائها ووزرائها ورجالاتها .

ولد البحتري - على الارجح الاقوال - سنة ست ومائتين للهجرة(١) في مدينة « منبج » الواقعة عند مفترق الطرق التجارية بين حلب والفرات(٢) ونشأ وتخرج بها ، في ظروف ما تزال ملفعة بغلالة من الغموض والابهام ، لان المراجع المختلفة لا تحدثنا بشيء كثير عن ذلك .

وكانت منبج هذه مدينة كبيرة واسعة ، ذات خيرات كثيرة ، وأرزاق واسعة ، وقنى فح على وجه الارض ، وآبار عذبة صالحة للشرب ، وقد وصفها بعضهم للرشيد حين مرّ بها فقال : عذبة الماء ، باردة الهواء ، قليلة

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ٤٤٧/١٣ ، وفيات الاعيان لابن خلكان ٨١/٥ ، تاريخ الادب العربي لبروكلمان ٤٨/٢ .

(٢) تاريخ بغداد ٤٤٧/١٣ ، وفيات الاعيان ٧٤/٥ ، اخبار البحتري للصولي ص ٦ وأشار ابن خلكان الى رواية أخرى تقول : انه ولد في زردفنة وهي قرية من قرى منبج .

الادواء ، كما وصف ليلها بانه سحر كله •• ومن هنا ذهب كثير من الدارسين الى تعليل جمال شعر البحتري ورقته[1] .

واذا كانت منبج البيئة الاولى التي أمدت الشاعر بصور الجمال ومفاتن الطبيعة ، فان هناك بيئة أخرى كان لها أثر لا ينكر في صقل مواهبه وارهاف حسه ، وامداده بمعين لا ينضب من سحر مجالي الطبيعة ، ومما تفننت به يد الانسان الصناع من ضروب التزيين والتلوين والابداع ، وأعني بها بيئة سامراء حاضرة الخلافة العباسية ، ومرتاد شاعرنا البحتري • فهذه المدينة مشهورة بلطافة الهواء ، وغزارة الماء ، وصلاح التربة[2] ، كما تمتاز برقة الليل ، وبرد الضحى ، واعتدال الأصيل ، على حد قول البحتري من قصيدة له يمتدح بها المتوكل ويصف أحد قصوره بعد قفوله من دمشق :

محل يطيب العيش رقة ليله   وبرد ضحاه واعتدال أصيله[3]

ولا شك في أنّ ماشاده الخلفاء من القصور الضخمة والعمائر الفخمة ، وما أنشأوه من البرك الفسيحة ، والحدائق الغن ، وما كانت تموج به تلك القصور من اجناس الجواري والغلمان ، كل ذلك كان من العوامل التي زادت في رقة شعر شاعرنا وجماله ، ومن ثمّ كثرت اوصافه لهذه القصور والبرك والرياض كثرة تلفت النظر حقاً .

شبل الوليد في ظل ابوين لم يكونا من ذوى اليسار – على ما يبدو – ومن المحتمل انه تلقى تعليمه الاولى كما يتلقاه أبناء الطبقة الفقيرة فتلقف ما قدر عليه من علوم العربية ومعارفها ، ويظهر ان مخايل النجابة قد بدت عليه وهو في ريعان الصبا ، فاستهواه الشعر فمال اليه وعالجه وهو فتى ، وقصد به اول ما قصد باعة البصل والباذنجان ومن لف لفهم يمدحهم وينشدهم في ذهابه وايابه[4] .

---

(١) أنظر : حياة البحتري وفنه للدكتور أحمد بدوي ص ٤٢ .

(٢) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ١٣ .

(٣) أنظر : قصيدة البحتري في (عدول المتوكل عن بغداد الى سامراء) في الفصل الثالث .

(٤) أنظر : تاريخ بغداد ٤٤٧/١٣ ، ووفيات الاعيان ٧٤/٥ .

وفي حياة البحتري مسألة اخرى ما يزال الغموض يكتنفها وهي صلته بأبي تمام ولقاؤه له وأخذه عنه ، والعمل بنصيحته .

فيقال ان اول لقاء بين الشاعرين كان في حمص حيث قصد البحتري - وكان اول أمره في الشعر ونباهته فيه - ابا تمام ليعرض عليه شعره كما كان يعرضه الشعراء ، فلما رآه وسمع شعره وترك الناس وأقبل عليه وقال له انت أشعر من أنشدني ، ثم رأى رثّ حالته فزوده بكتاب الى أهل معرّة النعمان يوصيهم به خيراً فاكرموه ووظفوا له أربعة آلاف درهم[١] .

ويقال ان أول لقاء بينهما كان في مجلس أبي سعيد محمد بن يوسف الثغرى حيث دخل البحتري عليه وأنشده قصيدته التي مطلعها :

أأفاق صبّ من هوىً فأفيقا ... أم خان عهداً او أطاع صديقا

فلما أتمها اعترضه رجل كان في المجلس فادعى ان القصيدة له واتهم البحتري بسرقتها ، واندفع ينشد ابياتاً منها ، فبهت البحتري ووجم ، وتدخل أبو سعيد في الامر فاعلم البحتري بان الرجل كان أبا تمام فقام اليه وعانقه وبدأت العلاقة بينهما[٢] .

ويبدو ان الصولي راوي هذين الخبرين قد شك في الثاني منهما فعقب عليه بقوله : « ولعل هذا قبل مصيره الى معرّة النعمان »[٣] .

واذا صح ان القصيدة التي مدح بها البحتري ابا سعيد كانت في سنة ٢٣١ هـ كما يؤرخها شارح ديوانه[٤] ، فمعنى هذا ان البحتري كان في الخامسة والعشرين من عمره ، وهو على هذا لم يكن اول أمره بالشعر ونباهته فيه ، اذا ما علمنا انه عالجه وهو حدث صغير ، فهو قد استوى شاعراً مهماً حتى ادعى ابو تمام - وهو الشاعر الطائر الصيت - ان ما أنشده كان

---

(١) أنظر : أخبار البحتري للصولي ص ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٦٣ .
(٣) أخبار أبي تمام ص ٦٥ .
(٤) ديوان البحتري ١٤٤٩/٣ الحاشية (طبعة الصيرفي) .

من شعره[١] . هذا على ان لقاءه في حمص ما زال مبهماً غامضاً ، ولا ندري لمن كتب ابو تمام من أهل معرّة النعمان في اكرام الشاعر ، ومن الذي دفع له اربعة آلاف درهم ، وما هو الشعر الذي قاله هناك ؟

وأكبر الظن ان هاتين الروايتين لا تقومان على سند قوي من الحقيقة والواقع .

وأما تعقيب الصولي على الخبر الثاني فأمر يلفت النظر أيضاً ، اذ معنى ذلك ان لقاء الشاعرين في مجلس أبي سعيد قد سبق لقاءهما في حمص . وهذا يفنده قول البحتري انه كان اول أمره بالشعر ونباهته فيه .

وهذا اللقاء بين الشاعرين يجرنا الى مسألة أخرى وهي هل تلمذ البحتري لابى تمام وأخذ عنه ؟

يرى بعض الدارسين ـ استناداً الى الروايتين السابقتين ، والى ما كان يعترف به البحتري حين يسأل عن المفاضلة بين شاعريته وشاعرية ابي تمام ـ بأفضلية أبى تمام واستاذيته له[٢] ـ ان البحتري تلمذ لابي تمام وعنه أخذ وعلى حذوه احتذى ومن معانيه استقى في حين يرى آخرون ان العلاقة بينهما لم تصل الى علاقة الطالب بالاستاذ ، وان كل ما في الامر ـ اذا صح ـ انهما اجتمعا وتعارفا وقرّظ كل منهما الآخر ، وبقيا على علاقة حسنة ، ويعضد هذا الرأى اختلاف الشاعرين في خصائصهما الفنية واتجاهاتهما الشعرية[٣] .

---

(١) انظر : الموازنة للآمدي ١/٨ ، واخبار ابى تمام ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ، وأخبار البحتري ص ٦٣ ـ ٦٤ .

(٢) أنظر : اخبار ابي تمام ص ٥٧ ، ٦٠ .

(٣) أنظر : الموازنة للآمدي ١/٦ ، وفي الادب العباسي للدكتور محمد مهدي البصير ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ الطبعة الثانية ، مما يجدر ذكره ان ليس للبحتري في رثاء أبي تمام الا خمسة أبيات نظمها بعد وفاة دعبل ذكر فيها الشاعرين ضمن هجائه للخثعمي . ومعلوم ان أبا تمام توفي سنة ٢٣١هـ ، وان وفاة دعبل كانت في سنة ٢٤٦هـ .

ومما روى عن صلة الشاعرين ببعضهما الوصية التي نصح بها أبو تمام للبحتري واوصاه أن يأخذ نفسه بها في معالجة القريض والتي جاء فيها :

« قال الوليد بن عبيد البحتري : كنت في حداثتي اروم الشعر ، وكنت أرجع فيه الى طبع ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ، ووجوه اقتضابه ، حتى قصدت أبا تمام ، وانقطعت فيه اليه ، واتكلت في تعريفه عليه ، فكان اول ما قال لي : يا أبا عبادة ، تخيرّ الأوقات وانت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، واعلم ان العادة جرت في الاوقات ان يقصد الانسان لتأليف شيء او حفظه في وقت السحر ، وذلك ان النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم ، وان اردت التشبيب فاجعل اللفظ رشيقاً ، والمعنى رقيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، فاذا أخذت في مديح سيد ذى أياد فاشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرّف مقامه ، ونضدّ المعاني ، واحذر المجهول منها ـ واياك ان تشين شعرك بالألفاظ الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد ، واذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل شعرك الا وانت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة الى حسن نظمه ، فان الشهوة نعم المعين ، وجملة الحال ان تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد ان شاء الله . قال : فاعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة »[1] .

واغلب الظن ان هذه الوصية لم تصدر عن ابي تمام ، لانها بعيدة كل البعد ـ في محتواها ـ عن شعره وخصائصه ، فلو كانت صادرة عنه ، لكان هو اولى من غيره بتطبيق ما جاء فيها !

---

(١) زهر الآداب للحصري ١/١٠ ـ ١٢١ ، وأنظر : العمدة لابن رشيق ٢/١١٤ ـ ١١٥ ، والموازنة بين الشعراء للدكتور زكي مبارك ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ، ويبدو ان الدكتور يعتقد بصحة هذه الوصية بدليل تعليقه عليها في كتابه آنف الذكر .

ويخيل الينا انها وضعت بعد استقراء شعر البحتري ، لانها تمثل الى حد بعيد كثيراً من خصائص شعره التي عرف بها .

* * *

كان البحتري في مطلع حياته كثير الاسفار والتطواف ، فجاب عدداً من المدن السورية ، وزار الأهواز والعراق ، وقيل انه قصد مصراً أيضاً ، قام بكل ذلك قبل أن يلقى عصا ترحاله في الحاضرة العباسية سامراء .

والحق ان البحتري كان دؤوباً ، شديد العزم ، قويّ الهمة ، واسع الآمال ، وفي شعره كثير من الاشارات التي تنبىء عن ذلك ، قال وهو ابن ست عشرة سنة :

وقائلة والدمع يصبغ خدها
رويدك يا ابن الست عشرة كم تسري
فقلت : أحقُّ الناس بالعزم والسرى
طلاب المعالي صاحب الست والعشر
سأخبط وجه الدهر والليل ، أو أرى
تمزّق ثوب الليل في وضح الفجر
وأوثر عنسي في المهامه والفلا
على قرب عِرسي في السواجير او أثرى[1]

وقال مشيراً الى علو همته واسفاره وهو في حدود الست عشرة من عمره أيضاً :

نكرتني ، فقلت : لا تكريني
لم أحل عن خلائقي واعتيادي
إن تريني ترَىْ حساماً صقيلاً
مشرفياً من السيوف الحداد

---

(١) ديوان البحتري ٢/١٠٨١ ـ ١٨٠٢ . السواجير : نهر مشهور من عمل منبج بسوريا .

ثانـي الليـل ، ثـالث البيد والسيـ
ـر ، نديم النجوم ، ترب السـهاد

ليلـة بالشـآم ثُمَّـت بالأهـ
ـواز يومـاً وليلـة بالسـواد[1]

وطنـي حيث حطت العيس رحلـي
وذراعـي الوسـاد وهـو مهادي[2]

وقال أيضا من قصيدة له في مدح مالك بن طوق ، وهو في العشرين من عمره :

مـالي وللايـام صـرّف صرفها
حالي ، وأكثر في البلاد تقلّبي ؟

فأكون طوراً مَشْـرقاً للمشرق الـ
أقصـى ، وطوراً مغـرباً للمغـرب

واذا الزمـان كسـاك حلّـة مُعدم
فالبس لـه حلـل النوى وتغـرب

ولقـد أبيت مع الكواكب راكبـاً
أعجـازها بعزيمـة كالكـوكب[3]

وقصد البحتري كثيرا من القادة والعمال[4] مادحا لهم وطالبا رفدهم ،

---

(١) السواد : يراد به رستاق العراق وضياعها .

(٢) نفسه ١/٦١٩ ـ ٦٢٠ .

(٣) نفسه ١/٧٩ ـ ٨٠ طبعة الصيرفي .

(٤) لا يسعنا الكلام على مدائحه في القادة والعمال والكتاب في غضون الفتـرة التي سبقت تردده على سامراء ، ولكننـا نرى من المستحسن الاشارة اليها :

١ ـ في آل الثغري (٢٥) خمس وعشرون قصيدة ومقطعة .

٢ ـ في آل حميد الطوسي (١٧) سبع عشرة قصيدة ومقطعة .

٣ ـ في مر بن علي الطائي (٥) .

٤ ـ في ابي جعفر القمي (٤) .

وكان في مقدمتهم أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري وآل حميد الطوسي فكانوا يثيبونه ويجزلون له العطاء • وقد روى عنه انه قال : « أنشدت أبا تمام شعرا في بعض بني حميد وصلت به الى مال له خطر ، فقال لي : أحسنت انت أمير الشعراء بعدي ... »[1] •

وقال في مدح مالك بن طوق ، وفيه اعتراف بجزيل عطائه ، ووفرة سخائه :

انى اتيتك طالبا فبسطت من
أملي ، وأنجحَ جودُ كفك مطلبي
فشبعت من برٍّ لديك ونائل
ورويت من أهل لديك ومرحب
وغدوت خير حياطة مني على
نفسي ، وأرأف بي هنالك من أبي
أعطيتني حتى حسبت جزيل ما
أعطيتنيه وديعة لم توهب[2]

ويبدو ان البحتري كان مبتلى بداء الجشع منذ مطلع حياته ، فهو لا يشبع ولا يريد أن يشبع مما كان يسبغ عليه من العطايا ويُفاض عليه من النعم – على الرغم من اشارته في الابيات السابقة الى ذلك – فتراه يسلك كل ذريعة مع ممدوحه ليظهر عوزه ، ويستدر عطفه ، ولو كان ما يلتمسه

٥ – في ابي مسلم الكجي (٣) •
٦ – في أبي الخطاب الطائي (٢) •
٧ – في يحيى بن المعلى (٢) •
٨ – في خالد بن يزيد الشيباني (١)
٩ – في مالك بن طوق (١)
١٠– في أحمد بن عبدالوهاب الكاتب (١) •
١١– في حمد بن محمد بن ابي نصر الكاتب (١) •

(١) أخبار البحتري ص ٦٩ •
(٢) الديوان ١/٨١ – ٨٢ •

منه صغيراً .

قال لابي جعفر القمي يستهديه أضحية :

جُعلت فداك ! لي خبر طريف
وأنت بكل مكرمة خبير

غداة النحر ينحر كلُّ قومٍ
ولا شاة لديَّ ولا بعير

بلى ! عندي حمار لي ، فقل لي
أتقبل من مضحيها الحمير ؟

لئن لم تفده - تفديك - نفسي
بذبح فهو في غده نحير (١)

ويظهر ان بعض من كان ينتجعهم ويسترفدهم يبدون حياله شيئا من المماطلة والتسويف ، وربما حجبوه عنهم ، فتراه - عند ذلك - يتدنى في مطلبه ، ويتقاصر عما وعد به ، ويبدي قبوله لأدنى ما يسمح به . قال من أبيات في احد ممدوحيه :

أحجاباً بعد المديح ومطلا
بعد وعد ، من ذا بهذين يرضى ؟

يا كثير المطال ، كم والى كم
أتقاضاك موعداً ليس يقضى

كلما سرتُ في اقتضائك مالي
عنقاً ، سرت في مطالك ركضا

قد حططنا بعض ما كان في الوعـ
ـد لنا واجباً لتجبر بعضا

(١) نفسه ٢/١٠٩٦ .

واقتصـرنا عـلى الدنانير فاجعلـ
ـها لنا نِحلة وان شـئت قرضـا(١)

واستطاع البحتري بما تجمع لَديه من مال ان يقتني بعض الضياع ، وكان يفزع الى ممدوحيه حين يطالب بشيء من الخراج ، وجاء ذلك في الابيات التي قصد بها محمد بن يوسف وهي :

نفسـي تقيـك ووالداي كلاهمـا
وجميـع من ولدا ـ من الاسـواء
ثقـلُ الخـراج عليّ دين مؤلـم
ولديـك ممـا اشتكيه دوائـي
ان البقيـة من خـراجي قدرهـا
ما ان يكـون لديك قـدر غـداء
فامنـن عليّ بصـوم يوم واحـد
واجعل غداءك لـي ففيـه غنـائي(٢)

---

(١) الديوان ٢/١٢٢٠ ٠
(٢) نفسه ١/٤٤ ٠

الفصل الاول

اختلاف البحتري الى سامراء :

متى بدأ الشاعر يختلف الى هذه المدينة ؟ ومن هم الشخوص الذين تعرف بهم أولا ؟

الواقع انه ليس من السهل – اذا ما توخينا الدقة – الاجابة عن هذين السؤالين فليس بالامكان تحديد الزمن الذي بدأ به الشاعر الاختلاف الى هذه المدينة ، كما لا سبيل الى معرفة الشخوص الاولى التي اتصل بها •

فالمراجع القديمة لا تهدينا الى الخطوط الاولى لحياة الشاعر وصلته بهذه المدينة ورجالها ، فهذا الصولي وهو أول من جمع اخباره لم يحاول ان يجلو هذه الناحية ، واكتفى بسرد روايات شتى تتصل بأخبار البحتري وعلاقته بالخلفاء والوزراء والادباء ، وهي أخبار لا تكشف كما قلنا عن الخطوط الاولى لهذه الناحية من حياة الشاعر • وكذلك فعل من جاء بعده ، فالاصفهاني أشار في أغانيه الى انه : « شاعر فاضل نصيح حسن المذهب ، نقي الكلام مطبوع ••• له تصرف حسن فاضل نقي في ضروب الشعر سوى الهجاء »(١) • ولم يشر الى صلته بالخلفاء والرجال الا اشارات سريعة لا تلقى ضوءاً كبيراً على هذا الجانب من حياته •

والخطيب البغدادي اكتفى بالقول بان الشاعر « من أهل منبج ، بها ولد ونشأ وتأدب ، وخرج منها الى العراق فمدح جعفرا المتوكل على الله وخلقا من الاكابر والرؤساء »(٢) وحذا حذوه ابن خلكان فأشار الى ان الشاعر : « كان مقيما بالعراق في خدمة المتوكل ، والفتح بن خاقان ، وله الحرمة التامة ، فلما قتلا كما هو مشهور في أمرهما ، رجع الى منبج ••• »(٣) •

---

(١) الاغاني ١٨/١٦٧ طبعة الساسي •
(٢) تاريخ بغداد ١٣/٤٤٦ •
(٣) وفيات الاعيان ٥/٨٣ •

أما المراجع الحديثة ، فقد مر أكثر أصحابها بهذه المرحلة من حياة الشاعر مرا سريعا ، وجاروا في ذلك ما ذكرته المراجع القديمة[١] .

غير ان بعض الدارسين حاول ان يقف عند هذه النقطة من حياة الشاعر موقفا فيه شيء من التحفظ ، فنبهوا الى وجوب التريث في تسجيل ما يتصل بحياته في غضون هذه الفترة بالذات ، كما حاولوا من جهة أخرى ان يسلطوا الضوء على بعض جوانب هـذه المرحلة ، فلمحوا الى بعض الشخوص المهمة التي اتصل بها الشاعر في ابان تردده الى ربوع هـذه المدينة ، وهو الوزير الاديب محمد بن عبدالملك الزيات الذي مدحه البحتري بقصيدة رائعة[٢] .

ولعل أهم من اضطلع بمحاولة الكشف عن اولية صلة الشاعر بهذه المدينة هو شارح ديوانه[٣] ، الذي جهد ـ بحق ـ ان ينهض بتأريخ أكثر قصائد الديوان ومقطعاته مستهديا بالحوادث التاريخية والوقائع السياسية والاخبار الادبية وهي غير قليلة فيه . وعمل من هذا النوع يتطلب بلاشك وقتا وجهدا ومصابرة .

وعلى الرغم من ان الشارح قد وفق في الكثير مما ذهب اليه ، فانه قد اضطرب احيانا في بعض عمله هذا ، مما سنشير الى شيء منه في خلال هذا البحث .

وبالرجوع الى قصائد الشاعر ومقطعاته ، نجد ان بعضها يحمل اسماء عدد من مهجويه ، من بينهم « رمكة الكاتب » فقد هجاه البحتري بقصيدة ومقطوعة ، نحا فيهما منحى الفحش والبذاءة ، جاء في الاولى :

---

(١) أنظر : من حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ١١٢ ، وتاريخ الادب العربي للزيات ص ٢٩٥ .

(٢) أنظر : البحتري لنديم مرعشلي ص ٢٥ ، وحياة البحتري وفنه للدكتور أحمد بدوي ص ٧١ ـ ٧٤ ، بيد ان مرعشلي كاكثر الدارسين أشار الى بغداد لا الى سامراء .

(٣) هو الاستاذ : حسن كامل الصيرفي .

قد قلت عن نصح لبرذونة
تصان أن تسرج او توكفا
شأنك أن اخطأك الحظ أن
تخرص في السلطان أو تزجفا
أصابك الله بشر فما
أشأم مكفولا وما أحرفا
يحيى بن يعقوب وأصحابه
عفيت من آثارهم ما عفا
ما كنت في تقطيع أسبابهم
بالامس الا الصارم المرهفا(1)

وجاء في الثانية :

قم تأملْ بنا عجائب دهر
كتبت فيه للرجال الرّماك(2)

وعلق شارح الديوان على القصيدة بقوله : « والذي نرجحه ان علاقة الشاعر به كانت خلال اتصاله بالكتاب امثال اسماعيل بن شهاب في أول عهده بسامرا ، أي حوالي سنة ٢٢٦هـ »(3) . كما رجح نظم المقطوعة في التاريخ نفسه .

ولكن الشارح حين تصدى للتعليق على بعض قصائد البحتري ومقطعاته في اسماعيل بن شهاب هذا نراه يؤرخ بعضها في سنة ٢٢٨هـ وهي المقطوعة التي تنجز فيها ابن شهاب برذوناً وعده به والتي يقول فيها :

وعدت برذوناً فرددتني
اليك حتى قام برذوني

---

(1) الديوان ٣/١٣٧١ ـ ١٣٧٢ .

(2) نفسه ٣/١٥٨٥ . الرماك : جمع الرمكة : وهي البرذونة تتخذ للنسل .

(3) نفسه ٣/١٣٧١ الهامش .

وكــان مصقــول النواحــي اذا
رأيتــه ، مسـتغرب المـــون -
لؤلــؤة تضحــك ارجاؤهـــا
تحســن في البـذلة والصــون
منيتنــي الأدهــم مــن بعدمـا
فجعتنــي بالأشــهب الجــون
إن تكــذب الميعاد تظلــم وإن
تصـدق فبرذونـاً بـــرذون[1]

كما نراه يعلق على القصيدة التي مطلعها :

ما على الركب من وقوف الركاب
في مغـاني الصبا ورسم التصابي

بقوله : « كان أبو القاسم اسماعيل بن شهاب كاتباً للقاضي أحمد بن أبي دواد • ونرجح ان تاريخ صلة الشاعر باسماعيل بن شهاب ترجع الى سنة ٢٣٢هـ »[2] •

وواضح ان الشارح قد اضطرب في تحديد علاقة البحتري بهذه المدينة وباسماعيل بن شهاب ، فهو يرى ان أول عهده بها كان سنة ٢٢٦هـ ، ثم يعود فيقول : ان ذلك كان سنة ٢٣٢هـ ، والاضطراب بين تاريخي المقطوعة والقصيدة في اسماعيل بن شهاب ظاهر كما ترى !

وفي الديوان أيضا مقطوعة فاحشة في هجاء أخي العطوى الشاعر يرجع الشارح تاريخها الى سنة ٢٢٦ ، ويعقب عليها بقوله : « والشاعر حديث عهد بالعراق »[3] •

واذا علمنا ان العطوي كان من الشعراء المنقطعين الى أحمد بن أبي دواد ، وان شعره لم يشتهر الا حين قصد سامراء ، وان سامراء كانت

(١) نفسه ٤/٢٢٤٢ •
(٢) الديوان ١/٨٣ الهامش •
(٣) الديوان ٣/١٥٨٨ الهامش •

الحاضرة العباسية في هذه الاثناء[1] ، فمن المحتمل ان يكون أخو العطوي هذا في سامراء حينذاك أيضا ، واذا صح هذا فان البحتري كان آنذاك في هذه المدينة ومن ثمّ هجاه !

ومن الغريب ـ اذا صحت هذه الأهاجي وتواريخها ـ ان يبدأ البحتري علاقته بالهجاء ، وأكبر الظن انه لم يقدم على هذا أول الامر ، ومن المحتمل ان يكون قد مهّد لهجائه بشيء من المديح ، وحين وجد إعراضاً عنه لجأ الى ما لجأ اليه من الثلب والشتم .

وأكبر الظن ان البحتري في تردده على سامراء ـ اذا صح انه بدأ منذ سنة **٢٢٦** ـ لم يتسن له الاتصال بالخليفتين : المعتصم والواثق[2] ، فليس هناك ما يدل على شيء من ذلك ، وكل ما اثر عنه في ذلك قصيدة نظمها في أعقاب وفاة المعتصم سنة **٢٢٧**هـ ، رفعها الى ابي سعيد محمد ابن يوسف الثغري الذي كان ينتجعه ويقيم في كنفه ؛ عزّاه فيها بوفاة المعتصم ، وهنأه بقيام الواثق ، قال فيها :

أبا سعيد وفي الايام معتبر
والدهر في حالتيه الصفو والكدر
ما للحوادث لا كانت غوائلها
ولا أهاب لها ناب ولا ظفر
تعزّ بالصبر ، واستبدل اسىّ بأسى
فالشمس طالعة ان غيّب القمر
وهل خلا الدهر : أولاه وآخره
من قائم بهدى مذ كوّن البشر ؟

---

(١) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٧٧ .

(٢) يرى الدكتور طه حسين ان البحتري اتصل بالواثق ، يقول : « ثم انتقل (أي البحتري) الى بغداد « والصحيح سامراء » فاتصل بالخلفاء العباسيين : اتصل بالواثق والمتوكل ومن بعدهما ... » من حديث الشعر والنثر ص ١١٢ ، ولا دليل ـ فيما نحسب ـ على هذا الاتصال المزعوم .

إيهاً عزاءك ، لا تغلب عليه فما
يستعذب الصبر الا الحية الذكر

فلم يمت من أمير المؤمنين له
بقية وان استولى به القدر

مضى الإمام فأضحى في رعيته
إمام عدل به يستنزل المطر

ان الخليفة « هارون » الذي وقفت
في كنه آلائه الأوهام والفكر

وأشار الى موقف أبي سعيد من خلافة الواثق فقال :

ألفاك في نصره صبحاً أضاء له
ليل من الفتنة الطخياء معتكر

سكنت حد أناس فل حدهم
حد من السيف لا يبقي ولا يذر

ودعوة لأصم القوم مسمعة
يصغي اليها الهدى والنصر والظفر

أقمتها لأمير المؤمنين بما
في نصل سيفك اذ جاءت بها البشر

فاسلم جزيت عن الاسلام من ملك
خيراً ، فأنت له عز ومفتخر[1]

ومن الجدير بالملاحظة ، ان شارح الديوان يرى في قول البحتري « ألفاك في نصره صبحاً .. البيت » اشارة « الى مؤامرة العباس بن المأمون مع بعض قواد المعتصم من الاتراك على اغتياله وهو يحارب الروم ... ويرى ان « لابي سعيد موقفاً في احباط هذه المؤامرة التي حفظت للواثق الخلافة »[2] .

---

(١) الديوان ٢/٨٨٢ - ٨٨٣ . (٢) نفسه ٣/٨٨٣ هامش (٩) .

بيد ان الابيات ـ كما تبدو لنا ـ واضحة الدلالة على شيء آخر ، وأكبر الظن انها تشير الى محاولة البعض الخروج على الخليفة الجديد ، وان هذا القائد استطاع ان يقضي على الفتنة في مهدها ، وانه كان من المسارعين في توكيد البيعة . هذا الى مؤامرة العباس بن المأمون مضى عليها ـ عند استخلاف الواثق ـ أكثر من أربع سنوات ، ويبدو ان المصادر التاريخية قد أغفلت الاشارة الى الخارجين على الخليفة الجديد ، في حين انفرد البحتري في تسجيل هذا الحادث .

وللبحتري قصائد أخرى أرخها الشارح في سنة ٢٢٨هـ ، منها قصيدة في محمد بن راشد الخناق ، أحد المختصين بالمعتصم الأثيرين عنده ، يلتمس فيها معروفه ويدعوه بصلة الرحم ووشائج القربى ، ويستميله بحرمة الادب ونصرة الحق التي تربطهما وتجمع بينهما ، فيقول :

إني لفعلـك يا محمـد حـامد
واليـك بالأمـل المصدّق قاصـد
يوصيك بي عطف القـريب ومذهب
في الرشـد سهّله أمامك راشـد
ولقـد هززت فكنت أحمد منصـل
غمدته لخمـك في العلا او غامـد
أدعـوك بالرحـم القريبـة انهـا
ولهـى تحن كمـا تحنّ الفاقـد
وبحـرمة الادب المقـرّب بيننـا
والنـاس فيـه أقـارب وأباعـد(١)

واذا صح ان محمداً هذا كان من مقربي المعتصم والمختصين به فتكون هذه القصيدة ـ على الاغلب ـ مما قيل في الممدوح وهو في سامراء !

---

(١) نفسه ١/٥٦٥ .

صلة البحتري ببعض الرجال والكتّاب :
آل الحسن بن سهل :

ومن شعر البحتري الذي يدور في فلك هـذا التاريخ قصائده في الحسن بن سهل وولديه : ابراهيم والحسين • وله فيهم جميعا (١٥) خمس عشرة قصيدة ومقطوعة تشتمل على « ٣١٥ » ثلاثمائة وخمسة عشر بيتا ، من ضمنها ما أنشأه في غلامه نسيم الذي ابتاعه منه ابراهيم كما سيأتي •

واسرة بني سهل فارسية الأصل ، وكان الفضل والحسن من اشهر ابناء هذه الاسرة ، فقد استوزرهما المأمون في غضون خلافته ، كما تزوج بوران ابنة الحسن المذكور• وأصيب الحسن بمرض شديد كان من اثره تغيّر عقله ، حتى شدّ في الحديد وحبس في بيت • وبعد ابتناء سامراء في عهد المعتصم ، أقطع الحسن في جملة من اقطع من رجـال الخليفة وقواده وحاشيته في هذه المدينة ، ويبدو ان قطيعته كانت مشهورة معروفة ، فكان يقيم هو وأولاده فيها • وقد توفي الحسن في سامراء سنة ٢٣٦هـ[١] •

عيد المهرجان :

ولعل أول ما أنشأه البحتري في أسرة بني سهل هذه القصيدة التي رفعها الى الحسن نفسه ، وقد استغرقت المقدمة الغزلية (١٢) اثني عشر بيتاً ، أشاد بعدها بصفات الممدوح من مجد عريق ، وكرم فياض ، ورأى حصيف ، وتدبير محكم ، واعتزاء الى كسرى ، وامارات الهيبة والوقار ، وقدرة على اطلاق الحكم البليغة ، ثم أخذ يحثه على الاحتفاء بعيد المهرجان ، عيد آبائه الفرس القدامى الذين كانوا يعظمونه ويوقرونه ، فقال :

شغـل الحمـد والثنـاء جميعـا
عـن جميـع الورى نوال الأمـير
واذا مـا استهـل بالحسـن الجـو
د فـانّ الكثـير غـير كثـير

(١) أنظـر : الطبري ٥٢٧/٩ ، ٥٢٨ ، ٥٦٨ (دار المعارف) ، وسامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٧٢ ، والبلدان لليعقوبي ص ٢٥ •

ملك عنده على كل حالٍ
كرم زائد على التقدير
فكأنا من وعده وجداه
أبداً بين روضة وغدير
جامع الرأي ليس يخفى عليه
أين وجه الصواب في التدبير
كسروى عليه منه جلال
يملأ البهو من بهاء ونور
وترى في روائه بهجة المل
ـك ، وخلت الايوان من كافور
يطلق الحكمة البليغة في عر
ض حديث كاللؤلؤ المنثور

* * *

يابن سهل وانت غير مفيقٍ
من بناء العلياء أخرى الدهور
ان للمهرجان حقاً على كل كبير من فارس وصغير
عيد آبائك الملوك ذوي التيـ
ـجن ، أهل النهى وأهل الخير
عظموه ووقروه ومخفو
ق بفضل التعظيم والتوقير
هو يوم ، وفيه من كل شهر
خلق ، فهو جامع للشهور
وكأن الأيام أوثر بالحسـ
ـن عليها ذو المهرجان الكبير[1]

(١) الديوان ٢/٨٨٤ ـ ٨٨٧ .

والقصيدة – كما يخيل الينا – واضحة التكلف ، وهي الوحيدة في الممدوح ، ولعل البحتري اكتفى بها ؛ بسبب اعتلال صحة الحسن ، واتخذها وسيلة للاتصال بهذه الاسرة !

شعره في ابراهيم :

وأكثر ما روى للشاعر في بني سهل كان في ابراهيم بن الحسن بن سهل وقصائده فيه تنقسم قسمين : قسم قاله حين ابتاع منه ابراهيم غلامه نسيماً الذي جعله – كما يقال – باباً من ابواب الحيل على الناس ، فكان يبيعه لذوي المروءة والثراء ، ثم يعود الى التشبيب به والتشوق اليه ، ومدح من يكون في حوزته حتى يهبه اليه[1] . وكان ابراهيم من اصدق الناس للبحتري كما يقال[2] .

ويبدو ان ابتياعه كان امتحاناً لمغالاة الشاعر في التظاهر بحبه والحرص عليه ، وانتقاما منه لما أثر عنه من هجائه ابن سهل[3] ، فما كادت تمر أيام على فراقه حتى ثارت ثائرة البحتري ، وقامت قيامته ، وندم على ابتياعه . وراح يلتمس كل وسيلة ممكنة لارجاعه ، فعاتب ابراهيم في غير شعر ، ولما رأى اصراره في الاحتفاظ به ، لجأ الى القريض يبثه اشواقه وحنينه ويدعو فيه ابن سهل ان يرق له ويردّ عليه نسيمه ، فقال في ذلك هذه الأبيات التي اعلن فيها عن قلقه واضطرابه ، وعن اطراحه مجالسة الندماء وعزوفه عن الشراب ، وندامته على ابتياع غلامه والتماسه من ابي الفضل اعادة النظر في امره فقد أشرف على خطر مهول ، وأصابه جزع شديد لا يخففه التعزي ، ولا التصبر ، وأنىّ له السلوان والقلى وليست الدار بينهما ببعيدة ، ولا العهد بقديم :

---

(١) نفسه ١/٥٢٩ الحاشية .

(٢) أنظر : اخبار البحتري ص ١٥٧ .

(٣) أنظر : طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٤ – ٣٩٥ ، واخبار البحتري ص ١٣٠ .

املوا الزجاج الصفو عني فانكم
أقمتم وما شخصى لكم بمقيم
فان متّ كان الموت من كرم الهوى
وليس الهوى ان لم أمت بكريم
فقل لنسيم الورد عنك فانني
أعاديك اجلالا لوجه نسيم
ندمت ، وقال الناس كيف تركته ؟
فقل في ملامٍ واقع بمليم
أبا الفضل راجع من حجاك فانني
على خطر مما يخاف عظيم
وخبّرتني أن العزاء تكرّم
وهل يتعزى عنه غير لئيم
فما الدار فيما بيننا ببعيدة
ولا العهد فيما بيننا بقديم(١)

واتبع البحتري الابيات السابقة بقصيدة أخرى بكى فيها غلامه الذي فارقه واختفى عن ناظره طيفه ، وتعذرت عليه رؤيته ، وهو الحبيب ذو الوجنات الموردة ، والقد الرشيق الذي بدّل الاعداء اسمه وغيّروه ـ ولعل ذلك كان نكاية بالبحتري وايغالا في ايلامه ـ ثم وصف ما يكابده من تباريح الحب ، ولواعج الشوق ، وادعى ان حبه لا يدانيه حب جميل لبثينة ، ولا عمرو بن عجلان لهند ، والتمس من ابن سهل ان يرده عليه ، وان يكتفي بما لديه من الغلمان ؛ لانه ليس بمقدوره سلوانه ولا التصبر عنه :

دعا عبرتي تجري على الجور والقصد
أظنّ نسيماً قارف الهجر من بعدي

(١) الديوان ٤/٢٠٧٤ ـ ٢٠٧٥ .

خلا ناظري من طيفه بعد شخصه
فيا عجباً للدهر فقداً على فقد
خليليَّ ! هل من نظرة توصلانها
الى وجنات ٍ ينتسبن الى الورد
وقد يكاد القلب ينقدُّ دونه
اذا اهتز في قرب من العين أو بعد
بنفسي حبيب نقلوه عن اسمه
فبات غريباً في رجاء وفي سعد
فيا حائلا عن ذلك الاسم لا تمل
وان جهد الاعداء ، عن ذلك العهد
هوى لا جميل في بثينة ناله
بمثل ، ولا عمرو بن عجلان في هند

* * *

ابا الفضل في تسع وتسعين نعجة
غنى لك عن ظبي بساحتنا فرد
أتأخذه مني وقد أخذ الجوى
مآخذه مما أسرَّ وما أبدى
وتخطو اليه صبوتي وصبابتي
ولم يخطه بثي ، ولم يعده وجدي
وقلت : اسل عنه والجوانح حوله
وكيف سلوّ ابن المفرّغ عن برد(١)

ويبدو أن شدة وله الشاعر بغلامه استحوذت على نفسه وطغت على تفكيره ، فليس هناك من يهمه أو يفكر فيه سوى غلامه نسيم الذي افتقده وافتقد طيفه أيضا ، وان حسراته لتطغى ، واشجانه لتعتلج حين يرى غلام

(١) الديوان ١/٥٨٢ ـ ٥٣٠ .

غيره يرد الى صاحبه في حين يمتنع عليه غلامه ويتعذر :

أنسيم هـل للدهر وعـد صادق
فيمـا يؤملـه المحـب الوامـق ؟

مالـي فقـدتك فـي المنام ولـم تزل
عـون المشوق اذا جفـاه الشائق

أمنعـت أنت مـن الزيارة رقبـة
منهم ، فهل منع الخيال الطارق ؟

اليـوم جـاز بي الهـوى مقداره
في اصلـه ، وعلمـت اني عاشـق

فليهنىء الحسـن بن وهـب انـه
يلقى أحبتـه ونحـن نفـارق[1]

ويضيق البحتري ذراعاً بفراق غلامه واحتجابه عنه فيعود الى نفسه لائماً عـلى ما بدر منه ، ومقرّعاً لما فرّط فيه ، وواصـفاً نفسـه بالخبث واللؤم والظلم وبأن لا أمل له في هوى غلامه الذي دونه عين الرقيب ، وباب ابراهيم الذي ابتاعه :

قـل للجنوب : اذا غدوت فأبلغي
كبـدي نسيماً من جنـاب نسـيم

أخدعت عنـك وانت بدر خـادع
لليـل عـن ظلـم لـه وغيـوم

كرم الزمان ، ولمت فيك ، ولن ترى
عجبـاً سوى كـرم الزمان ولومي

وظلمت نفسي جاهـداً في ظلمهـا
فاسـمع مقـالة ظـالم مظلـوم

---

(١) نفسه ١٥١٣/٣ ٠

قد زاد يوم البؤس بعدك انه
أفضى اليّ بعقب يوم نعيم
فأقمت في قلبي وشخصك سائر
لا تبعدن من ظاعن ومقيم
لا كان وجدي ! أين كان وانت لي
ملك ، وعهدي منك غير ذميم
الآن أطمع في هواك ودونه
عين الرقيب وباب ابراهيم[1]

ويبدو ان لحاجة الشاعر وعتابه لابراهيم جعلتاه يرجع اليه غلامه ، وكان لقصيدته الضادية أثر كبير في هذا الشأن . جاء في أخبار البحتري عن ابنه ابى الغوث قوله : « قال لي ابي : لم ينفعني عند ابراهيم بن الحسن وسيلة في رد غلامي الا أبياتي الضادية :

أما الشباب فقد سبقت بغضه

وكان متسخطاً لشيء بلغه عني ، فقلت فيها :

ومكايد لي بالمغيب رميته
بصريمة كالنجم في منقضه

القصيدة »[2] .

والقصيدة افتتحها بالغزل ثم هاجم من كاد له في المغيب فنال منه ، ومما رماه به ، وانتقل الى ما وصله من عتاب ابن سهل له الذي غيّره عليه الوشاة ، وجهد ان يتنصل ويعتذر مما رمى به ووصم ، وقد تلطف في ذلك وأبدع حتى ليخيل الينا أن هذه القصيدة تعد ترشيحا لقصائده الاعتذارية والعتابية التي عرف بها البحتري فيما بعد ، قال :

ومكايد لي بالمغيب رميته
بصريمة كالنجم في منقضه

(١) الديوان ٣/١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ . (٢) أخبار البحتري ص ١٣٠ .

فرددت ظلمة يومه في أمسه
وأريته إبرامه في نقضه
أمضيت ما أمضيت فيه ، ولو ثنى
بإشارة أمضيت ما لم أمضه

* * *

وعتاب خل قد سمعت فلم أكن
جلْد الضمير على استماع ممضّه
هذا أبو الفضل الذي صرح الندى
في راحتيه مشوبه عن محضه
لم نختدع بجهامه عن غيمه
يوماً ، ولم نر خلّباً من ومضه
طاف الوشاة به فأحدث ظلمة
في جوّه ، ووعورة في أرضه
غضبان حمّل إحنة لو حملت
ثبج الصباح لثقلّت من نهضه

* * *

مهلاً ! فداك أخوك ذو الهيئة
عن لهوه ، وشغلته عن غمضه
خزيان ، أكبر أن تظن خيانة
في بسطه بصديقه أو قبضه
ماذا توّهم ان يقول ، وقوله
في نفسه ، ولسانه في عرضه ؟
أنبوت عنك بزعمهم ؟ ومتى نبا
في حالة بعض امرىء عن بعضه

أنصلت من عَود الحيـاء وبدئه
وخرجت من طول الوفاء وعرضـه

المذحجيـة بيننـا موصـولة
بنوافـل الادب الاصـيل وفرضـه

ونزدد المكأس أحـدث حرمـة
أخرى ، وحقاً ثالثاً لم نقضـه[1]

ردّ غلامه اليه :

بعد ان أنشأ البحتري ما أنشأ في غلامه نسيم رق له ابراهيم الذي ابتاعه منه فردّه عليه ، فقال البحتري هذه القصيدة الرائية يمدحه فيها ويشكره على صنيعه ، ولم يبدأها ـ كعادته ـ بالغزل ، وانما دخل في صلب غرضه الاساس ، ففدى بنفسه الممدوح الذي ورد بحر كرمـه المتفجر وغرس في فنائـه آمالـه فزكت واورقت وأثمرت ، ثم التفت الى الوشاة الذين سعوا بينهما فكانوا سبب الخلف والافساد فندد بهم ونكل واعترف بتقدمه بالهجران الذي أدى الى تأخـر حظوظه في الخـير والاحسان ، وادعى انه لم يرم زيارة قطيعـة الممدوح لولا ما يأمله من وجوده فيها ، حيث كان يقصده ـ كلما شـعر باستبطاء وده ـ بشعره المفوّف المحبّر . ويسترسل الشاعر فيعترف بذنبه الكبير وغدره المنكر ، ومجازاة الممدوح له بالصفح عنه ، واسداء المعروف له ، ولا ينكر انـه بسبوغ نعمة آل الممدوح عليه تسهلت صعاب حيـاته ، وتندت جفوف معيشته ، وانه ليعد نفسه ابناً لهم دون سـواهم ، ويعدّهم احباءه المقربين دون رهطه وقبيله ، ثم يعود الى الممدوح فيطريه ويكبر ما وهبه له ، وردّه عليه من العطء الجزل فيقول :

فداؤك نفسي دون أهلي ومعشـري
ومبداى من علـو الشـآم ومحضـري

---

(١) الديوان ٢/١١٩٥ ـ ١١٩٧ .

فكم شيعِ جود يقصر البحر عنده
توردته من سيبك المتفجر
وكم أمل في ساحتيك غرسته
فمن مورق أزكى النبات ومثمر
فلا يهنىء الواشين إفسادُ بيننا
بأسهمهم من بالغ ومقصِّر
تقدمت في الهجران حتى تأخرت
حظوظي في الاحسان كل التأخر
ولولاك ما رمت القطيعة بعدما
وقفت عليها وقفة المتحير
وكنت اذا استبطأت ودك زرته
بتفويف شعر كالرداء المحبّر
أتيت بمعروف من الصفح بعدما
أتيت بمذموم من الغدر منكر
عتاب بأطراف القوافي كأنه
طعان بأطراف القنا المتكسّر
واجلو به وجه الإخاء واجتلى
حياء كصبغ الأرجوان المعصفر

* * *

بنعمتكم يا آل سهل تسهلت
عليّ نواحي دهريَ المتوعّر
شكرتكم حتى استكان عدوكم
ومن يول ما أوليتمونيه يشكر
ألست ابنكم دون البنين وانتم
أحباء أهلي دون معن وبحتر

أبا الفضل ان يصبح فعالك ازهـــراً
فمن فضل وجـــه في السماحة أزهر
وهبت الذي لو لم تهبــه لما التوى
بك اللوم ان العذر عنـــد التعذّر
وكان العطـــاء الجزل ما لم تحلّـــه
ببشـــرك مثل الروض غير منوّر(١)

أما القسم الآخر فهو الذي قاله في ابراهيم بمناسبات شتى .

سليل المجد :

فمن شعر البحتري في هذا القسم هذه القصيدة التي تحدث فيهـا بعد المقدمة الغزلية عن الممدوح الذي يعتزى الى نسب عريق ، وينتمي الى أصل كريم ، فآباؤه من الملوك الذين طابوا أعراقاً ، وشرفوا محامد ومكارم ، واتخذوا لهم مواطن الحضارة ، وانتأوا عن مساكن البداوة ، وانه ـ أي الممدوح ـ سليل أب كان له فضل لمّ شعث الطوائف المتفرقة ، وانـه حين ورد العراق وجد ملكه (أيدي سبأ) فاستن لنفسه سيرة أحد أجداده القدامى وهو أزدشير ، فأقام الملك ، وجمع القلوب ، وأخمد الثورات فاطمأن الناس ، وهدأت الأحوال . ومعلوم ان الحسن بن سهل والد الممدوح ولاّه المأمون في سنة ١٩٨ هـ « كل ما كان طاهر بن الحسين افتتحه من كور الجبـال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن »(٢) فقدم بغداد في سنة ١٩٩ هـ من عند المأمون واليه الحرب والخراج فلما قدمها فرّق عمالـه في الكور والبلدان(٣) .

وبعد أن أثنى الشاعر على اسرة الممدوح أشار الى ان سموه ورفعته لم تكونا نتيجة ما عرف به من كرم الأصل ، وعراقة المحتد ، بل ان له من كريم

---

(١) الديوان : ٢/٨٨٩ ـ ٨٩١ .
(٢) الطبري ٨/٥٢٧ .
(٣) نفسه ٨/٥٢٨ .

الفضائل ، وفنون المحاسن ما يبوئانه ذرا المجد ، ويضعانه في اسمى مراقى الحمد • ويمضى البحتري يفاضل بين ممدوحه وبين الليث الذي شبهه به في البسالة وفضله في الجود والعفو ، ثم يطرى أريحتــه للكرم واهتزازه للمعروف ، ويفاضل بينه وبين الغيث الهاطل فيفضله عليـه لعمومه المعتفين بجدواه ، وخصوص الغيث ارضاً دون أخرى بجوده ، ويسترسل في اسباغ النعوت عليه فيصفه بالمواهب المشهورة والمواعد المعروفة وينهـي المدحة بشكر الممدوح على عطاياه •

ويبدو ان البحتري لم يجد في الممدوح سمة معينة تميزه كما وجد في غيره ، ولهذا فقد ذهب الى اسرته يستمد منها العون للاشادة به والتلويح بفضله :

وأغرّ للفضـل بن سـهل عنـده
كـرم اذا ما العمّ ورّث لومـا

ملك اذا افتخر الشـريف بسـوقة
عـدّ الملـوك خؤولـة وعمومـا

من معشـر لحقت اوائـل ملكهم
خلف القبـائل جرهمـاً وأميمـا

نزلـوا بأرض الزعفران وغـادروا
أرضـاً تربّ الشيح والقيصـوما[1]

كانوا أسـوداً يقرمون الى العـدى
نَهَمـاً اذا كـان الرجال قرومـا

وابن الذي ضمّ الطوائف بعدما افـ
ـترقت فعـادت جوهـراً منظومـا

---

(١) تربّ : تجمع •

ورد العـراق وملكهـا أيدى سـبـا
فاسـتار سـيرة ازدشير قديمـا[1]
جمع القلـوب وكان كلّ بنـي أب
عرباً لشـحناء القلـوب وروما
أفتـى بنى الحسـن بن سـهل إنهم
فتيـان فـارس نجـدة وحلوما
لا توجبنْ لكريـم أصلك مِنّـة
لو كنت مـن عُكل لكنت كريما
فلك الفضـائل من فنون محاسـن
بيضـاً لافـراط الخلاف وشـيما
مـا نـال ليث الغيث الا بعضـها
حتـى رعى مهج النفـوس حميما
شـاركته في البـأس ثم فضـلته
بالجـود محقوقـاً بذاك زعيمـا
ورأيت يوم نداك أشـرق بهجـة
واهتـزّ أطرافـاً ، ورقّ نسـيما
وشهدت يـوم الغيث فـي هطلانـه
جهمـاً محيّـاه أغـمّ بهيمـا
ويخص أرضـاً دون أرض جَـوده
وسـحاب جودك فـي العفاة عموما[2]
أثنـي عليك ثنـاء مـن ألفيتـه
غُفْلا فعـاد بنعمـة موسـوما

(١) استار : مشى على خطته واستن بسنته ٠

(٢) الجَود : (بفتح الجيم) المطر الغزير ٠

وشكرت منك مواهباً مشهورة

لو سرن في فلك لكنّ نجوما

ومواعداً لو كنّ شيئاً ظاهراً

تفضي اليه العينُ كنّ غيوما

كان ابتداؤك بالعطاء عطيّة

أخرى ، وبذلك للجسيم جسيما[1]

الادب المحض :

ومن مدائح البحتري في ابراهيم ايضاً هذه الفائية التي أثنى فيها على الممدوح الذي اوجدته اياه همة قطعت به الفيافي والخروق ، ووجد في كنفه الرضا والوثوق ، وإنّ سبباً متيناً من الادب الالص يربط بينهما • ويبدو ان الممدوح كان يتذوق الادب ويحفل به ، وكان من حفاوته به واحتفاله ان قربه منه ، ومدّ عليه وظله ، وبوأه منزلاً من منازله • ومضى الشاعر يعدد صفات الممدوح ويتفنن في ذكرها والاشادة بها ، فهو يهش للعطاء ، ويحدب على معتفيه ، ويسمو الى المعالي ، ويحل المعضلات ، يروح بحلم ثقيل ، ويغدو بفهم خفيف ، متمرس بالأمور ، بصير بعواقبها ، حديد القلب ، شجاع النفس ، لا يرهب الوغى ، ولا يخشى الخصوم ، يدهم بحملته الزحوف فيفلها ويبددها ، ويشتد في مقارعة العدو فيسد عليه منافذ الهرب والفرار ، وهو الى كل ذلك سليل أسرة مشهورة بكرم المحتد ، وعراقة الأصل ، وقد ساد وهو ما زال في ميعة الصبا ، وعنفوان الحداثة :

وخليل لا أرهب الدهر ما دمـ

ـت أراه ، والدهر جمّ الصروف

أوجدتنيه همّة خرقت بي

كلّ خِرق من البلاد مخوف

---

(١) الديوان ٣/١٩٦٤ ـ ١٩٦٨ •

لا يفيد الصـــديق من لا يفيد الـ
ـعيس حظـاً من الوجـا والوجيف[1]
أنا راض ٍ وواثق من أبـــي الفضـ
ـل ، بفعـل عـلى الندى موقـوف
سـبب بيننـــا مــن الادب المحـ
ـض قوى ّ الأســباب غير ضــعيف
وحليفـي عـلى الزمـان سـماح
مـن كريـم للمكرمـات حليـف
قلبـي ّ يكاد يخـرج مـن وهـ
ـمك فـي شـكله الرشيق الظريف
وكأن الشـليل والنثـرة الحصـ
ـداء منـه عـلى سـليل غريف[2]
صـاحب الحملة التـي تنقض الزحـ
ـف مـن جـانب الخميس الكثيف
حيث لا يهتـدى الجبـان الى الفر ّ
وحيث النفـوس نصـب َ الحتـوف
فـي لفيف مـن المنـايا يمزقـــ
ـن غـــداة الهيجـاء كل ّ لفيف
ومقـــام بـين الأسـنة ضـنك
وهشـيم مـن الظبـا مرصـوف
مد ّليلاً عـــلى الكمـــاة فما يمـ
ـشون فيـه إلا ّ بضـوء السـيوف

(١) الوجا : الحفا • الوجيف : العدو السريع •

(٢) الشليل : الغلالة تلبس تحت الدرع ، أو الدروع الصغيرة • النثرة : الدرع الواسعة أو السلسة الملبس • الحصداء : الضيقة الحلق المحكمة • الغريف : الشجر الملتف •

يا ابا الفضـــل قد تناهى بلوغ الـــ
ـــفضل من دون فضلك الموصـــوف
ســـدت فـي سنك الحديث وما النجـ
ـدة الا للأجـــدل الغطـــريف(١)

وعلى الرغم من ان النعوت والاوصـاف التي خلعها البحتري عـلى الممدوح قد سبقه اليها الشعراء ، فانه تناولها بشيء من البراعة والطرافة ، وسكب عليها من قوة خياله ، ولطف فنه ما أحالها الى صور تكاد تبدو وكأنها من مبتدعاته وطرائفه .

رب القريض :

وهذه مدحة أخرى في ابراهيم تسعة الأبيات الاولى منها في التشبيب ، وما تبقى في الثناء على الممدوح الذي ـ كما يبدو ـ قصده الشاعر في السفن ، وقد حمل اليه الفاظاً مدبجة موشاة متبخترة ، ويظهر ان ابراهيم ـ كما اسلفنا ـ كان يتعاطى الادب ولعله كان يقرض الشعر أيضاً ، وان لم تشـر المراجع الى شيء من هذا ، ولكن تكرار البحتري لهذا الأمر دليل على ميل الممدوح الى ذلك ، فهو يقول : انه يهدى القريض الى (رب القريض) وان فعله هذا كفعل من يحمل البرود والعصـب الى مواطنهـا ومهدها ، وان انشغاله برد شكره قد اوقفه عن بكاء اطلال الاحبة ودمنهم ، ثم يسترسل في اطرائه والثناء عليه والاكتفاء به دون سواه ، ويمتدحه بالفهم والفطنـة ، فيقـول :

ان الهمـوم اذا أوطـــن فـي خلـد
للمرء ســار ولـم يربـع عـلى وطن
الى المهـــذب ابراهيـــم اوصـــلنا
آذيّ دجلـــة فـي عيْر من السـفن
غرائب الـــريح تحدوهـــا ويجنبهـــا
هادٍ مـن المـــاء منقـــاد بلا رســن

(١) الديوان ٣/١٣٦٣ ـ ١٣٦٦ .

جئناك نحمل ألفاظاً مدبجة
كأنما وشيها من يمنة اليمن

كأنها وهي تمشي البحترية في
يدي أبي الفضل أو في نائل الحسن

نهدي القريض الى رب القريض معاً
كحامل العصب يهديه الى عدن

من كل زهراء كالنوّار مشرقةٍ
أبقى على الزمن الباقي من الزمن

شكر امرىء ظلّ مشغولاً بشكرك عن
فرط البكاء على الأطلال والدمن

قد قلت اذ بسطت كفاك من أملي
ما شاء من نائبات الدهر فليكن

رضيت منك بأخلاق قد امتزجت
بالمكرمات امتزاج الروح بالبدن

وزدتني رغبة في عقد ودك اذ
شفعت ذاك الندى بالفهم والفطن

تدني الى المجد كفاً منك قد أنست
بالبذل والجود أنس العين بالوسن

من يصبه سكن ممن يحب ومن
يهوى ، فما لك غير المجد من سكن(١)

فنون الادب :

ومن مديحة فيه هذه القصيدة التي أشاد فيها بفضائل الممدوح وخلاله، ويظهر ان ابراهيم ـ كما كرنا من قبل ـ لم يكن معروفاً بصفة معينة ،

---

(١) الديوان ٤/٢١٩٣ ـ ٢١٩٥ ، وأنظر الديوان ١/٣٠٣ ـ ٣٠٤ طبعة بيروت ١٩٦٢ ٠

ولهذا فما يذكره البحتري فيه لا يعدو ان يكون اوصافاً عامة ، كما كان يتخذ من عراقة أسرته الفارسية مادة لاطرائه والثناء عليه ، فهو ابن أخي الفضل بن سهل وزير المأمون الملقب بذي الرئاستين ، وان له من الشمائل الكريمة ما يكرم الدهر بعد لؤمه ، ومن الجُمَل ما لو قسمن على الخلق لما عاد بينهم لئيم ، كما له شيم غضة تروح وتغدو في هبوبها عبقة مؤرجة ، ومآثر قد سمت وتعالت حتى لتهيئه للامر الرئاسي ، ثم ينعطف الى آله الذين يعتزون الى بني ساسان جوداً ونجدة وأحلاماً ، وانه باسل القلب ، شجاع النفس في المعامع والحروب ، طلق المحيا ، باش الوجه للعفاة والمعوزين ، بل اته قد حاز من كل فن من فنون الآداب حظاً عظيماً ، ولعل هـذا البيت يستقطب كل ما بثه الشاعر في ثنايا مدائحه فيه ، وهذا دليل آخر على ان البحتري لم يلمس في الممدوح صفة بارزة يتخذها مادة لمدائحه فيه كما فعل في مدائحه للفتح والمتوكل والمعتز وغيرهم فيما بعد .

وبعد نعته برقة الالفاظ ، واتعاب العلا إياه ، يختتم المدحة بتكرار نعته له بالبذل والجود :

يا أبا الفضل والـذي ورث الفضـ
ـل عن الفضـل حادثـاً وقديمـا
قـد لعمري أعدت شـمائلك الدهـ
ـر فأضحى من بعد لؤم كريما
لك مـن ذى الرئاسـتين خلال
معطيـات في المجـد حظاً جسـيما
جمـل فيك لو قسـمن عـلى النا
س لمـا أصبح اللئيـم لئيماً
شـيم غضـة تروح وتغـدو
أرجـاً فـي هبوبهـا ونسـيما

قد تعالت بك المآثر حتى
قد حسبناك للسماك نديما
كل يوم آمالنا فيك للأمـ
ـر الرئاسيّ تقتضيك النجوما
آل سهل انتم غيوث بني سا
سان : جوداً ونجدة وحلوما
ايّ فضل ؟ وأيّ بذل وجود
لم يحالف ذا الجود ابراهيما
كسرويّ تلقاه في الحرب ليثاً
قسورياً ، وفي الندىّ حكيما
هبرزيّ قد نال من كل فن
من فنون الآداب حظاً عظيما
ورقيق الألفاظ يرصف في الأسـ
ـماع دراً ولؤلؤاً منظوما
أتعبته العلا فأبقت ندوباً
متعبات بجسمه وكلوما
كل يوم يفيده البذل والجو
دمتى كان ظاعناً أو مقيما
حمد عافٍ ، وذم لاح ، فيغدو في جزيل اللهى حميداً ذميما(١) .

عربدة وعتاب :

يبدو ان العلاقة بين البحتري وابراهيم كانت متينة وثيقة وانهما كانا يتنادمان على الشراب ، وقد ألمح البحتري الى ذلك في خاتمة احدى قصائده فيه وذلك حيث يقول :

---

(١) الديوان ٢٠٥٧/٤ ـ ٢٠٦٠ .

وتردد للكأس أحدث حرمة أخرى ، وحقاً ثالثاً لم نقضه[1]

وقلما تخلو مجالس الشراب من التعكير والتكدير بما يقوم به الندماء من العربدة والتهور حيال بعضهم البعض . وللبحتري قصيدة موجهة الى ابراهيم يعاتبه فيها على عربدة كانت منه عليه استهلها بذكر تحول رأى ابراهيم عنه وتغيره عليه فأظلم ما كان بالامس نيراً بينهما ، وأشار الى ما يراه في عينيه من أمارات الضغائن والأحقاد والى ما حدث في اخلاقه الدمثة من التصلب والتعقد ، وانه كلما حاول ان يتقرب منه أبعده عنه محتجاً ببعد ما بينهما من النسب الذي لا ذنب للشاعر فيه وانما هو من صنع الله الذي فطر الناس وتولى أمر عبيده ، ويسائله البحتري عن خرائده السائرة فيه التي تجوب التهائم والنجود ، والتي بنت له معقلاً ثابتاً في الشعر ، وابقت منه ذكراً خالداً في القصيد ، فيقول له : أما كان لهذه السوائر من حرمة تصونها ، وعهد ترعاه ، وهذا دليل على تأخر هذه القصيدة بالنسبة لمدائحه فيه ، ثم يشير الى ما كان يقوم به ابراهيم تجاهه من النزقات والعرابد في مجالس الشراب ، ودوران الكؤوس ، ويلمح الشاعر الى انه لا قوة له تعضده للوقوف في وجهه ، ولكنه ان فقد المعين والمساند فان له شعلاً ذات لهيب ترهب الحر وتخيفه ، ولو شاء لثار ثورة عارمة حيال من يتعالى عليه ويزيد في خصامه ، ولكن أنى له ان يفعل ذلك في اخيه الذي عافذه بخلاف هذا الأمر ، وبعد ان اعلن البحتري عن رأيه الذي لا يخلو من صرامة وتهديد حاول ان يلطف من عتابه ويُميل اليه قلب صديقه الذي قد يخامره الشك في ان الشاعر يتوعده ويتهدده ، فقال : انه يتوب اليه بدافع من الثقة الأخوية الطريفة التليدة ، ويشكره على ما اولاه اياه من نعم ومنح ، وان كان يعلم ان الوفاء في هذه الأيام مهلك مودٍ ، وانه سيرحل وفي نفسه شيء من العتاب ، ولكنه عتاب لا ينطوي على التهديد والوعيد ، كما سيحفظ منه ويصون ما ضيعه من الشاعر ، على الرغم مما يروجه المكاشح ،

---

(١) أنظر : ص ٣٣ من هذا البحث .

ويشيعه الحسود ، وانه يرى من الحزم له ان يصدر عن ورود الماء ، ويعافه اذا ما استوبأه وعلم بمضرته ، كما انه ليصد عن صديقه ويهجره اذا ما لمح في وصاله شيئاً من المنفعة والمتاجرة ، ويبدو ان البحتري حاول في اعقاب القصيدة ان يقارن بين شخصيتين : فارسية وهي التي يمثلها ابراهيم ، وعربية وهي التي يمثلها ابو سعيد محمد بن يوسف الثغري احد ممدوحيه ، فأهدى سلامه لأبي سعيد الذي سعد بكنفه العفاة ، والذي لم يتعصب للانساب ، وانما جعل تعصبه للمعالي ، وقد خلّد مجده بين القوافي السائرة ، لما كان يحفل به منها ومن أربابها ، وانه ان الح في اطراف ظنونه شيئاً ما فيه ، فان معروفه المتواصل عليه يكذب ظنه ، ويقضي على توهمه ، ولعل في هذا كله تعريضاً بابن سهل الذي وجد فيه الشاعر كل ذلك كما أسلفنا :

أإبراهيم ! دعوة مستعيد
لرأي فيك محمود فقيد
تجلّى بشرك الأسيّ عني
تجلّى جانب الظل المديد
وأظلم بيننا ما كان أضوا
على اللحظات في فلق العمود
وفي عينيك ترجمة أراها
تدل على الضغائن والحقود
وأخلاق عهدت اللين منها
غدت وكأنها زبر الحديد[1]
أميل اليك عن ود قريب
فتبعدني على النسب البعيد
وما ذنبي بان كان ابن عمي
سواك ، وكان عودك غير عودي

---

(١) زبر الحديد : القطع الضخمة منه .

أما استحييت من مِدَح سوار
بوصفك في التهائم والنجود
تودّ بانها لك فيّ عجباً
بجوهرها المفصّل في النشيد
بنت لك معقلاً في الشعر ثبتاً
وأبقت منك ذكراً في القصيد
وتبدهني اذا ما الكأس دارت
بنزقات تجيء على البريد
عرابد يطرق الجلساء منها
عليّ كأنها حطب الوقود
ومعترضين إن عظّمت أمراً
بهم شهدوا عليّ وهم شهودي
ومالي قوة تنهاك عني
ولا آوي الى ركن شديد
سوى شعل يخاف الحر منها
لهيباً غير مرجوّ الخمود
ولو اني أشاء وانت تُربي
علّ لثرت ثورة مستقيد[1]
وقد عاقدتني بخلاف هذا
وقال الله اوفوا بالعقود
أتوب اليك من ثقة بخل
طريف في الأخوة او تليد
وأشكر نعمة لك باطلاعي
على ان الوفاء اليوم مود

---

(١) المستقيد : الذليل الخاضع ٠

سأرحل عاتباً ويكون عتبي
على غير التهدد والوعيد
واحفظ منك ما ضيعت مني
على رغم المكاشح والحسود
سلام كلما قيلت سلام
على سعد العفاة أبي سعيد
فتى جعل التعصب للمعالي
ووجّه وده نحو الودود
وخلّد مجده بين القوافي
وبعض الشعر أملى بالخلود
كذلك لاح في أقصى ظنوني
فلم ألحظه لحظة متزيد
وكيف يكون ذاك ، وكل يوم
يقابلني بمعروف جديد[1]

الاعتلال بالاباطيل :

وهذه ابيات للبحتري يشكو فيها مماطلة ابراهيم ، وقلة نائله ، واعتلاله بالأباطيل ، ولعلها قد أنشئت في اعقاب القصيدة الآنفة التي أنشاها عند عربدة ابن سهل عليه في احد مجالس الشرب :

إلام بابك معقوداً على أمل
وراءه ، مثل ماء المزن ، محلول
إذا أتيتك اجلالا وتكرمة
رجعت أحمل براً غير مقبول
فاليوم أكسب نفسي نيّة قَذفاً
عن اعتلال عليّ بالأباطيل[2]

---

(١) الديوان ١/٥٧٦ ـ ٥٧٩ .
(٢) نية قذف : بعيدة

فان أردتك عرّضــت الرسـول لمـا
أخشى من الردّ ، واستأذنت من ميل[١]

وداع :

ولعل آخر ما أنشأه البحتري في ابراهيم هذه القصيدة التي يودعه فيها حين خرج الى البصرة • وقد اودع الشاعر فيها أسفه وحزنه على فراق الممدوح له الذي ذهب بذهابه ما كان يجده من كرم ونوال ، والــذي سيجد نفسه عقبه كالضائع ، وان صنائعه التي اعتادها ستحيلها النوى أرسماً وربوعاً ، وسيبقى يذكره ولا ينساه طالما حفظ حرمته وصانها ، وانه سيودع بوداعه الاحسان واللهى ، وسيطلق الدموع من بعده غزيرة مدرارة بل انه سيرحل ـ برحيله ـ عن دار يمنع جارها من العطاء والبذل ، وسيصبح وصله مقطوعاً عن قطيعة ابي الممدوح التي كانت في سامراء ، فقد جاء في كتاب البلدان لليعقوبي ما نصه : « واستقطع الحسن بن سهل بين آخر الاسواق ، وكان آخرها الجبل الذي صار فيه خشبة بابك وبين المطيرة موضع قطيعة أفشين ، وليس في ذلك الموضع يومئذٍ شيء من العمارات ، ثم احدثت العمارة به حتى صارت قطيعة الحسن بن سهل وسط سر من رأى ، وامتد بناء الناس من كل ناحية ، واتصل البناء بالمطيرة »[٢] •

وهذا دليل واضح على ان ما أنشأه البحتري في آل الحسن بن سهل كان في أثناء اقامته في سامراء في غضون هذه الفترة ، ولم يكن ـ كما توهمه بعضهم ـ في بغداد[٣] •

ويمضي البحتري يتأسف على ابتعاد ممدوحه عنه ، ويتحسـر على

---

(١) الديوان ١٨٦١/٣ •

(٢) كتاب البلدان ص ٢٥ طبعة النجف •

(٣) أنظر : حياة البحتري وفنه ص ٧١ ، ومما تنبغي الاشارة اليه ان كثيرا من الدارسين درجوا على اطلاق اسم بغداد على كل ما كان يدور في سامراء في غضون القرن الثالث الهجري • أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢١٢ ـ ٢١٤ •

الايام الصالحة التي قضاها في كنفه ، وانه لا يجد بعد اليوم سوى تذكره على ما بينهما من البعد والنوى ، ويظهر ان الممدوح ـ كما يبدو من هذه القصيدة انحدر الى البصرة ليقيم فيها ويطيل المقام ، إذ لم يشر الشاعر الى انه سيقفل راجعا الى سامراء ولو بعد لأى !

وبعد تحسر الشاعر وتأسفه على ذهاب ممدوحه عنه أخذ في اطرائه وتبيان اهميته بالنسبة للآخرين الذين لم يسلكوا مسلكه في بلوغ المجد وارتقاء ذرا العلا ، وانهم تخلفوا عنه كثيرا في مضمار الشرف الذي يقيمه الجود والجدا ، فضنوا وشحوا ، وكان في ذلك خمولهم وتأخرهم عنه :

أغداً يشتّ المجد وهو جميع
وتُردّ دار الحمد وهي بقيع ؟
بمسير ابراهيم يحمل جوده
جودُ الفرات فرائع ومروع
متوجهاً تحدى به بصرية
خشن الأزمّة ما لهن نسوع
هوج اذا اتصلت باسباب السرى
قطع التنائف سيرها المرفوع
لاشهر أعدى من ربيع ، انه
سيبين عنا بالربيع ربيع

* * *

سأقيم بعدك عند غيرك عالماً
علم الحقيقة انني سأضيع
وصنائع لك سوف تتركها النوى
وكأنما هي أرسم وربوع
وذكرت واجب حرمتي فحفظتها
فلئن نسيتك انني لمطيع

سأودّع الاحسان بعدك واللهى
إذ حان منك البين والتوديع
وسأستقل لك الدموع صبابة
ولو ان دجلة لي عليك دموع

* * *

فاذا رحلت رحلت عن دار اذا
بذل السماح فجارها ممنوع
وقطيعة الحسن بن سهل انها
تغدو ووصلي دونها مقطوع

* * *

يفديك قوم ليس يوجد منهم
في المجد مرئيٌّ ولا مسموع
خدعوا عن الشرف المقيم تظنياً
منهم بان الواهب المخدوع
باتت خلائقهم على أموالهم
وكأنهن جواشن ودروع
قنعوا بميسور الفعال وأوهموا
أن المكارم منّة وقنوع
لا يبلغ العلياء غير متيم
ببلوغها يعصى لها ويطيع
يحكيك في الشرف الذي حليته
بالمجد علماً انه سيشيع
خلق أتيت بفضله وسنائه
طبعاً فجاء كأنه مصنوع

وحديث مجد عنك أفرط حسنه
حتى ظننا انه موضوع[1]

الحسين بن الحسن بن سهل :

وللبحتري قصيدة واحدة في الحسين بن الحسن بن سهل أخي ابراهيم ، وهي تدور في فلك مدائحه لابيه وأخيه ، ولا نعلم شيئا عن الحسين هذا سوى ما ذكره عنه البحتري في مدحته هذه • وقد مهّد لغرضه الأساس بمقدمة غزلية ووصف ديار الأحبة وما استجده الغيث فيها من الحلل السندسية الزاهية وما انتثر في أفنيتها من الازاهير المختلفة الشيات ، وما صاغه فيها الربيع من ضروب الاشكال وفنون الألوان • فهذه الحلل بما فيها تشبه أخلاق الممدوح ذي الجود والاحسان ، ثم يمضي في اطراء ممدوحه الذي وجد في ظله عدلا من الزمان ، ونديماً ملوكياً ، وتواضعاً لاخوانه ، وكريماً معطاء ، وشجاعاً باسلا ، وينهي المدحة مشيرا الى أسرة الممدوح الفارسية ذات المحتد العريق والمجد الأثيل ، فيقول :

ابكيا هذه المغاني التي أخـ
ـلقها بعد أهلها المرزمان[2]
اسعدا الغيث اذ بكاها وان كا
ن خليّاً من كل ما تجدان
جاد فيها بنفسه فاستجدت
حللا منه جمّة الألوان
فهي تهتز بين افرنده الأخـ
ـضر حسناً ووشيه الأرجواني

---

(١) الديوان ٢/١٣١٤ ـ ١٣١٦ •
(٢) المرزمان : نجمان مع الشعريين •

في سماء من خضرة الروض فيها
أنجم من شقائق النعمان
واصفرار من لونه وابيضاض
كاجتماع اللجين والعقيان
وتريك الأحباب يوم تلاقٍ
باعتناق الحوذان والأقحوان
صاغ منها الربيع شكلا لأخلا
ق حسين ذي الجود والاحسان
فكأن الاشجار تعلو رباها
بنثير الياقوت والمرجان
وكأن الصبا تردّد فيها
بنسيم الكافور والزعفران

* * *

تزدهيه من العلا كبرياء
فيه ان يزدهي على الاخوان
وعليه من الندى سيمياء
وصلت مدحه بكل لسان
غمرته جلالة الملك واستو
لت عليه شمائل الفتيان
واصل مجده بعقد الثريا
ويداه بالجود موصولتان

* * *

يا أبا القاسم المقسّمَ في المجـ
ـد ليوم الندى ويوم الطعان

قــد ورثت العليــاء عــن اردشــير
وقبــاذ ، وعــن أنو شــروان
وأرى الليــل والنهــار ســـواء
حــين تبــدو بوجهــك الأضحيان[1]

ويخيل الينا ان هذه القصيدة تقف في مقدمة قصائد البحتري التي تزخر بالالوان والاصباغ ، وتخطر بحلل الورود والزهور ، بل لعلها تقف في مقدمة مدائحه التي نحا فيها هذا المنحى في تشبيه أخلاق ممدوحه .

الحسن بن وهب :

وتهيأ للبحتري في غضون هذه السنة « ٢٢٨هـ » ان يتقرب من الكاتب الحسن بن وهب الذي كان يكتب للوزير محمــد بن عبدالملك الزيات وزير الواثق ، وكان كاتباً بليغاً ، وشاعرا رقيقا ، اتصل به عدد من كبار شعراء العصر كأبي تمام والبحتري وغيرهما ، ويقال انه ولّى أبا تمام بريد الموصل ، وله فيه مدائح كما للحسن فيه رثاء[2] .

أما البحتري فمدحه في هذه السنة (٢٢٨هـ) بقصيدتين وعاتبــه بمقطوعة .

فهم ارق من الشراب :

ولعل أول ما أنشأه فيه هذه القصيدة التي اقتطعت المقدمة الغزلية منها (١٤) أربعة عشر بيتاً ، ثم أخذ في امتداح ابن وهب الذي أطرى شمائله وخلاله ، وأشار الى قصده اياه في العراق وانتجاعه له ، مما يحمل على الظن ان الشاعر لم يكن مقيما خلال هذه السنة في هذه المدينة ، كما اثنى على علاه وسموه ، وما امتاز به من المواهب الموروثة عن آبائه واجداده ، وما طبع عليه من المكارم ، واتسم به من البديهة والحزم والقريحة ، وانه

---

(١) الديوان : ٢١٩٧/٤ ـ ٢١٩٩ .

(٢) أنظر في ترجمة الحسن بن وهب : أخبار أبي تمام ص ١٩٧ ـ ١٩٩ ، ٢٧٥ ـ ٢٧٧ ، وزهر الآداب ٦٤٤ ، ٨٥٥ ومروج الذهب ٤٨٦/٣ ، ومعجم الادباء الاستدراكات ٣٤/٢٠ .

لذو فهم أرق من الشراب ، وفطنة تخترق الغيوب ، وغرائب في الجود تنبيء انها من لدن عالم أو شاعر أو كاتب ، ولعل في هذا اشارة الى ما امتاز به ابن وهب من هذه النعوت ، ثم ينهى المدحة بالاشارة الى احتفال الممدوح به وباخوانه وأقاربه ، وتقريبه لهم وان لم يشر الى انعامه عليه واعطائه له :

سأردّ من قلبي يروح مباعداً
لمباعدٍ ، ومقارباً لمقارب
واذا رأيت البحر ضربة لازب
أبداً ، رأيت الصبر ضربة لازب

* * *

وشمائل الحسن بن وهب انها
في المجد ذات شمائل وجنائب
ليقصّرن لجاج شوق غالبٍ
وليقصُرنّ لجاج دمع ساكب
ولقد بعثت العيس تحمل همّة
أنضت عزائم اركب وركائب
يشرقن بالليل التمام طوالعاً
منه على نجم العراق الثاقب
واذا رأيت أبا علي فالعلا
لمشارق من سيبه ومغارب
يبدو فيعرب آخر عن اوّل
منه ، ويخبر شاهد عن غائب
بطرائق كطرائق ، وخلائق
كخلائق ، وضرائب كضرائب
ومواهب كعيبة وهيبة
يوجبن في الافضال فوق الواجب

يعلو على عُلَة بوفد أبوّة
يتوهمون هناك وفد كواكب

كانوا بذاك كعصابة كعصائب
في مذحج ، وذؤابة كذوائب

* * *

قهر الامور بديهة كروية
من حازم ، وقريحة كتجارب

فلّ الخطوب وقد خطبن لقاءه
فرجعن في اخفاق ظن خايب

هتكت غيابتها بأبيض ماجد
فكأنما هتكت بأبيض قاضب

فهم أرق من الشراب ، وفطنة
ردّت أقاصي الغيب ردّ الهارب

ومكارم معمورة بصنائع
فكأنها ممطورة بسحائب

وغرائب في الجود تعلم انها
من عالم أو شاعر أو كاتب

لله انت وانت تحرز واهباً
سبقين : سبق محاسن ومواهب

في توبة من تائب ، أو رهبة
من راهب ، أو رغبة من راغب

* * *

أعطيت سائلك المحسّد سؤله
وطلبت بالمعروف غير الطالب

علمتني الطلب الشـريف ، وربمـا
كنت الوضيع من اتضـاع مطـالبي
وأريتنـي أن السـؤال محلـة
فيهـا اختـلاف منـازل ومراتب
وبسطت لي قبـل النـوال عنـاية
بسـطت مسـافة لخطى المتقـارب
وعـرفت ودك في تعصـب شـيعتي
ووجـوه اخـواني وعطف أقـاربي
فلئـن شـكرتك انـي لمعـذّر
في واجب ، ومقصّر في واجـب[1]

وواضح ان البحتري قد احتفل في قصيدته هذه وجهد في صوغها صياغة عالية واودعها الكثير من المطابقات والمجانسات ، ووفرة التقسيم الذي هو طابع متميز في شعره عامة ، ولكنه لم يتطرق فيها الى بلاغة الحسن وصناعته الكتابية مما يحمل على الظن بان هذه القصيدة كانت اولى قصيدتيه فيه كما قدمنا .

بلاغـة :

اما القصيدة الثانية فيبدو ان البحتري قالها في اعقاب القصيدة الاولى وهو لم يستهلها ـ كعادته ـ بالغزل ، وانما تساءل في طالعها عن تقصيره حيال ما حمله الحسن من نعم سابغة وعده ان يقوم بشكرها ، فناء بثقلها ولم يف بوعده ، واستطرد يطرى الممـدوح وأسرته التي انحدرت من اجداد لهم من المكـارم والمفاخر ما تشهد على عراقة محتدهم ، وطيب عنصرهم ، ثم وصف بلاغـة الممدوح ومقدرته الكتابية فأنق في ذلك واحتفل ، فهذه أقلامه تجلو بمدادها ما غمض من المعاني والافكار بلفظ رشيق قريب المتناول ، حتى لنحسب من السهولة مجاراته ، ولكننا ما نكاد

---

(١) الديوان : ١٥٨/١ ـ ١٦٢ .

نفعل ذلك حتى يعسر الامر ويصعب ، فهو اذن من السهل الممتنع ، وهذه المعاني موشحة بالحكم التي لا ينضب معينها . وهي في ائتلافها وتفننها كزهر الروض أو البرود المجتباة في الالوان والشيات ، وانها لتبعث في المسامع من اللذة والنشوة ما يبعثه شخص الحبيب حين يبدو لحبيبه .

وينهي المدحة بتكرار الثناء على الممدوح واطراء صفاته وخلاله وفيض كرمه وجوده .

ويبدو ان البحتري لمس جمال وصفه هذا ، وروعة تشبيهاته فردده‌ما بعد ذلك في مدحته لمحمد بن عبدالملك الزيات التي تطرق فيها الى كتابته وبلاغته ، حتى ليبدو التشابه بين الوصفين كبيرا الى حد التماثل في كثير من الالفاظ والمعاني .

من سائل لمعذّر عن خطبه
أو صافح لمقصّر عن ذنبه ؟
حُملت للحسن بن وهب نعمة
صعبت على ذلّ الثناء وصعبه
ووعدته أني أقوم بشكرها
فحملت منه لفاً ، فلم أنهض به[1]
الاّ أكن كلّفت منه يذبلاً
فلقد مُنيت بخدنه أو تربه
ما أضعف الانسان ، الا همّة
في نبله ، أو قوّة في لبّه
من لا يؤدى شكر نعمة خلّه
فمتى يؤدى شكر نعمة ربه
واذا استهل ابو علىّ للندى
جاء الغمام المستهل بسكبه

(١) اللفاء واللفا : الخسيس من كل شيء ، وكل شيء يسير حقير .

وإذا تألّق في النـدىّ كلامه الـ

ـمصقول خلت لسانه من عضبه

وإذا احتبى في عقـدة من حلمـه

يومـاً رأيت مُتالعـاً في هضبـه[١]

وإذا دجـت أقلامـه ثم انتحـت

برقت مصـابيح الدّجـى في كتبـه

باللفـظ يقـرب فهمـه في بعـده

منـا ، ويبعـد نيلـه في قـربه

حكـم قسائمهـا خـلال بنـانه

متـدفق ، وقليبهـا في قلبـه

كـالروض مؤتلقـاً بحمـرة نوره

وبيـاض زهـرته ، وخضرة عشبـه

أو كالبـرود تخيرت لمتـوّج

من خاله ، أو وشيه أو عصبـه

وكأنهـا والسـمع معقـود بهـا

شخص الحبيب بدا لعـين محبـه

* * *

كاثرتـه فـإذا المـروءة عنـده

تعدى المفاوض من أقاصي صحبـه

ووجـدت في نفسي مخايل سـؤدد

إن كنت يوماً واحـداً من شـربه

فصبغت أخـلاقي برونـق خلقـه

حتـى عـدلت أجاجهن بعـذبه[٢]

(١) احتبى بالثوب : اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمـامة ونحوها . متالع : جبل بنجد .

(٢) الديوان : ١٦٣/١ ــ ١٦٦ .

مدح وعتاب :

ويبدو ان البحتري قد لمح اطراح الممدوح له ، وعزوفه عنه بعض الشيء ، فأسرع يمدحه ويعاتبه بهذه الابيات :

بأبي انـت يا ابن وهـب وأمـي
وخـؤولي مـن طـيء وعمـومي
حين مـرت بنـا السحاب أرتنـا
خلقـاً منـك ليـس بالمـذموم
حسدت فعلـك الكريم عـلى المجـ
ـد فجـارت شـمائلا بغيـوم
ملـت عنـي الى سـواي بأفـوا
ف حـديث كالجـوهر المنظـوم
ثـم راسلتني بكاسـاتك المـ
ـرّة حث النـديم كـأس النـديم
واذا مـا انكتمت عنـي بستر
فكـأني بالهنـد أو بالـروم(١)

واذا صح تأريخ كل ما تقدم من القصائد التي قيلت في ابراهيم بن الحسن بن سهل وفي الحسن بن وهب ، واذا صح كذلك ما عقب به أبو العنبس الصيمري على قول البحتري في غلامه نسيم « لو أعطيت به منية المتمني ما ملكه أحد » والله لو وجد ربح عشرة دراهم بوالدته لباعها فكيف لا يبيع غلامه .. » أقول اذا صح كل ذلك فمعنى هذا ان صلة الشاعر بهذه المدينة ورجالها قد بدأت تتوطد وتظهر جلية ، وانه كان معروفاً لدى الكثيرين بالجشع المادي الذي سلك للحصول عليه مسلكاً فريداً من نوعه . ويتضح كذلك ان أبا العنبس الصيمري الذي كان يقيم في ربوع هذه المدينة قد ناصبه العداء منذ ذلك الوقت حتى كانت الحادثة

(١) الديوان ٤/٢٠٦١ .

المشهورة بينهما في أحد مجالس المتوكل والتي كادت ان تقضي على مستقبل الشاعر لولا تدخل الفتح بن خاقان وتهدئته له كما سيأتي •

ويبدو ان تردد البحتري على سامراء ورجالها ، جعله يسجل ما ينتاب من يسترفدهم من أمور •

نكبـــة :

ففي سنة ٢٢٩هـ[١] أمر الواثق بحبس عدد من الكتاب والزامهم أموالا طائلة وكان في جملتهم سليمان بن وهب كاتب ايتاخ التركي ، وأخوه الحسن بن وهب فأخذ من سليمان اربعمائة ألف دينار ، ومن الحسن أربعة عشر الف دينار[٢] • فأوحت هذه الكارثة لشاعرنا بقصيدة افتتحها بمناجاة الزمن وطلبه الرفق بما يقوم به من ويلات وكوارث ، مذكراً اياه بانه سيفنى ويبلى كما يُفنى ويُبلي ، وكأني بالشاعر أراد ان يعزي المنكوب ويقلل من شأن مصيبته ، فكل شيء مآله الى الزوال والاضمحلال عاجلا أو آجلا • ثم وصف ما أصاب ابن وهب من دمار ، وما لحقه من خسار ، واتخذ من اقفرار منزله وخلوه من لذيذ الطعام ، وسائغ الشراب مثلا للتدليل على ما حل بصاحبه من سوء الحال ، واضطراب الأمر ، وأشـار أيضا الى ان منزله كان واقعا في المطيرة ، احدى ضواحي سامراء التي كانت متنزها ومرتادا لذوي القصف والمجون ؛ لما فيهـا من وفرة الحانات ، ووسائل اللهو[٣] :

---

(١) روى التنوخي في الفرج بعد الشدة ص ١٠٢ ـ ١٠٣ خبرا عن عبيدالله بن سليمان بن وهب عن ابيه ان حبس والده وبقية الكتاب كان في اواخر عهد الواثق ، وانه اطلق من سجنه بوساطة القاضي أحمد بن أبي دواد في اليوم الذي توفى به الواثق ، ومعنى هذا ان حبس الواثق للكتاب ـ على هذه الرواية ـ يكون في سنة ٢٣٢هـ •

(٢) أنظر : الطبري ١٢٥/٩ ، والكامل في التاريخ لابن الاثير ١٠/٧ ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٢٥٦/٢ •

(٣) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٣١٧ ـ ٣٢٣ •

أنـــاة أيهـــا الفلـــك المـــدار
أنهـــب مـــا تطـــرف أم جبـــار ؟[1]

ستفنى مثـــل مـــا تفنـــى وتبـــلى
كما تُبلي ، فيـــدرك منـــك ثـــار

تُنـــاب النائبـــات اذا تنـــاهت
ويدمـــر في تصـــرفه الدّمـــار

ومـــا أهـــل المنـــازل غيـــر ركب
مطـــاياهم : رواح وابتكـــار

لنـــا في الدهـــر آمـــال طـــوال
نرجيهـــا ، وأعمـــار قصـــار

وأهـــونْ بالخطـــوب عـــلى خليـــع
الى اللـــذات ليس لـــه عـــذار

فآخـــر يومـــه ســـكر تجلّى
غوايتـــه ، واوّلـــه خمـــار

* * *

ويـــوم بالمطـــيرة أمطرتـــا
سمـــاء صـــوب وابلهـــا العقـــار

نزلنا منـــزل الحســـن بن وهـــب
وقـــد درســـت مغانيـــه القفـــار

تلقينـــا الشـــتاء بـــه ، وزرنـــا
بنـــات اللهـــو اذ قـــرب النهـــار

أقمنـــا أكلنـــا أكـــل اســـتلاب
هنـــاك ، وشربنـــا شـــرب بـــدار

---

(١) النهب : الغلبة على المال والقهر . الجبار : الهدر ، يقال ذهب دمه هدراً لم يؤخذ بثأره . تطرفّ : جاوز حد الاعتدال .

تنازعنا المدامة وهي صرف
واعجلنا الطبائخ وهي نار
ولم يك ذاك سخفاً غير أني
رأيت الشرب سخفهن الوقار
رضينا من مخارق وابن خير
بصوت الأثل اذ متع النهار
تزعزعه الشمال وقد توافي
على انفاسها قطر صغار
غداة دجنّة للغيث فيها
خلال الروض : حج واعتمار
كأن الريح والمطر المناجي
خواطرها : عتاب واعتذار
كأن مدار دجلة اذ توافت
بأجمعها : هلال أو سوار

* * *

أصاب الدهر دولة آل وهب
ونال الليل منهم والنهار
أعارهم رداء العز حتى
تقاضاهم فردوا ما استعاروا
وما كانوا فأوجههم بدور
لمختبط ، وأيديهم بحار
وان عوائد الايام فيها
لما هاضت بوادئها انجبار[1]

اعتلال الحسن :

ويبدو ان صلة البحتري بآل وهب استمرت وطيدة الى ما بعد هذه

(١) الديوان ٢/٩٥٩ ـ ٩٦١ .

السنة[١] ، فقد رويت له في الحسن وأخيه سليمان ، مقطعات وقصائد تناولت حالات شتى . فهذا الحسن يعتل ـ كما يقال ـ في سنة ٢٣٠هـ ، ويسمع بذلك الشاعر فينشىء قصيدة يتوجع فيها عليه ويصف ما أصابه من امتقاع اللون وشحوبه ، وما كان يتجمل به من كتمان سر علته ، ولا ينسى أن يضرب الامثال على ما آل اليه امره بعد اعتلاله ، تخفيفا لشدة وطأة المرض وآثاره ، فهو كالسيف الذي يجلو صداه ، وينقّى كدره تعاور المصاقل وكرورها عليه ، وكالبدر الذي لا يبدو ضوؤه الا في ظلم الدياجي ، وحالك الادجان :

فاشكر يد الايام في حسن فقد
عفى اساءتها به احسانها
أوما تراه تغيّرت قمريّة
في لونه فتغيّرت ألوانها ؟
نفسي فداؤك ايها النفس التي
لو خلّيت اودى بها خلاّنها
قد زدت في مرض القلوب فبرّحت
برحاؤها ، وتضاعفت أشجانها

* * *

ما علة كتم التجمّل سرّها
لو لم يخبّرنا بها اعلانها
أنبئتها بالغيب ثم رأيتها
تدنو مسافتها ويصغر شانها

---

(١) يرى بعض الدارسين ان صلة الشاعر قويت بالحسن بن وهب بعد وفاة المعتز التي كانت سنة ٢٥٥هـ ، بيد اننا لم نجد له شعرا في الحسن بعد هذا التاريخ (أنظر : حياة البحتري وفنه ص ١٣) . على ان بعضهم يرى ان وفاة الحسن كانت في سنة ٢٥٠هـ (أنظر : الاعلام ٢/٢٤١ الطبعة الثالثة) .

وسمعت وصفكها ، فقلت لو انها
زادت ، واكبر بغيتي نقصانها
لا تبعثن لها الهموم قواصداً
بعد الهموم فانها أعوانها

* * *

ضرب من المكروه يدفع آخراً
كالنار كُفَّ بغرقد وقدانها(١)
والسيف قد ينقيه من كدر الصدا
كدر المداوس بكرها وعوانها(٢)
والبدر يكسفه النهار فتبتدي
ظُلَمُ الدجى فتنيره أدجانها(٣)

تلكؤ وتباطؤ :

والظاهر ان الحاف البحتري في طلب العطايا والهبات قد جعل الحسن وأخاه يتلكآن أحيانا في مواصلة منحهما له ، وهذا ما تشير اليه القصيدتان اللتان يشكو فيهما الشاعر التوقف والاحجام عن ارفاده وامداده ، وهما تدوران في نطاق السنة نفسها .

صيقل الشعر :

ففي القصيدة الاولى التي أشاد في القسم الاول منها بكرم الحسن وجوده ، وبمجد آبائه واسلافه ـ يشير الى اطراحه وعدم الاصغاء الى شعره الذي سكب فيه عصارة ذهنه حتى كان فيه من المبرزين ، وانه ليعجب ـ والممدوح خير من يفهم الشعر ويقدره حق قدره ـ كيف يحرم صاحب الشعر من الاثابة في حين يجزى من يستحسن هذا الشعر ، وانه ليرجو اصغاء الممدوح لعتابه الذي سيشرحه سوء حاله له ، فقد دهمته

---

(١) الغرقد : شجر عظام او هي العوسج اذا عظم ، واحدة : غرقدة .
(٢) المداوس : جمع المِدْوَس : وهو المصقلة .
(٣) الديوان ٤/٢١٩٠ ـ ٢١٩٢ .

الخطوب ونزلت بساحته الكوارث ، وليس عجبا ان يحل به ما حلّ لو لم يكن الممدوح من معاصريه وابناء زمانه وانه لو أحجم عن ارفاده واسعافه فسيقتدى به غيره في ذلك ، وهذا ما يخشاه ويخافه ، وينهي قصيدته بحثه على ان يكون عطاؤه في اوانه والا فلا جدوى فيه ولا غناء :

يا صقيل الشعر المقلّد في الذي
يُختار من قلعيّه ويَمانه
اسمعه من قوّاله تزددْ به
عجباً ، وطيب الورد في أغصانه
أحسنت فيه مبرّزاً فجفوتني
وتبّر أقواماً على استحسانه

* * *

هل تصغين لأخ يقول بحاله
متعتّباً اذ لم يقل بلسانه
نزلت بعقوته الخطوب طوارقاً
فتخوّنته وانت من اخوانه(١)
ما كان غرواً أن يضيع زمامه
لو لم يكن في عصره وزمانه

* * *

هذا وانت الحجة البيضاء في
اكرامه من وافد وهوانه
ومتى رآك الناس تحرمه اقتدوا
بك غير مرتابين في حرمانه
فتكون أول مانع من نفسه
ما أمّل العاني ومن جيرانه

---

(١) العقوة : الساحة والمحلة . تخونته : تنقصته ، وخانته .

والارض تبـذل في الربيـع نباتهـا
وكذاك بـذل الحر فـي سـلطانه
والعرف بنيـان فمن يعدُ الربـى
يُسـرفْ ، ويعفُ السيل من بنيانه
واعلـم بـأن الغيث ليس بنافـع
للنـاس ما لم يـأت فـي ابّانـه(١)

مديح بلا ثمن :

اما في الثانية فكانت شكوته صارخة ، وعتابه ممزوجاً بما يشبه التأنيب والتهديد ، لان مديحه الذي أجهد فيه قريحته بدون ثمن ؛ ولأن ممدوحيه ـ على ثرائهم ـ عاجزون عن ثوابه ، حتى لكأن في مسامعهم ـ عن دعوته ـ وقراً ، وفي نواظرهم ـ عن خصاصته ـ وسناً ، وهو ان همّ بالهجاء فانما يهجو نفسه ، فخير للسانه ان يغمد عن كل ما هو حسن او سيء ، وخير له ان يتغاضى عن اجحافهم له ، فهم ابناء أبيه وذوو رحمه :

اسمع مديحي في كعب وما وصلت — كعب ، فثَمَّ مديح ما لـه ثمن
حقّ من الشعر ملويّ بواجبـه — فلا سليمان يقضـيه ولا الحسن
أأعجزتكم مكافاتي به ، ولكـم — مصرٌ فما خلفها فالسند فاليمن ؟
أللخلافـة أستبقي الرجـاء فلن — تعطى الخلافـة نجران ولا عـدن
هل في مسامعكم عن دعوتـي صمم — أم في نواظركم عن خلّتي وسـن
إن ارمكم يكُ من بعضي لكم شعل — تهوى اليكم ومن بعضي لكم جُنن
أو أجرفي الحلبة الاولى بلا صفد — تولونـه فهو الخسـران والغبن
ليغمدنّ لسـاني خائباً أبـداً — عن تين فيكم فلا سيء ولا حسن
رددت نفسي على نفسي وقلت لها : — بنو أبيك فمـا الأحقاد والاحن(٢)

---

(١) الديوان : ٤/٢٢٦٢ ـ ٢٢٦٤ .
(٢) الديوان ٤/٢٣٠٩ ـ ٢٣١٠ .

تشـــاؤم

ويبدو ان آخر ما روى للبحتري في آل وهب ـ اذا صح ما جاء في ديوانه ـ مقطوعة يرجع تأريخها الى سنة ٢٣٢ هـ في هجاء الحارثي ، يقول فيهـــا :

الله ! الله يا أبـــا الحســـن   في آل وهـــب كواكب اليمـــن
لا تُغرينْ شؤمك القديم بهـم   فيصبحوا كالرســوم والدمن[١]

محمد بن عبدالملك الزيات :

غير ان البحتري ـ باطماعه الواسعة ، ومراميه البعيدة ـ ما كان يرضى لشعره ـ وقد اشتهر وتناقلته الألسن ـ ان يكون مقصوراً على فئة معينة من الناس ، قد لا تستطيع ان تلبي كل حاجاته ، وتشبع كل رغباته ، فلابد له اذن من أن يخطو خطوة أخرى ، ويطمح الى غاية قصوى ، فكيف يتيسر له ذلك ؟ ومن اين يبدأ ؟ كيف يتسنـــى له ان يحظى بالمثول بين يدى رجالات هذه المدينة ، وينال رضاهم وعطاياهم ؟

الحق ان البحتري كان ذكياً فطناً في سلوك ما يوصله الى مراميه ، ومن اجل هذا يخيل الينا انه كان يبتغي في توطيد صلته بالحسن بن وهب ـ الى جانب طمعه في هباته ومنحه ـ النفوذ عن طريقه الى ما هو ابعد من ذلك . انه كان يرمي الوصول الى عتب الوزير الاديب محمد بن عبدالملك الزيات الذي كان الحسن يكتب له ـ كما أسلفنا ـ وفعلاً استطاع البحتري ان يتقرب من الوزير المذكور ويمدحه بقصيدة واحدة .

والحق انه لا سبيل الى معرفة الطريقة التي سلكها الشاعر للوصول الى ابن الزيات ، كما لا سبيل الى معرفة الشخوص التي يسرت له هـــذا الاتصال ، اذ انه لم يخبرنا بشيء عن كل ذلك .

---

(١) نفسه ٢٢٢٤/٤ . روى البيهقي في المحـــاسن والمســـاوىء ص ٥٣٣ : ان المتوكل أمر بحبس الحسن بن وهب وأخيه سليمان ، فقال الحسن في ذلك أبياتا من الشعر ، اطلق هو واخوه على اثرها ، واذا صح هذا فيجوز أن تكون هذه المقطوعة اشارة الى ذلك الحادث .

ويخيل الينا ان البحتري قد استعان بالحسن بن وهب في هذا الامر ـ وان لم يشر الى ذلك في شعره ، كما فعل بعد ذلك عند اتصاله بالفتح والمتوكل ـ كما يخيل الينا ان ابن الزيات قد سمع بشعر البحتري في الحسن وبخاصة قصيدته في وصف بلاغته وكتابته الى تأنق فيها كثيراً ، فرغب ان يشاد بكتابته وبلاغته على النمط الذي جاء به الشاعر . ولعل هذا ما حدا بالبحتري ان يكرر في وصف كتابة ابن الزيات وبلاغته ما قاله في كاتبه ابن وهب . ولكن متى مدح البحتري ابن الزيات هذا ؟ الواقع ان المصادر التي ذكرت هذا الاتصال لم تحدد سنة بعينها ، وانما أشارت اشارات عامة ، فبعضها يذكر ان البحتري مدح ابن الزيات ، حين استوزر[١] ونحن نعرف انه استوزر في عهد المعتصم والواثق وبقي أياماً في عهد المتوكل . وبعضها يشير الى شيء من التحديد فيقول : ان هذا المدح كان في عهد الخليفة الواثق[٢] . وهذا الرأي يعضده أحد أبيات القصيدة حيث ورد فيه اسم هذا الخليفة ، وهو قوله :

دقّ فهماً وجلّ علماً فأرضى الـ ـــه فينا ، والواثق بن الرشيد[٣]

ولكن في أية سنة من خلافة الواثق كان هذا المدح ؟ أغلب الظن انه كان في اواخر خلافته ، وقد لا يبعد ان يكون في سنة ٢٣٢هـ[٤] .

ولعل اقتصار الشاعر على هذه المدحة دليل على تأخر تأريخها ، اذ ان الممدوح ـ كما هو معروف ـ قتل أشنع قتلة ـ بعد وفاة الواثق بأيام قليلة ـ هذا وليس في القصيدة ما يشير الى ان الممدوح قد أنعم على الشاعر مما يؤيد انه لم يقل فيه سواها .

---

(١) العمدة ٢٤٦/١ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ٣٦٥/٣ .

(٣) الديوان ٦٢٥/١ .

(٤) ذهب شارح الديوان الى انها قيلت سنة ٢٣١هـ ولا دليل على ذلك .

وقد بدأ البحتري القصيدة ـ على عادته ـ بالغزل واعقبه بتبيان همته ورأيه في السعي وراء الغنى ، ثم انتقل الى غرضه الاصلي فأسبغ على الممدوح صفات الكرم والشجاعة والحصافة والتدبير وحياطة الخلافة من اعدائها ، وما الى ذلك مما ينبغي ان يتصف به رجل السياسة والادارة :

يا نديميّ بالسواجير من ودّ بن معن وبحتر بن عتود

اطلبا ثالثاً سواي فانـي   رابع العيس والدجى والبيـد

لست بالواهن المقيم ولا القا   ئل يوما ، ان الغنى بالجدود

واذا استصعبت مقادة أمرٍ   سهلتها أيدي المهارى القود(١)

حاملات وفد الثناء الى أبـ   ـلج صب الى ثناء الوفود

علقوا من محمد خير حبل   لرواق الخلافة الممدود

لم يخن ربها ، ولم يعمل التد   بير في حل تاجها المعقود

مصلتاً بينها وبين الأعادي   حد رأيٍ يفلّ حد الحديد

فهي من عزم رأيه في جنودٍ   قمن من حولها مقام الجنود

كابدته الأمور فيها فلاقت   قلبيّ التصويب والتصعيد

صارم العزم،حاضر الحزم ساري الـ   ـفكر ثبت المقام صلب العود

دقّ نهماً وجلّ علماً فأرضى الـ   ـه فينا والواثق بن الرشيد

* * *

وكأن اهتزازه للعطايا   من قضيب الأراكة الأملود

وكأن السؤال ينشر ورد الرو   ض في وجهه وورد الخدود

يابن عبد المليك ملكك الحمـ   ـد وقوفٌ بين الندى والجود

ما فقدنا الاعدام حتى مددنا   سبباً نحو سيبك الممدود

سؤدد يصطفى ، ونيل يُرجَّى   وثناء يحيا ، ومال يودي

على ان اهم ما اشتملت عليه هذه القصيدة سوى ما تقدم الوصف الانيق لكتابة ابن الزيات وبلاغته ، وهو وصف افتن فيه الشاعر افتناناً وجهد ان

---

(١) القود : جمع القوداء وهي الطويلة العنق .

يكسوه من رشاقة الفاظه ، وروعة معانيه ، الشيء الكثير ، حتى استحال الوصف قطعة فنية خالدة طافحة بالشيات والالوان . وفيه الى جانب ما تقدم اشارة الى خصائص الكتابة كما يراها الشاعر ، وهي خصائص تنحل الى اجتباء اللفظ وخلوه من الحوشي والتعقيد والبلوغ به الى المرامي والغايات البعيدة :

لتفننت في الكتابة حتى عطّل الناس فن عبدالحميد
في نظام من البلاغة ما شك امرؤ انه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضاحك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يخلقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القراطيس ، وما حملت ظهور البريد
مستميل سمع الطروب المعنّى عن أغانيّ زرزر وعقيد
حجج تخرس الألد بألفاظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعانٍ لو فصلتها القوافي هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركن به غاية المراد البعيد[1]
كالعذارى غدون في الحلل الصفر اذارحن في الخطوط السود[2]

* * *

وواضح ان وصف البحتري هذا يعيد الى الاذهان ما سلف من وصفه لكتابة الحسن بن وهب وبلاغته ، وقلنا هناك ان التماثل كبير بين الكثير من الألفاظ والمعاني ، وبالامكان الرجوع الى ما قاله في ابن وهب للوقوف على

---

(١) جاء في اعجاز القرآن للباقلاني ص ١٤٦ : « ومنهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة ، والطف تعملا ، وان يتخير الالفاظ الرشيقة للمعاني البديعة ، والقوافي الواقعة ، كمذهب البحتري ، وعلى ما وصفه عن بعض الكتاب : (واورد عدة ابيات في وصف بلاغة ابن الزيات » .

(٢) الديوان ١/٦٣٣ ـ ٦٣٨ .

ذلك[1] .

ضيق وصراخ :

ويبدو ان البحتري كان يقيم أحياناً في ربوع هذه المدينة ويطيل المقام فلا يجدى عليه ، ولا ينال ما يصبو اليه من عطاء ورفد ، فيصرخ في وجوه الناس منددا بخلهم وجهلهم ، وواصماً اياهم بالبلادة ، وقلة الاكتراث بما يأتي به من درر الشعر وروعة القريض فكان من جراء ذلك يشد الرحال ويضرب في الارض علّه يجد من يسبغ عليه من نعمه وجدواه :

وعيرتني سجال العدم جاهلة ... والنبع عريان ما في فرعه ثمر
وما الفقير الذي عيّرت آونة ... بل الزمان الى الأحرار مفتقر
عزّى عن الحظ ان العجز يدركه ... وهوّن العسر علمي في من اليسر
بخل وجهل ، وحسب المرء واحدة ... من تين حتى يعفّى خلفه الأثر
اذا محاسني اللاتي أدلّ بها ... كانت ذنوبي ، فقل لي: كيف اعتذر
أهزّ بالشعر أقواماً ذوى وسن ... في الجهل لو ضربوا بالسيف ماشعروا
عليّ نحت القوافي من معادنها ... وما عليّ لهم ان تفهم البقر
لأرحلن وآمالي مطرّحة ... بسر من راء مستبطىً لها القدر
أبعد عشرين شهراً لاجداً قبري ... به انصراف ولا وعد فينتظر ؟[2]

بيد ان الشاعر على رغم مما كان يلقاه من الجفاء ، وقلة العناية به أحياناً من رجال هذه المدينة ، وعلى رغم من تطوافه في أرجاء البلاد منتجعاً مسترفداً لم يكن له بد من الأوبة الى هذه الحاضرة ، ما دام ينشد ثراء واسعاً ، وصيتاً مدوّياً .

اسماعيل بن شهاب :

وممن اتصل بهم من صغار الكتاب اسماعيل بن شهاب كاتب احمد بن ابي دواد قاضي القضاة في عهود : المعتصم والواثق والمتوكل . ويظهر ان

---

(١) أنظر : ص (٥٧) من هذا الفصل .

(٢) الديوان : ٢/٩٥٤ ـ ٩٥٦ .

اتصاله به كان في خلال سنة ٢٣٢ هـ ، اي في خلافة الواثق على الأغلب ، حيث كان للقاضي نفوذ كبير في هذا العهد ايضاً .

نجم يعلو مع الكتاب :

وأكبر الظن ان اول ما أنشأه فيه بائيته التي امتدحه فيها والتي خصّ المقدمة الغزلية بعشرة أبيات ، ثم اجرى على لسان متغزلته عتاباً او عذلاً له ، لاجتيازه قومها وقصده بمدائحه سواهم ، ثم أجاب ان عمله هذا لم يكن من اثر غضبه عليهم ، بل لان ممدوحه نجم يعلو مع امثاله من الكتاب الذين هم أنصار السؤدد الغريب ، واخوان الصفاء ، وأسرة الآداب ، والذين ان سألت عنهم فهم اولو المجد ، وان كاثرت فهم اولو الألباب ، ثم عرّج على المدوح فاثنى على جوده الذي كفاه الحاجة والعوز ، واطرى وفاءه وما اتسم به من حب المحامد والمكارم ، وما تحلّى به من عزم ماضٍ وهمّة عالية ، وعرض عليه ان يمتلك لسانه ليكون في عداد مداحيه ما دام قد حفظ عليه كرامته وصانه عن أناس أشحاء متخلفين :

عذلتني في قومها واستـرابت ... جيئتي في ســواهم وذهابي

ورأت عند غيرهم من مديحي ... مثل ما كان عندهم من عتابي

ليس من غضبة عليهم ، ولكن ... هــو نجم يعلو مع الكتــاب

* * *

شـيعة السؤدد الغريب وإخوا ... ن التصــافي وأســرة الآداب

هم اولو المجد إن سألت فان كا ... ثرت كانوا هم اولى الألبــاب

ومتى كنت صاحباً لذوي السؤ ... دد يومــاً فانهم أصــحابي

* * *

وكفانـي اذا الحوادث أظلمـــ ... ـن شهاباً بغرّة ابن شــهاب

سـبب اوّل على جود اسما ... عيل أغنى عن سائر الأســباب

لاســتهلت ســماؤه فمطرنا ... ذهباً في انهلال تلك الذّهاب(١)

---

(١) الذهبة : المطرة ، واحدة الذهاب .

لا يزور الوفاء غباً ، ولا يعـ شقٍ غدر الفعال عشـق الكعـاب
مستعيد عـلى اختلاف الليالـي نسقاً من خـلائق أتـراب

* * *

شمـّر الذيل للمحامـد حتـى جاء فيهـا مجرورة الهدّاب
عزمات يضئن داجيـة الخطـ ـب ، ولو كان من وراء حجاب
يتـوقدن والكـواكب مطفـا ة ، ويقطعن والسيوف نوابـي

* * *

يا أبا القاسم اقتسـام عطـاء ما نراه أم اقتسـام نهـاب ؟
خذ لسـاني اليك فالملك للالـ ـسن في الحكم عدلٌ ملك الرقاب

* * *

صنتني عن معاشر لا يُسمّى اولوهم الاعـداة سـباب
من جعاد الأكف غير جعـاد وغضـاب الوجوه غير غضـاب
اخطأوا المكرمات والتمسـوا قا رعة المجد في غداة ضـباب (١)

حجب ومماطلة :

ويظهر ان اسماعيل لم يكن بمقدوره مجاراة جشع الشاعر ونهمه اللذين لا يعرف لهما حد ، فهو يريد أن يعطى ويستمر على اعطائه ، ويبدو انه كان يأمر بحجبه وردّه عن بابه ، وهذا ما يشير اليه البحتري في هـذه القصيدة التي يعاتب فيها الممدوح والتي يذكر فيها قلة اكترائه بما ينسجه فيه من مختار الكلام ، وروائع القصيد ، كما يلمح الى ان هناك من أغراه بالنيل منه ، وكاد يفعل لولا ما يحمله عنه من ودّ صادق ، وذمة توجب له الوفـاء :

هل للندى عدل فيغدو منصفاً من فعل اسماعيله ابن شـهابه
العارض الثجّـاج فـي أخلاقه والروضـة الزهراء فـي آدابـه

---

(١) الديوان : ١/٨٣ ـ ٨٧ .

أزرى به من غدره بصـديقه ... وعقوقـه لأخيه ما أزرى بـه
في كل يوم وقفـة بفنائــه ... تخزي الشريف ، وردّة عن بابه
اسـمع لغضبان تثبت سـاعة ... فبداك قبـل هجائـه بعتابـه
تالله يسـهر في مديحك ليله ... متململاً ، وتنام دون ثوابـه
فأتى به كالسيف رقرق صقيل ... ما بين قائم سنخه وذبابـه
وحجبتـه حتى توهّم انـه ... هاجٍ أتـاك بشـتمه وسبابه
واذا الفتى صحب التباعد واكتسى ... كبراً عليّ فلست من أصحابه
ولربّ مغرٍ لي بعرضك زادني ... غيظاً بجيئة قولـه وذهابـه
لولا الصفاء وذمّة أعطيتهـا ... حقّ الوفاء قضيت من آرابه[1]

عرض ليس تقتله الكتاب :

وحين يجد البحتري من ابن شهاب أذناً صماء ، وسكوتاً مطبقاً يردف عتابه هذا بعدد من المقطعات في هجائه والنيل منه ، ينحو في بعضها منحى الفحش والبذاء ، فهو يقول في احدى مقطعاته انه سئم كثرة ما ردده فيه من العتاب الذي هو آخر الود ، وهو وان لم يبعده من الادب فانه يجهل أباه ما هو ؟ وقد هان عليه سخطه حين بدا له بعرض لا تقتله حتى الكلاب ، وكان له ان يشفى بسبه وشتمه لو لم يجده لئيماً دنيئاً لا يؤلمه سباب ولا يفزعه شتم :

لرددت العتاب عليك حتـى ... سئمت ، وآخر الودّ العتـاب
فلم أبعدك من أدب ، ولكن ... شهاب في التخلف ما شـهاب ؟
وهان عليك سخطى حين تغدو ... بعرض ليس تقتله الكـلاب
وهل يشفى السباب من ابن لؤم ... دنيء ليس يؤلمـه السباب ؟[2]

والظاهر ان ابن شهاب هذا كان شحيحاً مع الشاعر حتى انه ـ كما

---

(١) الديوان ١/٨٨ ـ ٨٩ ومن الجدير بالملاحظة ان البحتري لم يمدح ابن ابي دواد بشيء من شعره بيد انه هجاه في عهد المتوكل .
(٢) الديوان ١/١٥٧ .

يدعي البحتري ، لم يثبه على بائيته التي مدحه فيها والتي سبق ذكرها ، فطلب منه ـ على سبيل التهكم ـ ان يبيعه بها خمراً .

أبا قاسم حان الرحيل ولا أرى لبائيتي فيكم نوالاً ولا أجرا
ونحن جلوس حول ورد مضاعف وليست لنا خمر ، فبعنا بها خمرا[1]

غريم السوء :

ولعل آخر ما أنشأه فيه هذه المقطوعة التي يهجوه فيها أيضاً ، ويشير الى شحه ، وقلة نواله ، وعدم اثابته على مديحه فيه ، ثم يغمزه في نسبه ويحط من آبائه فيقول :

يا صاحب الأصداغ والطرّه ولابس الحمرة والصُفره[2]
ليتك اذ لم تعطني نائلاً يقنعني ، اعطيتني مرّه
ما كان مدحيك ووصلي بك الآ مال إلا سَفَر الغرّه
أعدّ آباءك ما فيهم عوف ولا سعد ولا مرّه
قبلت ذاك النزر اذ لم أجد عند بهيم مُصمت غُرّه[3]
أخذته وتْحاً ومن قولهم خذ من غريم السوء آجره[4]

كاتب الفتح بن خاقان :

وممن اتصل بهم في هذه الاثناء من الكتاب ايضاً ابو نوح عيسى بن ابراهيم كاتب الفتح بن خاقان وزير المتوكل وخدينه . ويظهر ان البحتري جهد ان يوطد صلته بهذا الكاتب ليصل بوساطته الى هدفه البعيد وهو الفتح ابن خاقان ، ولهذا فقد أنشأ ثماني قصائد في مدحه وعتابه ووصف علته .

والبحتري يقول في بعض مدائحه له انه تولاه بمعروفه وأغدق عليه نعمه وكان حفياً به ، راعياً عهده ، ثابتاً على مودته :

---

(١) نفسه ٢/٩٢٢ .
(٢) الطرّة : من الشعر المقطوعة من جملته .
(٣) البهيم : الاسود ، المصمت : الذي لا يخالط لونه لون آخر .
(٤) الديوان ٢/١٠١٩ الوتح : الخسيس والقليل التافه .

جـزى الله أبا نـــوح   جزاء المحسـن المجمل
وتمـت عـنده النعمـا   ء فهـو المنعم المفضـل
تولانــي بمعــروف   كسـيل الديمـة المسبل
أخ ما غيّـر العهـد الـ   ـذي كـان ولا بـدّل
علـى شـيمته الاولـى   وفـي مذهبـه الأوّل[1]

وقد مهد لمديحه هذا بشيء من الغزل الذي يتسم برقة الألفاظ وبسهولتها ، والذي عمد الى مثله بعد ذلك في مدائحه للفتح والمتوكل ، مما يحمل على الظن انه لقى قبولاً حسناً من لدن ممدوحيه .

ويبدو ان هذه السهولة أخذت طريقها الى شعره اول مرّة في هذه القصيدة ، ومن ثمّ سرت الى بعض قصائده الأخرى فيما بعد فهو يقول :

سـقاني القهـوة السلسلْ   شـبيه الرشـأ الأكحلْ
مزجت الراح من فيـه   بمثـل الراح أو أفضـل
عذيـري مـن تثنيـه   إذا أدبـر أو أقبـل
ومـن ورد بخديـه   إذا جشـمته يخجـل[2]

سند قوي :

ويبدو ان علاقة الشاعر قويت بابى نوح الذي أفاض عليه نعمه حتى أصبح يجدى على الآخرين كما يجدى عليه ، فانبرى البحتري يتحفه بقصيده ويثني على آلائه الوفيرة ، وأخلاقه الرضـية ، وتأييده الملك ، ومباشرته للامور ، وانجازه للاعمال ، حتى أصبح محسّداً بخلاله الفاضلة ، ومن أجل كل هذا فالبحتري يرجو ألا ينال ممدوحه مكروه ، وان يفتدى بالنفوس لما يكابده من ألم الشكوى . ويشير في اعقاب القصيدة الى مداهمة احد الأسود للمدوح الذي خاتله وهاجمه على حين غرّة منه :

(١) الديوان ٣/١٧١٤ .
(٢) نفسه ٣/١٧١٣ .

هل تلقيني وراء الهمّ يعملة		من العتاق أمون رسلة أُجد(١)
أو أشكرنّ أبا نوح بانعمه		وكيف يشكر ما يعيا به العدد
الحقتني برجال كنت أتبعهم		واطلب الرفد منهم ان هم رفدوا
فصرت أجدى كما كانت سراتهم		تُجدي وأحمد افضالا كما حمدوا
آليت لا أجعل الاعدام حادثة		تخشى وعيسى بن ابراهيم لي سند
موثق ما يقل فهو الصواب جرى		رسلاً ، وما يرتئيه الحزم والسَّدد
يؤيد الملك منه نصح مجتهد		لله يُسرع بالتقوى ويتئد
مباشر لصغار الأمر لاسلس		سهل ، ولا عسر التنفيذ منعقد
محسَّد بخلال فيه فاضلة		وليس تفترق النعماء والحسد

* * *

الله جارك مكلوءاً وممتعاً		من الحوادث حتى ينفد الأبد
اذا اعتللت ذممنا العيش وهوند		طلق الجوانب ، ضاف ، ظله رغد
لو ان انفسنا اسطاعت وقيت بها		حتى تكون بنا الشكوى التي تجد(٢)

* * *

ما أنصف الاسد الغادي مخاتلة		والراح تجري وجنح الليل محتشد
ولو يلاقيك صبحاً مصحراً لرأى		صريمة ينثني عن مثلها الاسد
وصده عنك عزم صادق ويد		طويلة ، وحسام صارم يقد(٣)

ويبدو ان ابا نوح كان يوالي ارفاد الشاعر فكان من جراء كريم عشرته وفضل اخائه ، وكثرة نواله ، أن أخذ البحتري يتقلب في بحبوحة من النعيم ، وبلهنية من العيش ، فهو يقول في احدى مدائحه فيه :

---

(١) اليعملة : النجيبية المعتملة المطبوعة • أمون : وثيقة الخلق مامونة العثار • رسلة : سهلة السير • أجد : قوية موثقة الخلق متصلة فقار الظهر •

(٢) ولكن البحتري حين تعرض ابو نوح هذا للمصادرة والضرب بالسياط حتى اودى بحياته ، وقف منه موقف الشامت الهاجي •

(٣) الديوان ١/٤٩٥ ـ ٤٩٧ •

وأخ لبست العيش أخضر ناضراً
بكريم عشرته وفضل إخائــه

ما أكثر الآمال عندي والمنى
إلا دفـاع الله عن حوبائــه

وعلى ابي نوح لباس محبّـــة
تعطيه محض الودّ من أعدائـه

تبنى طلاقة بشره عن جــوده
فتكاد تلقى النجح قبل لقائــه

وضـــياء وجـه لو تأمّله امرؤ
صادى الجوانح لارتوى من مائه(١)

استسقاء شراب :

وتستمر العلاقة بين الشاعر وابى نوح هادئة صافية لا توترها الأحقاد ولا تشوبها الأكدار ، حتى لنرى البحتري أحياناً ، بدافع من حسن ظنــه بصاحبه يلتمس منه ان يرفده بشيء من الشراب لقلة ذات يده منه ، وهذا دليل على ان شاعرنا قد رسخت قدمه في ربوع هذه المدينـة ، ووجد من يحدب عليه، ويشدّ أزره ، ويمدّه بما يحتاجــه ، حتى انه كان يعقد مجالس الانس ، ويعاقر الخمر :

قربت من الفعل الكريم يداكــا
ونــأى عــلى المتطلبين مداكا

فاسلم أبا نوح لتشـييد العلا
وفداك من صرف الزمان عداكا

إني لأضمر للربيع محبّـــــة
اذ كنت اعتدّ الربيع أخاكـــا

وأراك بالعين التي لا تنصـرف
ألحاظهـــا الاّ الى نعمـــاك

ما للمـــدام تأخرت عن فتيـــة
عرفوا الصبوح وأمّلو جدواكـــا

بكرت لهم سقيا السحاب وقصرّت
عنهم أوان تعلـــة ســـقياكا

ما كان صوب المزن يطمع قبلها
في أن يجيء نداه قبــل نداكا

ولديك صـافية كأن نســيمها
من طيب عرفك أو جميل نثاكا

وكأن بشرك في شعاع كؤوسها
لمـا توالت في الاكف دراكـــا

تجلو برونقها العيون اذا بدت
رسلاً ، ونشر بها على ذكراكا

يغنى النديم عن الغناء حديثنا
بمحاسن لك لم تكسن لسواكا(٢)

---

(١) نفسه ١/٢٤ .

(٢) نفسه ٣/١٥٧٢ .

تغيّر واطراح :

ولكن هل يدوم الصفاء ، ويستمر الود ، والدنيا لا تخلو من واشٍ حسود ، ووغد لئيم ؟ والشاعر يخبرنا بان ممدوحه قد تغيّر عليه واطرحه لذنب لا يعرف مصدره ، فهو يستعطفه ويعتذر اليه ويذكّره بوده المتين وبسيرورة مدائحه فيه ، ويستميحه العذر ان كان أذنب ، والحق ان البحتري قد تلطف جداً في عتابه لابي نوح ، فلم يلمح له بشيء من التهديد او التأنيب كما فعل مع غيره من ممدوحيه ، وقد افتتح قصيدته هذه بالغزل الرقيق كأغلب غزله :

بات نديماً لي حتى الصباحْ ... أغيد مجدول مكان الوشاحْ
كأنما يضحك عن لؤلؤٍ ... منظّم او بَرَد أو أقاح
تحسبه نشوان إمّا رنا ... للفتر من أجفانه وهو صاح
بتّ أفديه ولا أرعوى ... لنهى ناهٍ عنه او لحى لاح
امزج كأسي بجنا ريقه ... وانما امزج راحاً براح
يساقط الورد علينا وقد ... تبلّج الصبح – نسيم الرياح
سحر العيون النجل مستهلك ... لبيّ ، وتوريد الخدود الملاح

* * *

قل لابي نوح شقيق الندى ... ومعدن الجود ، وحلف السماح
اعوذ بالرأى الجميل الذي ... عوّدتَه والنائل المستماح
من ان تصد الطرف عني وان ... أخيب في جدواك بعد النجاح
ان كان لي ذنب فعفواً وان ... لم يك لي ذنب ففيم اطراح
أبعد أسباب متان القوى ... من فرط شكر سائر وامتداح
يخبرن عن قلب قديم الهوى ... فيك وعن صدر أمين النواح
أشمت اعدائي وأخرجتني ... عن سيبك المغدى عليّ المراح
فهل لأس بان من رجعة ... أم هل لحال فسدت من صلاح ؟
اني من صدك في لوعة ... تغوّلت لبي وهاضت جناح

لست على سخطك جلد القوى ولا على هجرك شاكي السلاح[1]

عتاب وتنصّل :

ويبدو ان عتاب الشاعر هذا لم يجده نفعاً لدى ممدوحه فردفه بعتاب آخر جرى فيه على النمط الاول من التلطف والفضل . ولعل ترقيق البحتري لعتابه هذا وابتعاده عن التلويح بشيء من الوعيد والتهديد ، يعودان الى فضيلة ممدوحه من جهة ، والى رغبة البحتري في الوصول عن طريقه الى الفتح من جهة أخرى ، فهو اذن لا يريد أن يفصم عرى العلاقة بينهما ، لان في ذلك قضاء مبرماً على ما كان يتوخاه ويصبو اليه . ولعل هذا هو السبب الذي جعل البحتري يسلكهما في قصيدة واحدة عند اعتلالهما كما سيأتي . وكأني بالشاعر أراد ان يوصل قصائده الى مسامع الفتح عن طريق كاتبه ، لعله يبعث في طلبه فتتفتح له ابواب السعادة ، وتحقق أحلامه وأهدافه البعيدة ، قال في معاتبة أبي نوح :

له ضحكة عند النوال كأنها تباشير برق بعد بُعد من العهد
تذكرت أياماً مضى لي نعيمها بتقديمه اياي في الهزل والجد
أصول على دهري كصولة فضله على عدم الراجين بالبذل والرفد
فغيّر منه القلب عن حسن رأيه أكاذيب جاءت من لئيم ومن وغد
تغنم مني غيبتي وحضوره وأن ليس لي من دون مرماه من رد
فان يك جرم كان او هفوة خلت فانك أعلى من خطاي ومن عمدي
ومن ملكت كفّاه من كان مذنباً فقدرته تُنسى وتذهب بالحقد
فشكرى متابي ، واعتذاري وسيلتي وما قدمت كفّاك من منّة عندي
وان كان شعري جاء بالعذر قاصداً فما كان ذنبي باعتماد ولا قصد[2]

واكبر الظن ان عتاب البحتري هذا : برقته ولطفه قد أخذ سبيله بعد ذلك في قصائده التي قالها في الفتح بن خاقان ؟

---

(١) نفسه ١/٤٣٦ ـ ٤٣٧ .

(٢) الديوان ٢/٧٥٩ ـ ٧٦٠ .

اتفاق في الداء :

ويتفق ان يعتل الفتح وممدوحه سوية ، فيهتبل الشاعر هذه المناسبة فينشىء فيهما قصيدة يتمنى لهما الابلال مما ألم بهما ، لانهما معدنا الجود والكرم ، ولان في شفائهما وسلامتهما شفاء وسلامة للسماحة والندى :

نعتدك أنجسنا بعزك أسعدا ... ونسرّ فيك بما يساء له العدى
فاسلم أبا نوح فانك انما ... تهوى السلامة كي تجود وتحمدا
وهنتك عافية الامير فانه ... قد راح مجتمع العزيمة واغتدى
في نعمة هي للمكارم والعلا ... وسلامة هي للسماحة والندى
لما تشابهت الرجال حكيته ... مجداً أطلّ على النجوم وسؤددا
ومرضتما وفقاً ، فكان دعاؤنا ... ان تشفيا وتكون أنفسنا الفدا
لك عادة ألا تزال شريكه ... مما عناه موافقاً او مسعدا
تتجاريان على الصفاء محبة ... فكأنما تتجاريان الى مدى
لو يستطيع وقاك عادية الضنى ... او تستطيع وقيته صرف الردى
والنفس واحدة وان أصبحتما ... شخصين غارا بالسماح وانجدا
روح تدّبر منكما حركاتها ... بدنين : ذا عبدا وهذا سيدا(١)

البرج المطل وحاجبه :

ويعتل الفتح مرة فينتهز البحتري هذه المناسبة فينشىء أبياتاً يخاطب فيها أبا نوح كاتب الفتح . وفيها تتجلى صلة أبي نوح بالفتح حتى كان يتمنى ان يحمل عنه الداء على الرغم من اعتلاله هو أيضاً :

تخطّى الليالي معشراً لا تعلهم ... بشكوى ، ويعتل الأمير وكاتبه
والمرء عقبى سوف يحمد غبّها ... وخير الامور ما تسرّ عواقبه
نقل لابى نوح وان ذهبت به ... مذاهبه عنا ، وأعيت مطالبه
وكابد من شكوى الامير ووعكه ... تباريح همّ يشغل القلب ناصبه
بودّك لو ملكت تخويل شكوه ... اليك مع الشكو المعنيك واصبه

---

(١) الديوان : ١/٥٣٩ ـ ٥٤٠ .

فتغدو تقاسي علتين ويغتدي صحيحاً كنصل السيف صحت مضاربه
ويكفي الفتى من نصحه ووفائه تمنيّه ان يردى ويسلم صاحبه
فلا تحسبنْ تركي العيادة جفوة ولا سوء عهد جاذبتني جواذبه
ومن لي باذن حين أغدو اليكما ودونكما البرج المطلّ وحاجبه[1]

وجدير بالذكر ان شارح الديوان يقول في تعليقه على تاريخ هذه الابيات : « ويرجع تأريخها (في) بدء تعرف البحتري الى الفتح اي سنة **٢٣٣** هـ »[2] • ثم يشرح لفظة « البرج » الواردة في آخر الأبيات بقوله : « البرج : من قصور المتوكل ، ذكره الشابشتي (الديارات ١٠٢-١٠٣) »[3] ومعنى هذا ان البرج المذكور كان موجوداً في هذا التأريخ • بيد انا حين نرجع الى الديارات التي أشار اليها الشارح نجد الشابشتي يقول بعد وصفه لهذا القصر - ان جلوس المتوكل فيه كان سنة تسع وثلاثين ومائتين[4] • واذا صح ما ذكره الشابشتي في تاريخ جلوس المتوكل في هذا القصر ، فمعنى ذلك ان بناءه لم يتم الا في غضون سنة **٢٣٩** هـ ، ومن ثمّ جلس فيه الخليفة المذكور ، ومعنى هذا أيضاً ان تاريخ هذه الابيات ينبغي ان يتأخر عما حدده لها الشارح !

ومن الغريب ان يغفل الشارح هذا الاختلاف بين التأريخين ، وكان عليه ان ينبّه على الاقل الى اشارة الشابشتي الذي أحالنا على دياراته •

واذا صح ما ذكره الشابشتي كذلك فمعنى هذا ان البحتري كان يحجب عن الفتح وكاتبه حتى بعد أن توطدت الصلة بينه وبينهما •

ومن المفيد ان نشير الى ان البحتري قد أشار الى البرج المطل هذا في

---

(١) نفسه ٢٠٢/١ •
(٢) نفسه ٢٠٢/١ الحاشية •
(٣) نفسه ٢٠٢/١ هامش (٩) •
(٤) الديارات ص ١٠٣ الطبعة الثانية ، وانظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٤٥ •

قصيدة رفعها الى المتوكل في سنة ٢٤٣ هـ[١] .

نجاح بن سلمة :

والبحتري الذي كان يهدف الى غاية بعيدة من اختلافه الى هذه المدينة ما كان ليقتصر على ممدوح بعينه ، وانما كان يوزع مدائحه على من يتوسم فيه أمارة او قبساً يهديه الى الطريق الموصل الى مبتغاه ، ومن هنا نراه ينظم المقطعات والقصائد في صغار الكتاب والعمال مشيداً بهم وباعمالهم ومسبغاً عليهم صفات الكرم والسماحة والاخلاص والبلاغة وما الى ذلك . فهذه مقطوعة له في أحد اولئك الذين شام بهم سيما النجاح ممن كان يتولى عملاً في عهد الخليفة المتوكل في غضون سنة ٢٣٣ هـ ، وهو نجاح بن سلمه الذي يقول فيه :

ما أنجحت غطفـــان في أكرومة ... انجاحها بالصيد آل نجـــاح
ورثوا الكتابة والفروسة والحجى ... عن كلّ أبيض منهم وضّاح
بصدور أقــلام تردّ اليهـــم ... أمر الخلافة ، او صدور رماح[٢]

ولا نعلم ما كان من اثر هذه الأبيات في الممدوح ، وما عاد على الشاعر منها ، وأكبر الظن انها لم تكن ذات شأن لا في المادح ولا في الممدوح ، بدليل ان الشاعر لم يتبعها بشيء آخر وانما شفعها بعد سنوات بقصيدة يهجو فيها ابن سلمة بعد قتله ، ويشمت به[٣] .

حبس الثغري :

ويطرق سمع البحتري – وهو مقيم في سامراء – أن أحد القـــادة المشهورين الذين لعبوا دوراً كبيراً في الذود عن حوزة الخلافة العباسـية ، والذبّ عن التخوم الاسلامية ، وممن انتجعهم الشاعر في اول عهده ، وهو

---

(١) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٤٦ .

(٢) الديوان ٤٦٠/١ وأنظر الحاشية ، وانظر كذلك المصدر نفسه ٤٦٣/١ الحاشية .

(٣) نفسه ٤٦٣/١ – ٤٦٤ ، والبحتري يفعل هـذا كثيراً مع ممدوحيه ومن يتصل بهم .

ابو سعيد الثغري قد جيء به بعد غزواته المشهورة ، والقي في غيابة سجن هذه المدينة ، وسلم الى كاتب نصراني ليستخرج منه ما اتهم به من حيازة الاموال ، فجعل الكاتب يعذبه ويشدّد النكير عليه ، فشقّ ذلك على المسلمين وقالوا : آخذه بثأر النصرانية فثارت نخوة الشاعر وتذكّر وليّ نعمته الاول فدخل عليه في الحبس وأنشده[(١)] :

جعلت فداك الدهر ليس بمنفك	من الحادث المشكوّ والنازل المشكي
وما هذه الايام الاّ منازل	فمن منزل رحب ومن منزل ضنك
وقد هذبتك النائبات ، وانما	صفا الذهب الابريز قبلك بالسبك
وما أنت بالمهزوز جأشا على الاذى	ولا المتفرّي الجلدتين على الدعك
على أنه قد ضيم في حبسك الهدى	وأضحى بك الاسلام في قبضة الشرك
أما في نبيّ الله يوسف أسوة	لمثلك محبوساً على الظلم والافك
أقام جميل الصبر في السجن برهة	فآل به الصبر الجميل الى الملك[(٢)]

وأكبر الظن ان هذه الابيات قد دوّت في أرجاء المدينة ـ اذا صح انشادها في الحبس ـ وأنها أحدثت رجّة بين الناس ، ربما امتد صداها الى مسامع اولى الأمر .

ويبدو ان مفعولها لم يتعد ذلك ، وان الثغري بقي محبوساً لم يطلق ولهذا فقد أطلق الشاعر صرخة مدوّية أخرى ، فيها شيء من الجرأة والتحدي لهذه السياسة الخرقاء التي يتبعها الحكام العباسيون في حق من يذودون عنهم وعن رعيتهم ، وان عملهم هذا ما كان ليرضاه اعداؤهم من الأمويين لو كانوا مكانهم :

يا ضيعة الدنيا وضيعة أهلها	والمسلمين ، وضيعة الاسلام
طلبت ذحول الشرك في أرض الهدى	بين المداد وألسن الاقلام
هذا ابن يوسف في يدى أعدائه	يجزى على الايام بالايام

---

(١) أنظر : تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٣/٤٤٨ .
(٢) الديوان : ٣/١٥٦٨ .

نامت بنو العباس عنه ، ولم تكن عنه أمية لو رعت بنيام[١]

ويبدو ان هذه الصيحة كانت عنيفة وان صداها قد اخترق الحجب الصفيقة التي كانت بينه وبين ولي الامر ، وهو الخليفة ، فلما سمعها سأل ـ كما يقال ـ عن صاحبها فأخبر عنه ، فأمر باطلاق أبي سعيد ، واحضار البحتري[٢] .

وسواء صحت هذه الرواية أم لم تصح فان الذي لا شك فيه ان البحتري قد أنشأ هذه المقطوعة وانها دوّت هي الأخرى في أرجاء المدينة كسابقتها . وأكبر الظن ان الشاعر أنشأ هاتين المقطوعتين ولما يتسنَّ له بعد الاتصال بالفتح أو المتوكل ، فلو كان متصلاً بأحدهما لحاول الوساطة لديه ، ولالتمس منه أن يرعى سجينه ويتعهده ، فخلو المقطوعتين من الاشارة الى شيء من ذلك دليل على انه لم يكن قد اتصل بهما بعد !

مع علي بن يحيى المنجم :

ويقف البحتري برهة ممعناً النظر ، ومفكراً فيمن يقصده من الرحال في هذه الاثناء ، ممن يتوسم فيهم القدرة على تحقيق ما يصبو اليه ، وليتخذه ذريعة تصله بشخصية لها خطرها من رجال الحكم ، فوقع اختياره على رجل من مقربي الفتح بن خاقان الذي كان من أهداف الشاعر الوصول اليه . انه علي بن يحيى المنجم .

وعليّ هذا كان راوية للأخبار والاشعار ، شاعراً محسناً ، أخذ الادب عن اسحاق بن ابراهيم الموصلي[٣] . وكان في أول أمره مختصاً بمحمد ابن اسحاق بن ابراهيم المصعبي فلما مات[٤] ضمه اليه الفتح ومن ثمّ قدمه

---

(١) نفسه ٣/٢٠٣٥ ٢٠٣٦ .

(٢) نفسه ٣/٢٠٣٥ الحاشية .

(٣) أنظر : تاريخ بغداد ١٢/١٢١ ، ومعجم الادباء ١٥/١٤٤ .

(٤) معجم الادباء ١٥/١٤٤ . اذا صح تاريخ القصائد التي قيلت في مدح ابن المنجم وعتابه في سنة ٢٣٣هـ فمعنى هذا ان موت محمد كان في غضون هذه السنة ، ومن ثمّ ضمه الفتح اليه ، غير ان الشابشتي

الى المتوكل فاختص به وأصبح نديمه ومن المتقدمين عنده ، فكان يأتمنه على أسراره ويدخله على حرمه ، ثم خدم بعده من جاء من الخلفاء : كالمنتصر والمستعين والمعتز والمعتمد[1] !

وكان لعلي هذا بكركر من نواحي القُفص ضيعة نفيسة ، وقصر جليل ، فيه خزانة كتب عظيمة تسمى خزانة الحكمة كان الناس يقصدونها من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها ما يشاؤون من صنوف العلم والمعرفة ، وكان هو يتعهد الانفاق على ذلك من ماله الخاص[2] . واليه عهد الفتح بن خاقان القيام بعمل خزانته العظيمة له[2] . وكان على دمامة صورته ، وصغر خلقته ، ودقة وجهه ، وصغر عينيه ، ظريفاً لطيفاً جامعاً لكثير من صفات النديم حتى وصفه بعضهم وقد رأى منه ما رأى في أحد مجالس المتوكل : بانه طبيب ومضحك ، واديب وجليس له : « حذق طباخ وتصرف مغنٍ ، وفكر منجم ، وفطنة شاعر »[4] .

وكان كثير الحدب على الادباء والشعراء ، فكان منزله مألفاً لهم ، وكثيراً ما كان يوصّلهم الى الخلفاء والأمراء ، ويستخرج لهم منهم الصلات والهبات ، فكثر اخدانه منهم ، وكثر مديحهم له[5] .

وشخص له هذه الصفات والمزايا لم يكن ليذهب عن شاعرنا أمره ، فليكن اذن هو الذريعة التي تصله بما ينشده ويلح في طلبه .

أشار في الكلام على اسحاق والد محمد هذا بأنه : « ولي للمامون ، ثم للمعتصم ثم للواثق ثم للمتوكل ، ومات في أيام المتوكل ، فاقام محمدا ابنه مكانه ، فلبث يسيرا ومات » . الديارات ص ١٣٨ . وعلى هذا فمن الجائز ان يكون الفتح قد ضمه اليه قبل وفاة محمد ، لا بعد وفاته كما يشير ياقوت .

(١) تاريخ بغداد ١٢/١٢١ ، معجم الادباء ١٥/١٤٤ ـ ١٧٤ .

(٤) معجم الادباء ١٥/١٥٧ .

(٣) نفسه ١٥/١٤٤ .

(٣) نفسه ١٥/١٦٠ ـ ١٦٣ .

(٥) نفسه ١٥/١٤٥ .

ولكن كيف اتصل الشاعر به ؟ وفي اي مكان ؟ هل كان في بغداد ، او كان في سامراء ؟ وهل مدحه بشيء قبل ان يلتمس منه تقديمه الى الفتح ؟

ان ديوان الشاعر يشتمل على ثلاث قصائد : واحدة منها في مدح ابن المنجم ، وقيل في مدح آخر ، اما القصيدتان الأخريان ففي عتابه لتأخره وابطائه عن تقديمه الى الفتح .

فالقصيدة الاولى يرجح انها في ابن المنجم ، لاشتمالها على اسمه صراحة وعلى كنيته ، وان هناك بيتاً واحداً فقط ، ورد فيه اسم شخص آخر ، والبيتان اللذان ورد فيهما الاسمان متشابهان في الألفاظ ، مما يحمل على الظن اقحام البيت الذي ورد فيه اسم الشخص الآخر على القصيدة .

وليس في القصيدة اشارة الى وعد الممدوح بتقديم الشاعر الى الفتح وانما هي في تعداد مكارم ابن المنجم واطراء صفاته . ويبدو ان هذه هي أول قصيدة للشاعر في الممدوح بدليل انه يشير الى وثوقه بكرمه وان لم ينل شيئاً من ذلك بعد .

وليس في القصيدة كذلك اشارة الى المكان الذي قصد الشاعر فيه ممدوحه فهو يقول :

الى فارغ من كل شأن يشينه	وان يشتغل فالمجد عظم اشتغاله
علي بن يحيى انه انتسب الندى	الى عمه ـ عم الكريم ـ وخاله
غريب السجايا ما تزال عقولنا	مدلهمة في خلّة من خلاله
اذا معشر صانوا التلاد تعسفت	به همّة مجنونة في ابتذاله
أقام به في منتهى كلّ سؤدد	فعال أقام الناس دون امتثاله
فان قصّرت أكفاؤه عن محلّه	فان يمين المرء فوق شماله
عناه الحجى في عنفوان شبابه	فأقبل كهلاً قبل حين اكتهاله
كأن الجبال الراسيات تعلّمت	رواجحه من حلمه وجلاله
وثقت بنعماه ولم تجتمع بها	يدي ، ورأيت النجح قبل سؤاله
وتعلم ان السيف يكفيك حدّه	مكاثرة الاقران قبل استلاله

أبا حسن أنشأت في افق الندى	لنا كرماً آمالنا في ظلاله
مضى منك وسميّ ، فجدْ بوليّه	وعوّدت من نعماك فضلاً فواله
وان خراجي للخفيف ، ولو غدا	ثقيلا لما استحسنت غير احتماله[1]

في بغـــداد :

أما القصيدتان الاخريان فهما ـ كما اسلفنا ـ في عتاب ابن المنجم لابطائه وتأخره عن تقديمه الى الفتح بن خاقان • ويبدو ان القصيدة الاولى قصد بها الممدوح وهو في بغداد بدليل تذمره منها وادعائه انها لم تصفه ، ويظهر أن ابن المنجم قد وعده بتقديمه في يوم الخميس ، ولكنه لم يف بذلك ، فهو يطلب منه ان ينقل كلامه لى الامير وهو الفتح ، ويقول انه قدّم عليه من هو أقل منه شأناً في معالجة القريض الذي شهر به في الشرق والغرب ، حتى أشمت بتقديم غيره عليه من كان يحسده وينافسه :

ما أنصفت بغــداد حين توحشت	لنزيلها ، وهي المحل الآنس
لم يرع لي حق القرابة طيءٌ	فيها ، ولا حق الصداقة فارس
أعليّ من يأملك بعد مودةٍ	ضيعتهـا مني ، فاني آيس
واعدتني يوم الخميس ، وقد مضى	من بعد موعدك الخميس الخامس
قل للأمير فانه القمر الذي	ضحكت به الايام وهي عوابس
قدّمت قدّامي رجالاً كلهم	متخلف عـن غايتي متقاعس
وأذلتني حتى لقد أشمتَ بي	من كان يحسـد منهم وينافس
وانا الذي أوضحت غير مدافع	نهج القوافي وهي رسم دارس
وشهرت في شرق البلاد وغربهـا	فكأنني في كـل نادٍ جالس
هـذي القوافي قـد زففت صباحها	تهـدى اليك كأنهن عرائس
ولك السـلامة والسلام فانني	غادٍ ، وهن عـلى علاك حبائس[2]

---

(١) الديوان ٣/١٦٢٢ ـ ١٦٢٥ •
(٢) الديوان ٢/١١٣٢ ـ ١١٣٣ •

في ســـامراء :

اما القصيدة الثانية فتشير الى ان الشاعر قصد ابن المنجم هذه المرة في سامراء ، وهو أيضا يكاد يكرر ما سبق ان قاله في القصيدة الاولى ، فهذه سامراء لم تنصفه ، وقد خاب فيها أمل المجدّ الساعي ، في حين حظى منها كل متخلف كسول ، ولو تيسّر له الوصول الى الخليفة لبان للناس ما خفى عنهم من أمره ومقدرته ، فهو يعاتب اخوانه على هذا الاطراح ، وكان يأمل ابن المنجم ويرجوه الى أبعد من هذا الامر ، لا سيما وان لحمة الآداب تجمعهما ، ووشائج الودّ القديم تربطهما ، ولهذا فهو سينأى ويضرب في الارض اكراما لنفسه ، وصيانة لها من هذا الاطراح وقلة المبالاة في أمره .

ثم يلتفت الى الفتح ـ الذي لم يتصل به بعد ـ فيقول : ان تخطّى كرمه اياه لم يكن الا من عمل الاقدار التي تعطى من تشاء وتحرم من تشاء ، وهو لا يستطيع ان يشكوه نداه ، ومن ذا الذي يصدقه بعد ان وسع كرمه وعطاؤه الناس جميعا ؟

على ايّ أمر مشكل أتلوّم ... أقيم فأثوى أم أهمّ فأعزم
ولو انصفتني « سرمن راء » لم أكن ... الى العيس من ايطانها أتظلّم
لقد خاب فيها جاهد وهو ناطق ... وأعطي منها وادع وهو مفحم
ولو وصلتني بالامام ذريعة ... درى الناس ايّ الطالبين يحكّم
أعاتب اخواني ولست ألومهم ... مكافحة ، ان اللئيم الملوّم
وقد كنت أرجو والرجاء وسيلة ... على ابن يحيى للتي هي أعظم
مشاكلة الآداب تصرف ناظري ... اليه ، وودّ بيننا متقدّم
وهزته للمجد حتى كأنما ... تثنى به الخطىّ فيها المقوّم
(أبا حسن) ما كان عدلك فيهم ... لواحدة الاّ لانك تفهم
وما انت بالثاني عناناً عن العلا ... ولا أنت بالخلّ الذي يتجرّم
خلا ان باباً ربما التاث اذنه ... ووجهاً طليقاً ربما يتجهّم

وانى لنكس ان ثقلت عـــن الغنى ... وكنت خفيف الشخص اذ أنا معدم
سأحمل نفسي عنك حمل مجامل ... وأكرمها ان كانت النفس تكـرم
وأبعـد حتى تعرض الارض بيننا ... ويمسي التلاقي وهو غيب مرجّم
عليك السلام أقصر الوصل فانطوى ... وأجمع توديعاً أخوك المسلّم
فالاّ تساعدني الليالي فربمـــا ... تأخّر في الحظ الرئيس المقدّم
وما منع الفتح بن خاقان نيله ... ولكنها الأقدار تعطي وتحـــرم
سحاب خطاني جوده وهو مسبل ... وبحر عداني فيضه وهو منعم
وبدر أضـاء الارض شرقاً ومغرباً ... وموضع رجلي منه اســود مظلم
أأشكو نداه بعدما وسع الورى ؟ ... ومن ذا يذمّ الغيث الاّ مذمم(١)

---

(١) الديوان ٣/١٩٧٨ ـ ١٩٨٠ والجدير بالذكر ان شارح الديوان يقول في تعليق له على قصيدة للبحتري في مدح الفتح (١/٤٤٥) ما يلي : « ويظهر ان الفتح تباطأ في تقديمه الى الخليفة فعاتبه في القصيدة رقم (٧٦١) وعاتب معه علي بن يحيى المنجم :

لقد خاب فيها جاهد وهـــو ناطق ... وأعطى منها وادع وهو مفحـــم
فلو وصلتني بالامـــام ذريعـــة ... درى الناس أي الطالبين يحكـم »

وحين نرجع الى القصيدة التي أشار اليها الشارح وهي (٧٦١) نجده يعلق عليها بقوله : « هذه القصيدة وجهها الى علي بن يحيى المنجـم (انظر : ترجمته مع القصيدة ٤٦٠ ص ١١٣٢ وفي هاتين القصيدتين يطلب تقديمه الى الامام أي الخليفة » .

فالشارح ـ كما ترى ـ اضطرب في التعليقين فهو يشير في الاول الى ان الذي تباطأ في تقديم « الشاعر الى الخليفة هو الفتح ، وحين تباطأ عاتبه بالقصيدة (٧٦١) . وعند مراجعتنا القصيدة المذكورة نجده يقول : هذه القصيدة وجهها الى علي بن المنجم يطلب تقديمه الى الامام اي الخليفة .

والحق ان القصيدة التي أشار اليها الشارح والتي ذكر منها البيتين هي في ابن المنجم وانه طلب منه لا من الفتح تقديمه الى الخليفة ، وذلك لان الشاعر لما يتصل بعد بالفتح ، فكيف يطلب منه تقديمه الى الخليفة ! ومعلوم ان ابن المنجم كان من المختصين بالخليفة ، وكان يوصل الشعراء والادباء به كما أسلفنا في ترجمته .

الفصل الثاني

في ظل الفتح بن خاقان :

على الرغم من قصائد البحتري في مدح ابن المنجم وعتابه التي سبق ذكرها فما زال الغموض يكتنف اسم الشخص الذي اضطلع بمهمة ايصال الشاعر الى الفتح هذا .

فالبحتري لم يفصح لنا فيما أثر من شعره بشيء عن هذا الذي كان له فضل عليه .

ويجدر بنا قبل الخوض في تفصيلات علاقة الشاعر بممدوحـــه الجديد ، ان نلم بشيء عن هذا الرجل الذي جهد البحتري ان يكون في كنفه ، والذي اوقف عليه شيئاً كثيراً من مختار شعره وجيده .

هذا الرجل هو الفتح بن خاقان بن غرطوج وقيل أحمد ، وخاقان هذا كان في جملة قواد المعتصم من الاتراك ، واليه عهد المعتصم القيام ببناء قصره الجوسق في سامراء في أول ابتنائها ، ولعل هذا هو السبب في تسمية هذا القصر أحيانا بالجوسق الخاقاني[1] .

شَبَّ الفتح في كنف أبيه وفي ظل الخلفاء ، وكان ذكياً فطناً ، جيد الطبع منذ غضارته ، ولا أدل على ذلك من الحكاية التي تناقلتها المراجع القديمة وفحواها ، ان المعتصم دخل يوما الى أبيه خاقان غرطوج ، فقال له يمازحه : يا فتح ؟ اي أحسن داري أو دار أبيك ؟ فاجاب الفتح بدون توقف ـ وهو صبي له من العمر سبع سنين أو نحوها ـ كما يقال ـ : دار أبي اذا كنت فيها ، فعجب المعتصم منه وتبناه[2] . ثم اتصل بعده بابنه الواثق فكانت له مثل منزلته عند أبيه ، ثم كانت خلافة المتوكل فاختص به واتخذه أخاً ، وكان يقدمه على سائر ولده وأهله[3] .

---

(١) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٢٦ .

(٢) أنظر : الاغاني ١٩٩/٦ ، ومعجم الادباء ١٧٥/١٦ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٧٥ ، ومعجم الادباء ١٧٨/١٦ .

وكان الفتح أديباً فاضلا ، دمث الأخلاق ، ليّن العريكة ، زكيّ النفس ، حسن العشرة ، غاية في الجود ، محبباً الى كل من يكلمه[1] . وليس صحيحاً ـ فيما يخيل الينا ـ ما ذكره المسعودي عنه من انه لم يكن مع منزلته من الخلافة ممن يرجى فضله ويخاف شره[2] .

لقد كان الفتح مشغوفا بالقراءة حتى قيل : ثلاثة لم ير قط ولا سمع احبّ اليهم من الكتب والعلوم . الجاحظ ... والفتح بن خاقان . فانه كان يحضر لمجالسة المتوكل فاذا أراد القيام لحاجة أخرج كتابا من كمّه أو خفّه وقرأه في مجلس المتوكل الى عوده اليه حتى في الخلاء[3] . ويبدو ان ولعه بالكتب هو الذي دفعه الى انشاء خزانة كتب عظيمة اكثرها حكمة ، عملها له علي بن يحيى المنجم[4] . ولعل احتفاله بالعلم والادب هو الذي جعل بيته منتدى يحضره فصحاء الاعراب وعلماء الكوفيين والبصريين[5] ، كما بلغ من اهتمامه بالادباء ان خصص لبعضهم راتبا شهريا[6] .

ولا شك في ان حدبه هذا على الادب والادباء كان دافعا وحافزا للحركة الادبية في تلك الآونة ، ومن أجل هذا قيل : « ركد الشعر بعد البرامكة فأهبطه جود الفتح وحرّك منه فتحرك »[7] . ولا عجب في ذلك اذا ما علمنا انه كان من أعلم الناس بالشعر[8] ، يطرب لجيده ، ويهتز

---

(١) معجم الادباء ١٦/١٧٨ .
(٢) مروج الذهب ٤/٤ طبعة دار الاندلس .
(٣) الفهرست ص ١٧٥ .
(٤) وفيات الاعيان لابن خلكان ٣/٥٦ ، وأنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٧٦ ـ ٧٧ .
(٥) أنظر : الفهرست ص ١٧٥ .
(٦) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٩٣ .
(٧) أنظر : أخبار البحتري للصولي ص ٩٥ .
(٨) نفسه ص ٩٩ .

رائعه ولا يتردد ان يشرب نخب ما يسمع استحسانا واعجابا[1] .

على ان ولوع الفتح بالادب والشعر لم يكن ليقتصر على الاعجاب حسب ، بل تعدى ذلك الى المشاركة الفعلية فيهما ، فقد روى انه وضع عددا من المؤلفات منها :

كتاب البستان المنسوب اليه في أنواع من الأدب ، وكتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجوارح ، وكتاب الروضة[2] . كما روى شيئاً من شعره :

أبو زكريا بن حكيم الأسلمي ، وأبو العباس المبرّد ، وأحمد بن يزيد المؤدب[3] ، وهناك نماذج جيدة من هـــذا الشعر رويت في بعض المراجع[4] .

وبقي الفتح وزيرا للمتوكل وخديناً ، حتى قتل معه في القصــر الجعفري سنة ٢٤٧هـ على أيدي الاتراك .

ورجل كالفتح في رحابة صدره ، وسجاحة طبعه ، وعظم منزلته ، وكثرة جوده ، خليق بالتقرب منه والانقطاع اليه .

وشاعر كالبحتري في سعة مطامعه وبعد أهدافه ، وروعة شعره ، وخصب قريحته ، جدير بتقريبه ، والانعام عليه . وهكذا كان ، فقد تهيأ للشاعر ان يحظى بالزلفى من الفتح والاتصال به .

أول اتصال البحتري بالفتح :

وفي أخبار البحتري للصولي هذا الخبر عن ابن البحتري : « حدثني أبي قال : امتدحت الفتح بن خاقان أول أمري فأمرني بالمقام وتأخرت

---

(١) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ١٥٣ .

(٢) أنظر : الفهرست ص ١٧٥ ، ومروج الذهب ٤/٤ ، ومعجم الادباء ١٦/١٧٤ ـ ١٧٥ .

(٣) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ١٥٢ .

(٤) أنظر : معجم الشعراء للمرزباني ص ١٩٠ ، ومعجم الادباء ١٦/١٧٥ ، ١٨٣ ـ ١٨٤ وسامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ١٥٤ .

جائزته ، فكتبت اليه : لك النعماء والخطر الجليل ـ القصيدة . فما كان اسرع ما جاءت جائزته وأمرني بالمقام »[1] . وتمام الابيات التي أسماها الصولي قصيدة هو :

لك النعماء والخطر الجليـــل ... ومنك الرفد والنَيْل الجزيل
أمرت بأنْ أقيم على انتظـــار ... لرأيك ، انه الرأي الأصيل
وراقبت الرسول ، وقلت يأتي ... بتبيان ، فما جـــاء الرسول
فليس بغير أمرك لي مقـــام ... ولا عن غير رأيك لي رحيل
وقد اوقفت عزمي والمطـــايا ... فقل شيئاً لأفعل ما تقـول[2]

وواضح ان الخبر يشير الى ان البحتري قد امتدح الفتح أول مرة ، وان الفتح أمره بالمقام ، ولكن هل معنى هذا انه اتصل به ؟ ثم ما هي القصيدة الاولى التي امتدحه فيها ؟

فالابيات تشير الى انه امر بالانتظار الى ان يدعى للمثول بين يدي

---

(١) أخبار البحتري ص ٩٨ . يقول محقق أخبار البحتري ص ٨٣ هامش (٢) : « كان البحتري عامذاك في بغداد وقدمها للمرة الثانية بعد وفاة استاذه أبي تمام ، وقد أعد نفسه لاحتلال مركز الشاعر الاول في العاصمة العباسية ، وقد وصل الى الفتح عن طريق أمين مكتبته علي بن يحيى بن المنجم بعد طول انتظار » .

والمحقق يقصد ان البحتري كان في سامراء لا بغداد ؛ اذ كانت هي العاصمة العباسية في غضون هذه الحقبة ، وهذا الخطأ درج عليه كثير من الدارسين في العصر الحاضر ، وهو خطأ لا ينبغي ان يستمر (أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢١٢ ـ ٢١٤) وأما قوله ان وصول الشاعر الى الفتح عن طريق ابن المنجم ، فهذا الامر ما زال ملفعاً بشيء من الغموض على الرغم من القصائد التي رفعهـــا الشاعر الى ابن المنجم هذا ، ومن الغريب ان يغفل البحتري هذه الأثرة فلا يكلف نفسه مدح ابن المنجم على افضاله هذا ، أفترى انه اغفل ذلك لامر ما ؟ ام ان في اغفاله ـ من الشاعر ـ امرا آخر يرجع الى قعود ابن المنجم وفشـله في ايصال الشاعر بالفتح ؟

(٢) الديوان ١٣٠٩/٣ .

الفتح ، وانه انتظر رسولا من الممدوح فلم يأت ذلك الرسول ، وان امر رحيله ومقامه موكل اليه ، ورهن اشارته !

وهناك خبر ثان رواه الصولي في أول اتصال البحتري بالفتح جاء فيه : « حدثني يحيى بن البحتري قال : قال ابي : أول ما مدحت بـه الفتح بن خاقان :

هب الدار ردت رجع ما انت قائلـه

فانشدته اياها في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، بعدما أقمت شهرا لا أصل الى انشاده ، وهو مع ذلك يجرى عليّ ويصلني ، ثم جلس جلوسا عاما ، وحضرت وحدي فرأيته يبتسم عند كل بيت جيد ، فعلمت انه يعرف الشعر ، وكان ذلك أعجب اليّ من جميع ما وصلني به . وكان أول ما اهتز له حين بلغت الى قولي :

وقد قلت للمعلي الى المجد طرفه　　　دع المجد فالفتح بن خاقان شاغله

والى قولي :

صفت مثلما تصفو المدام خلاله　　　ورقت كما رقّ النسيم شمائله

فلما فرغت سرّه ما سمع ، وأمر لي بخمسة آلاف درهم »[1] .

فهذا الخبر ـ كما ترى ـ يشير الى ان الشاعر ـ كما يقول ابنـه عنه ـ امتدح الفتح أول مرة بقصيدته اللامية « هب الدار ... » وان انشاده اياها كان في سنة ٢٣٣هـ ، وانه أقام في باب الفتح شهراً ، لم يتيسر له الدخول اليه وانشاده ، والفتح مع ذلك يجرى عليه ويصله . ثم سمح له بالدخول بعد ان هيء لذلك مجلس حافل عام . وحضر الشاعر « وحده » ـ كما يقول ـ ورأى الممدوح يهتز ويبتسم عند كل بيت جيد في القصيدة ، فسرّ البحتري لمعرفة الفتح بجيد شعره ، وان الفتح اهتز حين بلغ الشاعر الى قوله :

---

(١) اخبار البحتري ص ٨٣ ـ ٨٤ .

وقد قلت للمعلي الى المجد طرفه دع المجد فالفتح بن خاقان شاغله

والى قوله :

صفت مثلما تصفو المـــدام خلاله ورقت ـ كما رق النسيم ـ شمائله

فلما أتم البحتري قصيدته سر الفتح وأثابه بخمسة آلاف درهم .

فهذه القصيدة اذا أخذنا بالخبر الاول لم تكن اول ما امتدح به الشاعر ممدوحه ، وانما هي ـ اذا أخذنا بالخبر الثاني ـ أول ما سمعه من الشاعر بعد أن أذن له بالدخول عليه !

ويبدو لنا ان جلوس الفتح جلوسا عاما ، وافراد البحتري في هذا المجلس ـ اذا صح ـ دليلان على أهمية الشاعر في نفس الفتح ، ولعل هذا ما يحمل على الظن بان الفتح كان قد اطلع على شيء غير قليل من شعره ، مما حدا به الى الاعجاب بالشاعر فعمل له ما عمل مما يشبه ان يكون حفلة استقبال عامة !

ومهما يكن من الغموض الذي أحاط بالملامح الاولى لهذا الاتصال ، فان الشاعر قد مكن له الوصول الى ما كان يصبو اليه ، وان هذه اللامية هي من أوائل شعره في الفتح .

ويجمل بنا قبل ان نواكب الشاعر في مسيرته مع ممدوحه ، ان نلمح الى شيء من شعره فيه .

ان المدة التي قضاها البحتري في ظل الفتح تناهز أربع عشرة سنة ، وهي حقبة طويلة بلا شك ، وان ما وصلنا من شعره فيه يبلغ حوالي تسع وعشرين قصيدة ومقطعة تربي على ثلاثين وثمانمائة بيت ، ولو اردنا ان نجري عملية حسابية بسيطة بين عدد القصـــائد والمقطعات وبين هـــذه السنوات الطويلة ، لتبين لنا ان نصيب الممدوح في السنة الواحدة قصيدتان أو قصيدة ومقطعة ، وهـــذا قليل اذا ما تذكرنا كرم الممدوح واهميتـــه السياسية والاجتماعية في تلك الحقبة . فما السر في قلة هذا الشعر ، وما الذي حال بين البحتري وبين الأكثار منه ؟

أغلب الظن ان الذي قلل من هذا الشعر ، هو عدم انقطاع الشاعر الى الفتح ؛ لانه ـ كما نعلم ـ قد اتصل في أثناء ذلك برجل الخلافة الاول وهو المتوكل ، وانه كان يوزع شعره بين الاثنين . هـذا الى انه كان أحيانا يؤم بشعره أناسا آخرين ، وبالامكان عمل جدول لهذا الشعر وتوزيعه على النحو الآتي :

١ ـ مجموع أبيات القصائد والمقطعات	٨٣٦
٢ ـ مجموع أبيات الغزل فيها	٢٤٣

كما يمكن تصنيف هذه القصائد والمقطعات على الوجه التالي :

١ ـ من (٤) أبيات الى (١٠)	٣
٢ ـ من ١١ ـ ٢٠	٦
٣ ـ من ٢١ ـ ٣٠	٧
٤ ـ من ٣١ ـ ٤٧	١٣

شاغل المجد :

ونمضي الآن مسايرين شاعرنا في رحلته الطويلة مع ممدوحه الجديد ، ونبدأ بلاميته التي عقد له مجلس عام حضره وحده ـ كما يقال ـ ليلقيها على مسامع الممدوح . وقد مهد لغرضه بعشرة أبيات في الغزل ، وابتدأها على الطريقة التقليدية بمساءلة الدار ، وبثها شكواه وحبه ، غير ان البحتري برقته وسلامة طبعه قد أضفى على ذلك غير قليل من الروعة والطرافة ، فهو يقول :

هب الدار ردّت رجع ما انت قائله ... وأبدى الجواب الربع عما تسائله
أفي ذاك برء من جوى ألهب الحشا ... توقده ، واستغزر الدمع جائله

ويقول :

مضى العام بالهجران منهم وبالنوى ... فهل مقبل بالقرب والوصل قابله ؟
أرجمّ في ليلى الظنون ، وأرتجى ... اوائل حب أخلفتني أوائله
وليلة هوّمنا على العيس أرسلت ... بطيف خيال يشبه الحق باطله

فلولا بياض الصبح طال تشبثي ... بعطفي غزال بتّ وهناً أغازله

وينتقل بعد هذا التمهيد الى الغرض الأساس ، وهو المدح ، فيعدد الصفات التي يتحلى بها الممدوح : من كرم وشجاعة ونبل ، وهي صفات طرقها من سبقه من شعراء العربية ويشير الى ما سلف من اكرامه اياه ، كما يتطرق الى وصف دخوله عليه ، ووصف ما اعتراه من هيبه ، وما داخله من شعور ، حتى كادا ينازعانه ما أعدّ من قول ، ويذهبن منه ما هيأ من مديح ، لولا طلاقة محيا الممدوح وبشره . ويبدو ان البحتري قد هيأ نفسه تهيئة جيدة ، وأعدّ لهذا اللقاء عدته ، فجهد ان يصوغ قصيدته صياغة محكمة ، ويحبكها حبكاً متقناً ، حتى أصبح كثير من أبياتها نماذج كالأمثال السائرة :

وقد قلت للمعلي الى المجد طرفه ... دع المجد فالفتح بن خاقان شاغله
سنان أمير المؤمنين وسيفه ... وسيب أمير المؤمنين ونائله
تشبّ به للناكثين حروبه ... وتدنو به للخابطين نوافله
رمى كلب الاعداء عن حد نجدة ... بها قطعت تحت العجاج مناصله
وما السيف الا بزّ غادٍ لزينة ... اذا لم يكن أمضى من السيف حامله
بداني بمعروف هو الغيث في الثرى ... توالى نداه ، واستتارت خمائله
أمنت به الدهر الذي كنت أتقي ... ونلت به القدر الذي كنت آمله
ولما حضرنا سدة الاذن أُخرت ... رجال عن الباب الذي أنا داخله
فأفضيت من قرب الى ذي مهابة ... أقابل بدر الأفق حين أقابله
الى مسرف في الجود لو ان حاتماً ... لديه لأمسى حاتم وهو عاذله
بدا لي محمود السجية شمرت ... سرابيله عنه وطالت حمائله
كما انتصب الرمح الرديني ثقفت ... أنابيبه للطعن واهتز عامله
وكالبدر وافته لتمّ سعوده ... وتمّ سناه ، واستقلت منازله
فسلمت واعتاقت جناني هيبة ... تنازعني القول الذي أنا قائله
فلما تأملت الطلاقة وانثنى ... اليّ ببشر آنستني مخايله

دنوت فقبلت الندى في يد امرىء جميل محيّاه ، سباط أناملــــه
صفت مثلما تصفو المدام خـلاله ورقت ، كما رقّ النسيم شمائله[1]

المهذّب الوضاح :

ويمضي البحتري – بعد ارساخ قدمه في عتب الفتح – يدبج المدائح وينسجها نسجاً محكماً ، وعلى الرغم من محاولة شارح الديوان – كما أسلفنا – تاريخ هذه المدائح – فان الكثير منها – ما يزال في رأينا – يفتقر الى الدليل لصحة هذا التأريخ ، فليس هناك من حادثة معينة معروفة ، او اشارة واضحة في أكثر هذه المدائح يمكن ان تتخذ دليلاً واضحاً على تأريخها، ومع كل ذلك فنحن سنأخذ بالتأريخ الذي وضعه لها الشارح ، ولكن على سبيل التحفظ والترجيح لا على سبيل اليقين والتأكيد !

ويبدو ان من اوائل قصائده في هذا الباب هذه الحائية التي قالها في حدود سنة ٢٣٣ هـ والتي بدأها بالغزل التقليدي الذي استغرق اكثر من نصفها ، وهو غزل رقيق عذب يشد القارىء اليه شداً ، ومن ذا الذي لا يعجبه قوله :

وليلة القصـــر والصهباء قاصرة للهو بين أباريق وأقـــداح
ارسلت شغلين من لفظ محاسنه تدوي الصحيح ولحظ يسكر الصاحي
حييت خديك بل حييت من طرب ورداً بوردٍ وتفاحـــاً بتفـــاح

ويدلف الشاعر بعد هـــذا التمهيد الى المديح فيخبرنا بان العيس تحمل الى الممدوح مدحاً لا يستطيع ان يقوم به مدّاح آخر ، وان ممدوحه يجمع صفات وخلالاً هي الجمال والتهذيب والجود وما الى ذلك :

والعيس ترمي بأيديها على عجـل في مهمه مثل ظهر الترس رحراح
تهدي الى الفتح والنعمى بذاك له مدحـــاً يقصرّ عنـــه كل مدّاح
تكشّف الليل من لألاء غرته عن بدر داجية او شمس اصباح

---

(١) الديوان ٣/١٦١٠ – ١٦١٤ .

مهذب تشرق الدنيا لطلعته عن أبيض مثل نصل السيف وضّاح
غمر النوال اذا الآمال أكذبها ثماد نيل من الاقوام ضحضاح
مواهب ضربت في كل ذي عدم بثروة ، وأماحت كل ممتاح
قد فتح الفتح أغلاق الزمان لنا عما نحاول من بذل واسماح
يسمو بكف على العافين حانية تهمى ، وطرف الى العلياء طمّاح

وظاهر ان هذه المدحة لا تشير الى حادثة معروفة ، او مناسبة معينة ، واكبر الظن ان الشاعر قصد بها الفتح ، وهو في اول اتصاله به .

سيف بني العباس :

وهذه مدحة أخرى تنطوي على تعداد كثير من الصفات التي تنحل الى كرم الممدوح وعلوّ همته ، وذ وده عن بني العباس بما أظهر من شجاعة وبسالة ، فكان اعداؤهم ما بين قتيل وشريد ، ولا ندري بالطبع من هم اولئك الاعداء الذين فتك بهم الفتح ، والشاعر يشيد بأيادى الفتح عنده ، وانه أصبح من جراء عطاياه الجزيلة يجدى على العافين بعدما كان يجدى عليه ، حتى ذهب ماله وأخنى على نشبه من كثرة ما أعطى ومنح ، ومن أجل هذا فهو يذكرّ الفتح بالالف الذي وعده به . واذا صح ما قاله البحتري في هذا ، فهو خير دليل على دحض ما أفتراه عليه بعضهم من شح شديد .

وهذه الاشارات الأخيرة تحملنا على الظن بأن تاريخ هذه القصيدة متأخر بعض الشيء عما حدده لها شارح الديوان ، الذي يعتقد انه كان في سنة ٢٣٣ هـ ولا تخلو ابيات هذه القصيدة من التقسيم الذي كان يحفل به البحتري في عموم شعره :

جادت يد الفتح والانواء باخلة وذاب نائله والغيث قد جمدا
وقصّرت همم الاملاك عن ملك تطأطأوا ، وسمت أخلاقه صُعُدا

---

(٢) نفسه ١/٤٤٣ ـ ٤٤٤ .

يشيّد المجد قوم انت أقربهم ... نيلاً ، وأبعدهم في سؤدد أمدا
وما رأيناك الاّ بانياً شرفاً ... او فاعلاً حسناً ، او قائلاً سددا
والناس ضربان : اما مظهر مقة ... يثني بنعمى ، واما مُضمر حسدا
سللت دون بني العباس سيف وغى ... يدمى وعزماً اذا أضرمته وقدا
آثار بأسك في اعداء دولتهم ... أضحت طرائق شتى بينهم قددا
اما قتيلاً يخوض السيف مقلته ... او نازعاً ليس ينوى عودة أبدا
حتى تركت قناة الملك قيّمة ... بالنصح لا عوجاً فيها ولا أودا
لا تفقدن فلولا ما تراح له ... من السماحة كان الجود قد فقدا
أما أياديك عندي فهي واضحة ... ما ان تزال يد منها تسوق يدا
ألازمي الكفر ان لم أجزها كملاً ... ألاحقى العجز ان لم أحصها عددا
أصبحت أجدى على العافين مبتدئاً ... منها ، وما كنت الاّ مستميح جدا
قد قلت اذ اخذت مني الحقوق واذ ... حمّلتها جائراً فيها ومقتصدا
هل الامير مجدّ من تفضّله ... فمنجز لي في الألف الذي وعدا(١)

ربيب خلائف :

ويعقب الشاعر مدائحه السابقة بمدحة أخرى يكرّر فيها خلال ممدوحه ، وأهمها : الجود والرأى الحصيف ، والاخلاص لبني العباس • ويحلو للبحتري ان يعيد ويفيض في وصف هيبة الفتح ووقاره ، ويجسم تلك الهيبة وذلك الوقار ، حين يقرنهما بما كان يتراءى له من اخبات المحيطين بالممدوح وتعظيمهم له • وهو لا يكل ولا يمل من تكرار اعترافه بفضل الممدوح عليه حتى أذهله ذلك عن حبيبه وأنساه بلده ، وغيرّ عليه قلوب ذويه وخلاّنه ، وهو من فيض جوده وانعامه عليه لا يخشى الاقامة او الرحيل ، لانه في كلا الحالين مكفيّ المؤونة ، موفرّ الزاد :

ستلحقني بحاجاتي المطايا ... وتغنيني البحور عن الثماد
وأكبر ان اشبّه جود فتح ... بصوب غمامة او سيل واد

(١) الديوان : ٢/٧١٨ ـ ٧٢٠ •

كريم لا يزال لـه عطـاء ... يغيّر سنة السنة الجماد
ولا اسراف غير الجود فيه ... وسائره لهدى واقتصاد
ربيب خلائف لم يأل ميلاً ... الى التوفيق منهم والسداد
تعدّ به بنو العباس ذخراً ... ليوم الرأى أو يوم الجلاد
مليّ أن يقلّ السيف حتى ... ينوش اذا تمطى في النجاد
مهيب يعظم العظماء منه ... جلالة أروع واري الزناد
يؤدون التحية من بعيد ... الى قمر من الايوان باد
قيام في المراتب أو قعود ... سكون في أناة واتئاد
فليس اللحظ بالمكرور شزراً ... اليه ، ولا الحديث بمستعاد
كفاني نائبات الدهر أني ... على الفتح بن خاقان اعتمادي
وصلت به عرى الآمال اني ... أحبّ شمائل الفهم الجواد
جفوت الشام مرتبعى وأنسي ... وعلوة خلتي وهوى فؤادي
ومثل نداك أذهلني حبيبي ... وأكسبني سلواً عن بلادي(1)

ملك مفضال :

وتتوالى مدائح الشاعر الواحدة تلو الأخرى ، وتتفاوت بطبيعة الحال جودة وقوة ، وان كانت تنحو منحى واحداً في معناها في اغلب الأحيان . فهذه مدحة أخرى له يشيد فيها بسجايا الممدوح وشمائله ، وهي لا تعدو ان تكون تكراراً لما سبق ان بثه في تضاعيف قصائده الآنفة . فالممدوح لا يمكن ان يجارى في خلاله وأخلاقه وأنى تجاري البحار الزاخرة ، والجبال الشامخة ، وهو لم تسلم اليه المقادة الا بعد الاعتراف بفضله هذا ؟ وهو كذلك يجمع بين صدق القول والفعل . وبين السماحة والشجاعة ، وهو مخلص للخلافة لا ينوى لها الغدر والاغتيال ولا ينسى ان يعترف بفضل ما أسبغ عليه ممدوحه من نعم وأفاض عليه من عطاء .

ويخيل الينا ان هذه القصيدة لا ترتفع الى مستوى مدائحه الأخرى ،

---

(1) الديوان : ٢/٧٢٥ - ٧٢٧ .

وان التكلف يكاد يغلب عليها :

ايهـا المبتغي مسـاجلة الفتـ ... ـح لحاولت نيل ما لا ينال
اين تلك الاخلاق منك اذا رمـ ... ـت مداها ؟ واين تلك الخلال
لن تجارى البحار حين يجيش الـ ... ـمد فيها ، ولن توازى الجبال
يبعـد البـائن المبرّز فوتاً ... وتداني الضـروب والاشكال
لم تسـلم لـه المقادة حتى ... عرفت فضله عليها الرجـال
ثابت في المكرّ اذ راح للفر ... سان عن جانب الصريع محال
ملك يستقل في رأيـه المـلـ ... ـك ويحيا في فضله الافضال
وذا ما حللت ربع أبي الفضـ ... ـل فثمّ السّمـاح والابلال
ومقيم صَغْيَ الأمور وفيهـا ... حَيَدٌ عن جهاتهـا وانفتال
متحنٍ عـلى الخلافة ما يـنـ ... ـقص في حظها ولا يغتـال
انـا من بلّه نداك ، وأعلت ... منه آلاؤك العراض الطـوال
وتولته أنعـم منـك يحمـد ... ن خفافاً وهن وفر ثقـال
مائثات بذكرك الارض شكراً ... وثنـاء ، وسيرها ارسال[1]

تفاوت الرجال :

وإذا كان البحتري قد هبط في مدحته السابقة بعض الشيء عما ألفناه له من رائع القول وجودته وحبكته ، فانه قد تلافى بهذه المدحـة التي أعقب بها تلك ، وقد انطلق بعد تمهيده الغزلي الى وصـف حمى حبيبتـه وما فيه من رياض غن ، وشقائق مطلولة ، ونسائم معلولة ، وانساب منه الى هدفه الرئيس فراح يطري منتجعه ويتغنى بفراعته وجهارة صوته ، وبتبجيل القوم له ، ثم مضى يسرد ما كان يتحلى به من المكارم والسماحة والفضـل على تحريك الشعر ونفقه ، مما يذكرنا بقولـه الذي رواه عنه بعضهم : « ركد الشعر بعد البرامكة فأهبطه جود الفتح وحرّك منه فتحرك »[2] .

(١) الديوان : ٣/١٨١١ ـ ١٨١٤ .
(٢) اخبار البحتري ص ٩٥ وانظر ص ٩٢ من هذا البحث .

ويبدو ان البحتري بعد ان أحسَّ بمكانة شعره ، وقيمته في عصره أخذ يشيد به ويفتخر بجودته وسيرورته ، وانه ليقارن به منح ممدوحه وهباته ، وهل هناك ثواب لأخي النعمى خير من شعره السائر الخالد على الدهر ؟

والبحتري لم يفعل هذا الا بعد ان توطدت صلته بالفتح ، وكثرت زياراته له ، والدخول عليه ، وقبل ان ينفد ما أعده لمدوحه من الثناء والاطراء يعرج على ولده فيشمله بعديد من أبيات هذه المدحة ، فهو سليل المجد والعلا ، ومتى شاء بناء مجد شاده بهمة ثابتة متقيلاً بذلك والداً أريحياً ، وان خير ما ينبيء عن نجابة هذا الطفل حركاته التي توحي بان سيكون له شأن واى شأن .

ويبدو ان البحتري قد تأثر في هذا أبا تمام الذي مدح احمد بن المعتصم (المستعين) اكثر من مرة ، غير انه ـ كما نظن ـ لم يكن ليحفل او يراعي ما كان عليه الممدوح من صغر السن ، وقلة الادراك لمعاني شعره العميقة[1] . ومن أجل هذا فالبحتري في اتجاهه هذا ـ فيما يخيل الينا ـ أكثر دقة ، وأقرب الى القبول والاستساغة مما ذهب اليه ابو تمام ، هذا الى ان البحتري ـ كما سنرى فيما بعد ـ قد حذا حذو ابى تمام عند تصديه لمدح عدد من اولاد الخلفاء .

سقى الغيث أكناف الحمى من محلة	الى الحقف من رمل اللوى المتقاود
ولا زال مخضر من الروض يانع	عليه بمحمر من النور جاسد
كأن جنى الحوذان في رونق الضحى	دنانير تبر من تؤام وفارد
رباع تردت بالرياض مجودة	بكل جديد الماء عذب الموارد
كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت	تليها بتلك البارقات الرواعد
رأيت الندى أمسى شقيقاً مناسباً	لاخلاقه دون الحليف المعاقد
تلفت فوق القائمين فطالهم	تشوف بسام الى الوفد قاعد

(١) انظر : سامراء في ادب القرن الثالث الهجري ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

جهير المخطاب يخفض القوم عنده ... معاريض قول كالرياح الرواكد
يخصون بالتبجيل أطولهم يداً ... وأظهرهم أكرومة في المشاهد
ولم ار امثال الرجال تفاوتت ... الى الفضل حتى عدّ الف بواحد
ولا عيب في اخلاقه غير انه ... غريب الأسى فيها قليل المساعد
مكارم هن الغيظ بات غليله ... يُضرم في صدر الحسود المكايد
ولن تستبين الدهر موضع نعمة ... اذا انت لم تدلل عليها بحاسد
كفى رأيه الجلّ ، وألقى سماحه ... نفاقاً على علق من الشعر كاسد
واني لمحقوق بألاّ يطولني ... نداه اذا طاولته بالقصائد
يحكن له حوك البرود لزينةٍ ... وينظمن عن جدواه نظم القلائد
وحسب أخي النعمى جزاء اذا امتطى ... سوائر من شعر على الدهر خالد
جمال الليالي في بقائك فليدم ... بقاؤك في عمر عليهن زائد
ومليّت عيشاً من أبي الفتح انه ... سليل العلا والسؤدد المترافد[1]
متى ما يشد مجداً يشده بهمة ... تقيّل فيها ماجداً بعد ماجد[2]

وواضح ان البحتري قد أجاء في الكثير من اجزاء هذه القصيدة حتى أحال العديد من ابياتها امثالاً سائرة ٠

شبيه الربيع :

وتوالى غرر البحتري ، وتتابع خرائده في الفتح محملة بطرائف اوصافه ٠ ومحلاة بفرائد جواهره ، ولا سيما فيما يمس الربيع وازهاره ، وطلاقته ورياضه ، والبحتري الذي تفتحت عيناه على مباهج الطبيعة الساحرة في بيئته الاولى « منبج » وتكحلت بمفاتن بيئته الثانية سامراء ، لم يكن لتفوته هذه المجالي التي يعطيها من نفسه وذوقه وحسه الشيء الكثير ، ومن أجل هذا جاءت قصائده تضوع بأريج الزهور ، وتحطر بميس

(١) ابو الفتح : كنية محمد بن الفتح بن خاقان ٠
(٢) الديوان : ٦١٢٢/١ - ٦٢٦ ٠

الغصون ، فممدوحه الفتح لـه من الخلال ما ليس لغيره ، انه يجمع بين الندى والجود والاريحية ، ولكن الشاعر رأى ان هذه النعوت قد أسندها له كثيراً فلتكن نعوته هذه المرة مستقاة من الطبيعة الخلابة التي افتن بها كثيراً ، فهذا الربيع القادم بالطافه وازهاره وصفائه وروعته شبيه بممدوحه في كل شيء ، واذا كان للناس أيام يفرحون بها ويتزينون ويطلقون عليها الاعياد ، فان ممدوحه عيد لهذه الاعياد :

وصلتنا بالفتح فتح بن خاقا ... ن خلال منها الندى والجود
أريحى اذا غـدا صرّفتـه ... شيم المكرمات حيث يُريـد
كلّ يوم ٍ يفيض في مجتـديه ... نشب طارف ومـال تليـد
أخذت أمنها من البؤس أرض ... فوقها ظلّ سيبك الممـدود
ذهبت جـدّة الشتاء ، ووافا ... نا شبيهاً بك الربيع الجديد
أفق مشرق ، وجو أضـاءت ... في سنا نوره الليالي السـود
وكأن الحوذان والاقحوان الـ ... ـغض نظمـان : لؤلؤ وفريد
قطرات من السحاب وروض ... نشرت وردها عليـه الخدود
وليال ٍ كسين من رقة الصيـ ... ـف فخيلـن أنهـن برود
الرياح التي تهـب نسـيم ... والنجوم التي تطلّ سعود (١)

ينبوع الادب :

ويظهر ان انتشار درر الشاعر على صاحبه كان مدعاة لاثارة بعضهم وتشككهم في هـذه المدائح التي تنثال بدون انقطـاع ، نغمز بالانتحال والسطو على اشعار العرب ، ومن اجل ذلك فقد اقترح عليه ـ كما يقال ـ ان ينشيء قصيدة من بحر الرجز ، فكانت هذه القصيدة .

واذا صح هذا نمعنى ذلك ان البحتري أصبح محسداً منذ اوائل اتصاله بالفتح ، وهو أمر ليس بالغريب ، اذا ما علمنا ان كل ذي موهبة محسود . والشاعر في قصيدته المرتجزة ـ اذا صح التعبير ـ يخبرنا ان

(١) الديوان : ٢/٧٢٢ ـ ٧٢٣ .

صاحبه مفتاح الندى ، وزهرة الدنيا ، وينبوع الادب ، في رضاه النعيم ، وفي غضبه النقم ، ولا ينتسب المجد إلا اليه ، ولكن البحتري بعد أن مكن له في التقرب ، وشهر شعره ، ووجد لنفسه مكانة مرموقة ، أخذ يكثر من المباهاة بقريضه ، ويقارنه بما يسبغ عليه من النعم ، فالممدوح ان كساه أثواب الغنى ـ وهي بالية بالطبع ـ فانه بدوره يكسوه المدح المنتخب الخالد ، المدح الذي تشيد به روائعه المطربة ، التي لم يستعر حلينها يوماً ، ولا أغار ـ حين دبجها ـ على احد ، وانما هن وليدات خياله ، وبنات أفكاره ، ولعل في هذا اشارة الى من غمزه في انتحالها[1] . وهذه الخرائد جاءت وكأنها عقود من اللآلىء الغالية في جيد خود حسناء ، بل انها كالسحر الحلال ، الذي جهد أن يأتي به ليبرع غيره ويبزّه ، وليرتفع الى اعلى المراتب وأسمى المقاصد :

مهفهف يرتجّ في أقطاره ... كما زفت ريح بآجام قصب[2]
لم أدرِ ما أسكرني : أطرفه ... أم التي يدعونها بنت العنب
كأنما الدرّة ماء وجهه ... وجسمه أحسن من ماء الذهب
تحسبها في كأسها ياقوتة ... او قبساً أُلهب عمداً فالتهب
هذا لذا والفتح مفتاح الندى ... وزهرة الدنيا ، وينبوع الادب
يرضى فيرمي باللهى سماحة ... ويغضب الموت اذا الفتح غضب
انظر الى آثاره عند اللهى ... تنظرْ الى آثار غيث في عشب
لو قيل للمجد : انتسب الى امرىء ... لم تلفه الا إليه ينتسب
ليث وغيث وجواد ماجد ... كفاه بالاموال تحبو وتهب
طوبى لمن والى ابو محمد ... وقل لمن عادى : تأهب للعطب
يا مادح الفتح ويا آمله ... لست امرءاً خاب ولا مثن كذب

---

(١) نفسه ١٨١٠/٣ والحاشية .

(٢) الأقطار : جمع القطر : ضرب من البرود . الزفزفة : تحريك الريح الحشيش .

اذا كساني الفتح اثواب الغنى   فكسوتي اياه مـــدح منتخب
قصائد يطرب من تُهدى لــه   ولذّة النفس من العيش الطرب
لم استعر حليتها يوماً ، ولا   أغرت حين قلتها على الكتب
جاءت كدّرٍ في سماط لؤلؤ   في جيد خود أو كعقيان الذهب
سحر حلال لم أؤلف عقده   الاّ لتعلو رتبتي عـلى الرتب
وكيف لا يأمل راجيك الغنى   وانت رأس المجد والناس ذنب(١)

---

(١) الديوان ١/١٥٤ ـ ١٥٦ . من الجدير بالاشـارة ان ابا الفرج الاصبهاني ذكر في أغانيه قصة وفود العكوك على أبـي دلف وامتحانـه له على قول الشعر قال فيها : « ... فلما وصل الى ابي دلف وعنده الشعراء وهم لا يعرفونه استرابوه بها فقال له قائده : انهم قد اتهموك وظنوا ان الشعر لغيرك ، فقال ايهـا الامير : ان المحنة تزيل هــذا ، قال صدقت ، فامتحنوه فقالوا له صف فرس الامير وقد أجلناك ثلاثاً ، قـال : فاجعلوا معي رجلاً تثقون به يكتب ما أقول . فجعلوا معـه رجلاً ، فقال هــذه القصيدة ، في ليلته هذه :

ريعت لمنشور عـلى مفرقــه   ذم لها عهد الصباحين انتسب
(ومنها) :
فحمل الدهر ابن عيسى قاسما   ينهض به أبلج فرّاج الكرب
ما وسنت عين رأت طلعتــه   فاستيقظت بنوبـة من النـوب
لولا ابن عيسى القرم كنا همـلا   لم يؤتثل مجد ولم يرع حسب
ولم يقم في يوم بأس وندى   ولا تلاقى سبب الى سبب
وهو وان كان ابن فرعي وائل   فبمساعيه تراقى في الحسب
وبعــلاه وعـــلا آبائــه   تحوى غداة السبق أخطار القصب
يا زهرة الدنيا ويا باب الندى   ويا مجير الرعب في يوم الرهب
لولاك ما كـان سرى ولا ندى   ولا قريش عرفت ولا العرب
خذهـا اليك من مليء بالثنا   لكنه غـير مليء بالنشب
فأثو في الارض او استفزز بهـا   انت عليها الرأس والناس الذنب

الاغاني ١٨/١٠١ ـ ١٠٣ . واكبر الظن ان البحتري قد نظر في هذه القصيدة فعارضها ، ولكنه لم يستطع ان يفلت من بعض معانيها التي رددها في مدحته . واذا صح هذا فيكون من الغريب حقاً ان يدعي عـدم استعارة حلية قصيدته من احد او الاغارة حين قالها ـ على الكتب !

منيف على هام الرجال :

ويطل على الشاعر والممدوح عام جديد ، وحبل الود موصول بينهما ، وتستمر قصائد البحتري تنثال على الفتح انثيالاً ، فهو يراوحه بها ويغاديه، فينال من جراء خرائده وعصارة افكاره ، عطاء متصلاً ، ولهى سابغة .

وهذه احدى مدائحه ـ اذا صح تاريخها في سنة ٢٣٤ هـ ـ فيه ، ويبدو انها جاءت في اعقاب القصيدة السابقة والتي جاء في مطلعها ما يشير الى قطعه شوطاً في مضمار الحياة ، مما حمله ذلك على الادعاء بانه أصبح من ذوى السن التي لا تؤهله للحب او المكانة لدى الغواني .

ما للكبير في الغواني من أرب   مات الهوى فلا جوىً ولا طرب

وهو في هذه القصيدة الجديدة يشير الى شيء من ذلك ايضاً فيقول :

فلا تحسبا اني نزعت ولم أكن   لأنزع عن الف اليه أنازع
وان شفاء النفس لو تستطيعه   حبيب موات او شباب مراجع

واذا صح ما ادعاه الشاعر في قوله هذا وما سبقه ، فمعنى هذا ان تاريخ القصيدتين يجب ان يتأخر كثيراً عما أثبته لهما الشارح .

وجرى البحتري في مدحته هذه على السنن الذي اختطه لنفسه ، والذي يكاد يطبع عامة قصائده بطابع واحد ، فممدوحه ذو جناب ممرع ، وفضله واسع ، ومجده عريق، ليس بمقدور الآخرين مضارعته او مجاراته، وهو ذو هيبة تفرض التبجيل والاكبار . ويبدو ان هذه الصفة صفة الهيبة كانت ظاهرة في الفتح بدليل تكرار الشاعر لها أكثر من مرّة ، فهو ما يفتأ يذكرها ويشيد بها ما وجد الى ذلك سبيلاً . ويظهر كذلك ان الفتح كان رجلاً طوالاً فارعاً ، حسن السمت ، وهذا ما أشار اليه البحتري ايضاً اكثر من مرّة ، وهو الى جانب تلك الصفات بطل مغوار ، ومسعر حرب له في الأعادي بلاء حسن ، وهو كتوم رزين لا يصل الى سرّه المخادع الأريب، ولا تظهر عليه سيماء الاضطراب او أمارات التهيوء للعدو المناوىء ،

ولا ينسى الشاعر ان يعترف بفضائل الممدوح عليه والتي غمره بها ، وانه اعزه بعد الذل ، وحفظ عليه كرامته وادبه ، من أن يبيعهما في سوق المسألة والاستجداء • ولكن الشاعر ـ وقد فعل هذا اكثر من مرة وبخاصة في القصيدة السالفة لهذه ـ مع اعترافه بجميل ممدوحه وفضله عليه ، يرى نفسه قد جازى فأحسن الجزاء من أثابه واعطاه ، انه جازاه بغرره التي تتألق فيها الغرائب والبدائع ، والتي تزينها الانساب المكرمة ، والتي سارت فغمرت الارض كما يغمرها الليل ، ولكنها بقيت ساطعة وهاجة كبقاء النجوم الطوالع ، وكأني بالشاعر اراد ان يؤكد أصالة شعره ومديحه في الفتح الذي اتهم ـ كما سلف ـ بانتحاله ويبدو ان البحتري جهد في هذه القصيدة ان يجمع كل ما يمكن ان يقال من صفات المدح والثناء :

تنى أملي فاحتازه من معاشر ... يبيتون والآمال فيهم مطامع
جناب من الفتح بن خاقان ممرع ... وفضل من الفتح بن خاقان واسع
أغرّ له من جوده وسماحه ... ظهير عليه ما يخيب وشافع
يبجلّ اجلالاً ، ويكبر هيبة ... أصيل الحجى فيه تقىّ وتواضع
اذا ارتدّ صمتاً فالرؤوس نواكس ... وان قال فالأعناق صور خواضع
منيف على هام الرجال اذا مشى ... أطال الخطى بادى البسالة رائع
واغلب ما تنفك من يقظاته ... ربايا على أعدائه وطلائع
مغامس حرب ما تزال جياده ... مطلّحة فيها حسير وظالع
بعيد مقيل السرّ لا يقبل التي ... يحاولها منه الاريب المخادع
ومكتتم التدبير ليس بظاهر ... على سرّه الرأى الذي هو تابع
ولا يعلم الاعداء من فرط عزمه ... متى هو مصبوب عليهم فواقع
خلائق ما تنفك توقف حاسداً ... له نفس في أثرها متراجع
أأكفرك النعماء عندي وقد نمت ... عليّ نموّ الفجر ، والفجر ساطع
وانت الذي اعززتني بعد ذلتي ... فلا القول مخفوض ولا الطرف خاشع
واغنيتني عن معشر كنت برهة ... أكافحهم عن نيلهم وأقارع

ولم أرَ مثلي أتبع الحمد أهله
وجازى أخا النعمى بما هو صانع

قصائد ما تنفك فيها غرائب
تألق في اضعافها وبدائع

مكرّمة الأنساب فيها وسائل
الى غير من يحبى بها وذرائع

تنال منال الليل في كل وجهة
وتبقى كما تبقى النجوم الطوالع(١)

اعتلال الفتح

ويبدو ان الفتح اعتل في هذه السنة ، وصادف اعتلال كاتبه ابى نوح معه كذلك ، فأنشأ البحتري فيهما مدحة ، خصص اكثرها في الفتح ، وأشار الى ان ابواب الآمال افتتحت بالممدوح ، وانه طلق المحيا ، لا يدعوه الوقار الى الاكفهرار ولا يخرجه المزح الى الطيش ، وان اعز الناس لديه قد برأ مما ألم به ، وها هو الآن مصطبح ، وهو يدعو للفتح بالبرء والصحة ليشارك في ذلك ، والقصيدة في رأينا لا تنهض الى مستوى قصائده الجياد ، وان طابع التكلف ظاهر عليها :

ها ان سعى ذوى الآمال قد نجحا
وان باب الندى بالفتح قد فتحا

أغرّ يحسن منه الفعل مبتدئا
نعمى ، ويحسن فيه القول ممتدحا

ردّ المكارم فينا بعد ما فقدت
وقرّب الجود منا بعد ما نزحا

لا يكفهر اذا انحاز الوقار به
ولا تطيش نواحيه اذا مزحا

يا أيها الملك الموفى بغرته
تلألؤ الشمس لاحت للعيون ضحى

هناك ان أعزّ الناس كلهم
عليك غادى الغداة الراح مصطبحا

يسرّه شربها طوراً ويحزنه
ألا تنازعه في شربها القدحا

قد اعتللت أوانَ اعتل من شفقٍ
عليه فاصلح لنا برء كما صلحا(٢)

اتخاذ الفتح وسيلة لطموحه :

والبحتري بعد ان توطدت علاقته بالفتح ورسخت قدمه في ركابه ، ونال ما نال من هباته ومنحه ، هل يكتفي بذلك ، ويمكث شاعر الفتح دون

---

(١) الديوان ١٣٠٣/٣ ـ ١٣٠٦ .
(٢) نفسه ٤٤١/١ .

غيره ، يمدحه ويستنفد شعره فيه • الحق ان الشاعر بطموحه واطماعه ما كان ليرضى بذلك ، وان مبتغاه كان أبعد من الفتح ، انه الخليفة ، رجل لادولة وآمرها ، ومفتاح الثراء والغنى •

والشاعر – كما اسلفنا – كان ينقل خطواته بتؤدة وثبات من ممدوح الى آخر ، بعد ان يمهد للانتقال بتلميحات تتبعها تصريحات ووساطات لدى ممدوحه القديم • وأكبر الظن انه التمس من الفتح مشافهة ان يصله بالخليفة أو بلاطه ، قبل ان ينقل ذلك الالتماس الى الشعر •

ولعل من أوائل قصائده التي طلب فيها من الممدوح ايصاله او ايفاء وعده بتقديمه للخليفة ، هذه الحائية التي يخيل الينا انه لم ينشئها الا لهذه الغاية ، وقد مهّد لطلبه والتماسه بالثناء على الممدوح ونعته بالبدر الذي يجلو الدياجي بنوره ، والضرغام الحامي لعرينه ، والوابل العام بقطره ، والفتى الفارع الطول ، المحسّد لمكرماته ، المفتتح لمغاليق الأمور ، وحين انتهى من تقدمته هذه انتقل الى الغرض الاساس الذي كان يتوخاه ، وهو تذكير الفتح بانجاز ما وعده به من التقديم الى الامام ويعني به الخليفة •

والبحتري يستعجله بهذا التقديم ، ويرى ان اخباره عنه لدى الخليفة سبيل من سبل النصح الذي هو فريضة على الفتح بالنسبة للخليفة •

هل الفتح الا البدر في الافق المضحي	تجلّى فأجلى الليل جنحاً على جنح
او الضيغم الضرغام يحمي عرينه	او الوابل الداني من الدّيمة السح؟
مضى مثل ما يمضي السنان وأشرفت	به بسطة زادت على بسطة الرمح
فتى ينطوي الحساد من مكرماته	ومن مجده الادنى على كمد برح
يجدّ فتنقاد الامور لجدّه	وان راح طلقاً في الفكاهة والمزح
وما أقفلت عنا جوانب مطلب	نحاوله ألا افتتحناه بالفتح
فداؤك أقوام سبقت سراتهم	الى القمة العلياء والخلق السمح
وعدت فأوشك نجح وعدك انه	من المجد اعجال المواعيد بالنجح
وانت ترى نصح الامام فريضة	واخباره عني سبيل من النصح

له مكرمات يقصر الوصف دونها وأبلغ مدح يستعار لها مدحي[1]

حساد ومناوئون :

ويبدو ان مرور الأيام بالشاعر في صحبة الفتح وتردده عليه وملازمته اياه لم تكن تثني بعض مناوئيه من المنافسة والمزاحمة ، فبدت بعض ملامح ذلك في قصيدة للبحتري يظهر انه أنشأها في خلال سنة ٢٣٥ هـ ، وحاول الشاعر ان يطنب في اسناد الاوصاف الكثيرة الى ممدوحه والتي كان بثّ اكثرها في تضاعيف قصائده فيه . فهو بعد التمهيد بالغزل المعتاد يقول لنا انه سيحمل همه وهمته ظهر كل جمل طويل الذيل ، متين الألواح ، عظيم البنيان ، وانه متى تنخ هذه المطايا لدى الفتح فانها ستجد فناء رحبا ، وسيداً كريماً ، كيف لا ؟ وهو حليف ندى ، تفيض العطايا من يديه اذا سئل ، ويتبرع اذا لم يسأل وانه موئل العفاة ، وملجأ العفاة ، فارع الطول ، تتقاصر رؤوس الرجال عنه ، وذو هيبة في نفوس أصحابه ، تشخص الأبصار نحوه - اذا ما بدا - وتخفض الأصوات عن كل مسمع ، فلا حركة ولا ضوضاء ، وانما هي ايماءات بالعيون اليه ، واشارات بالأنامل نحوه .

والبحتري كثير الولع بوصف هيبة الفتح والتفنن في ذلك ، وهو الى جانب هذه الصفات والهيبة والوقار ، يتحلى بصفات أخرى ، كاحتفاله بالاسراع الى طلب المعالي ، والعفو عن الجناة ، والعلم بتصريف الليالي ، والحلم في اوقاته المناسبة والشجاعة والبسالة ، والذود عن بني العباس والاخلاص لهم . وبعد هذا الاطراء يدلف الشاعر الى الدفاع عن نفسه ، فهو يقول للممدوح على الرغم من انعامه عليه وانتشاله اياه من وهدة الخصاصة ، واعتاقه له من ذلل المطامع فليس بالذي لا يستحق ذلك ، هذا وقد نافسته عصبة ما بين مقصرٍ ومنتحل ومدعٍ وانه اذا أجرى واياهم في مضمار الى غاية جاء سابقاً ، وجاءوا من بعده متخلفين ، وهو يطلب اليه ان لا يقرنه بامثال اولئك لتخلفهم عنه ، وقصورهم عن اللحاق به :

---

(١) الديوان ١/٤٤٥ - ٤٤٦ .

سيحمل همي عن قريب وهمتي ... قَرا كلّ ذيّال جُلال جلنفع
يناهبن أجواز الفيافي بأرجل ... عجال الى طيّ الفيافي واذرع
متى تبلغ الفتح بن خاقان لا تنخ ... بضنك ، ولا تفزع الى غير مفزع
حليف ندى ان سبل فاضت حياضه ... وذو كرم "الا" يسل يتبرع
تؤمل نعماه ، ويرجى نواله ... لعان ضريك او لعاف مدقّع
ويبتدر الراؤون منه اذا بدا ... سنا قمر من سُدّة الملك مطلع
اذا ما مشى بين الصفوف تقاصرت ... رؤوس الرجال عن طوال سميدع
يقومون من بعد اذا بصروا به ... لأبلج موفور الجلالة أروع
ويدعون بالاسماء مثنىّ وموحداً ... اذا حضروا باب الرواق المرفّع
اذا سار كفّ اللحظ عن كل منظر ... سواه ، وغضّ الصوت عن كل مسمع
فلست ترى الا افاضة شاخص ... اليه بعين ، او مشير باصبع
عليم بتصريف الليالي كأنه ... يعاني صروف الدهر من عهد تبع
حليم ثان يبل الجهول بحقده ... يبت جار رأس الحية المتطلع
امين بني العباس في سرّ أمرهم ... وعدتهم للخالع المتمنع
فما هو بالسهل الشكيمة دونهم ... ولا فيهم بالمُدهن المتصنع
مكاني من نعماك غير مؤخّر ... وحظي من جدواك غير مطيّع
فما انا بالمغضوض فيما أتيته ... اليّ ، ولا الموضوع في غير موضعي
وقد نافستني عصبة من مقصرّ ... ومنتحل ما لم يقله ومدّع
اذا ما ابتدرنا غاية جئت سابقاً ... وجاؤوا على آثار حسرى وظلّع
فلا تلحقن بي معشراً لم يؤملوا ... لحاقي ولم يجروا الى أمدمعي (١)

وظاهر ان هذه المدحة قوية الاسر جيدة النسج ، فخمة الالفاظ ، عالية الاسلوب ، وهي مع ذلك لا تكاد تخلو من التعمل والجنوح الى الغرابة أحياناً وربما جرى في ذلك حتى في الغزل الذي مهدّ به في مقدمتها . كما جهد الشاعر ان يكثر فيها من التقسيم الذي عرف به كقوله في الغزل :

(١) الديوان : ٢/١٢٣٨ ـ ١٢٤١ .

اسرّ بقــرب من ملمّ مسـلّم وأشجى بـبين من حبيب مودع

وقوله :

ومن لوعــة تعتادني اثر لوعــة ومن أدمع ترفضّ في أثر أدمع

تذكير بالوعد :

وهذه قصيدة أخرى تأنّق فيها ما شاء له التأنّق واحتفل ما شــاء له الاحتفال ، أشار فيها الى حنين ركابه التي بالعراق الى برد الشأم وريفه مما يدل على ان ذلك كان في ايام القيظ ـ كما حنت الى نهر الساجور في منبج ، وأشار الى مستقر الفتح وهي سامراء بقوله : « التي تهوى » وبقولـه : « عالية العراق » ثم دلف الى وصف الممدوح فأشاد باكرامه للضـيوف الذين كان هو في جملتهم ، كما ذكر ان أبواب الفتح قد تفتحت بالاذن له ، ورفعت الحجب الساترة عنه ، وهذا دليل مكانته منه ، وعنايته به ، ولعله في هذا يريد اخبارنا عن الفارق بين حالته هــذه وبين امتناع تلك الحجب عليه وصعوبة الاذن له بالدخول عـلى الفتح في ابّان محاولتــه الاتصال به[1] • وهو يعترف بعطف الفتح عليه ، وتتابع الوفه اليه ، حتى ارتفع بذلك قدره ، وسمت منزلته ، وانه ليحار في شكره ، لكثرة ما أسدى اليه ، ولعظم تشريفه له • ويستطرد الشــاعر في تعداد خلال الممدوح وشمائله وهي : الكرم والشجاعة والسداد وما الى ذلك ، حتى اذا قارب الانتهاء من مدحته ، تذكر وعد الفتح له بتقديمه الى الخليفة ، فذكره بذلك والتمس منه الوفاء به :

حنت ركابي بالعراق وشاقهــا في ناجر برد الشــآم وريفــه
ومدافع الساجور حيث تقابلت في ضفتيه : تلاعه وكهــوفه
ان لـم يريثنا الجواز عن التــي تهوى ويمنعنا النفوذ رفيفــه
او نائل الفتح بن خاقان الذي للمكرمات تليــده وطريفــه

---

(١) أنظر : ص ٨٢ من هذا البحث •

ملك بعاليـــة العراق قبـــابه ... يقرى البدور بها ونحن ضيوفه
لم ألقــه حتى لقيت عطـــاءه ... جزلاً ، وعرّفني الغنى معروفـه
فتفتحت بالاذن لـــي أبوابـــه ... وترفعت عني اليـــه سجوفـه
عطفت عليّ عنـاية من ودّه ... وتتابعت جملاً اليّ ألوفـــه
عـــالي المحـــل أنالني بنواله ... شرفاً أطلّ على النجوم منيفه
ايّ اليدين أجلّ عندي نعمـــة ... اغنـــاؤه ايّاي أم تشـــريفه
غيث تدفق واللجين رهـــامه ... فينا ، وليث والرماح غريفــه
قل للأمير وأيّ مجـــد ما التقت ... من فوق أبنية الامير سقوفه
أمّا السّماح فـــان اول خلّة ... زانته أنك صنوه وحليفـــه
لمّا لقيت بك الزمان تصدعت ... عن ساحتي أحداثه وصروفه
وأمنته ولو ان غـــيرك ضامن ... يوميه لم يؤمن عليّ مخوفـــه
فلئن جحدت عظيم ما أوليتني ... اني اذاً واهي الوفاء ضـعيفه
فهلمّ وعدك في الامـــام فانه ... فضل الى جدوى يديك تضيفه
وهو الخليفة ان أسر وعطاؤه ... خلفى ، فان نقيصـة تخليفه[1]

استحسان الفتح لشعره :

واذا كنا نجهل الكثير عن استحسان الفتح لما كان يسمعه من شعر البحتري فيه وما كان يقوم به حيانه من انشراح واهتمام واقبال ، وذلك لقلة ما تسرّب من الأخبار الينا في هذا الصدد ، فن لدينا خبراً يتعلق بهـــذه القصيدة وما انطوت عليه من المحاسن والمزايا ، وما كان لها من أثر كبير في نفس الممدوح وهذا الخبر رواه الصـــولي في اخبار البحتري قال فيه : « حدثني احمد بن يزيد المهلبي » عن ابيه قال : اني لعند الفتح اذ دخل البحتري فأنشده قصيدته :

شرخ الشباب أخو الصبا وأليفه ... فلما بلغ الى قوله :
ملك بعاليـــه العراق قبابـــه ... يقرى الضيوف بها ونحن ضيوفه

(١) الديوان : ١٤٢٢/٣ ـ ١٤٢٥ .

فلما بلغ الى قوله :   فهلم وعدك في الامام ...

رأيت الفتح قد اهتز وطرب لذلك ، فقلت : ايها الأمير ، حدثني اسحاق الموصلي قال : كنت أغنى محمد الأمين فيشرب ، وأنشده الشعر الحسن فيقول : وانا والله أطرب على حسن الشعر كما أطرب على حسن الغناء ! وما أحسبه أنشده أحد أحسن من هذا الشعر ، ولا فهم أحد به أتم من فهم الأمير ، فقد شكر الجدوى والاذن والجاه والانس ، وهذا جميع ما تمدح به الملوك ، فقال : هاتوا ارطالاً حتى نشرب على حسن الوصف ، فجيء بأرطال ، فأعاد البحتري الابيات ، فشربنا رطلاً رطلاً . ثم دعا لنا ببدرة ، فقال : اقتسماها بينكما الى ان أكلم أمير المؤمنين . ولما خرجنا قال البحتري : أحسن الله جزاءك يا أخي وابن عمي نقلت وأحسن الله عني جزاءك لما سقت الي »[1] .

نصيحة الفتح له بتليين شعره :

وفي أخبار البحتري للصولي خبر حدّث به البحتري نفسه ـ كما يقال ـ جاء فيه : « كنت أمدح المتوكل مقوّماً لفظي ، غير مرسل نفسي ، فقال لي الفتح ـ وكان والله ، ما علمت ، قوي الأدب ، حسن المعرفة بالشعر :ـ ليس بك حاجة في مدح أمير المؤمنين الى مثل هذا ، ليّن كلامك حتى يفهم ، فانه يلذ ما يفهم ، فعلمت انه نصحنى ، فمدحته بأشعارى التي منها :

لي حبيب قد لجّ في الهجر جدا   ومنها :

لم لا ترقّ لذل عبدك   ومنها :

عن ايّ ثغر تبتسم

فحظيت عنده ، وقربت من قلبه ، وتوفّرت على صلاته »[2] .

---

(١) اخبار البحتري ص ٧٩ ـ ٨١ .

(٢) نفسه ص ٨٦ ـ ٨٧ .

فالخبر يشير - كما ترى - الى ان البحتري كان يقوّم لفظه ، ويرتفع بشعره الى مستوى يصعب فهمه على المتوكل ، وقد لمح الفتح ذلك فأشار عليه بترقيقه وتليينه ليفهمه المتوكل ، ومن ثمّ ليلذ فهمه له ، ومعنى هذا ان اقتراح الفتح منصب على قصائد الشاعر في المتوكل فحسب • ولعل استدراك البحتري وقوله في الفتح (وكان والله ، ما علمت ، قوى الادب ، حسن المعرفة بالشعر) دليل على هذا • بيد اننا حين نرجع الى قصائد البحتري في الفتح نجد له قصيدتين : احداهما ترجع - كما يرى الشارح - الى سنة ٢٣٤ هـ ، اي قبل اتصال الشاعر بالمتوكل ، وهي التي مطلعها :

فؤادي منك ملآن وسرّي فيك اعلان

وثانيتهما تعود الى سنة ٢٣٧ هـ ، كما يقال ، اي بعد اتصاله بالمتوكل بسنتين وهي التي طالعها :

مني وصل ومنك هجر وفيّ ذلّ ، وفيك كبر

وإذا صح تاريخ القصيدة الاولى ، أو لايعنى هذا ان الشاعر قد لمس من فتحه الميل الى التسهيل ، والرغبة في التليين والترقيق ، فحاول ذلك في هذه القصيدة ، وحين رأى اعجاب الفتح بهذا اللون أكثر منه بعد ذلك وبخاصة عند اتصاله بالمتوكل ! ولعل الذي يرجح هذا ان للبحتري قصيدة أخرى ترجع - كما يرى شارح الديوان الى سنة ٢٣٢ هـ في كاتب الفتح هذا ، نحا فيها منحى هذه السهولة والليونة ، مما يحمل على الظن انها كانت ترشيحاً لقصائده اللينة - اذا صح التعبير - فيما بعد[1] •

أما اذا صح الخبر الذي روى عن البحتري في ترقيق شعره وتليينه وانه كان بعد اتصاله بالمتوكل ، فمعنى هذا ان التأريخ الذي رجحه الشارح لقصيدته النونية غير صحيح ! وينبغي ان تكون ضمن القصائد التي نظمت بعد نصح الفتح له • فالقصيدة الاولى هي :

---

(١) أنظر : ص ٧٦ •

فؤادي منـــك مـلآن وسرّي فيـك اعـلان
وانت الحسن ، لو كا ن وراء الحسن احسان
غزال فيــه اعراض وابعـــاد وهجـران
ودون النجح من موعـو ده مطـــل وليّـــان
سقاني كأســـه شزراً وولّى وهـــو غضبان
وفي للقهـوة أشـكال من الســاقي وألوان
حباب مثـــل ما أسكـ ـــر طرف منه وسنان
وطعم الريق اذ جاد به والصبّ هيمـــان
لنـــا من كفّه راح ومـن ريّاه ريحـــان

* * *

كفى الفتح بن خاقان الـ ـذي شيّد خاقان
عـــلاً يشبهها قدس اذا أرســـى وثهـلان
فللحاســـد اغضـــاء اذا عدّت واذعـان
أبى لي الفتح أن أحفل بالاعـــداء من كانوا
فمـــا أرهب ان عزّوا ولا أبهـــج ان هـــانوا
وأعداني عـــلى الأيـ ـام ماضي العزم يقظان
لـــه في وفره هـدْم وفي علياه بنيـــان
صحا واهتـــز للمعرو ف حتى قيل : نشوان
لـــك النعماء والطول وافضـــال واحســـان
وأخـــلاقك أنصـــار على الدهـــر وأعوان
وأموالك للحمـــد الـ ـذي يؤثر أثمـــان(١)

والقصيدة بعامتها ـ كما ترى ـ واضحة السهولة ، سواء في ألفاظها أو معانيها ، حتى ليخيل الى القارىء انها لا تتطلب جهداً كبيراً في محاكاتها

(١) الديوان : ٤/٢٢٤٣ ـ ٢٢٤٥ .

والنسج على غرارها ، ومن اجل هذا نرى الجرجاني يقول : « لا يمكن ادعاء ان جميع شعره (اي البحترى) في قلة الحاجة الى الفكر ، والغنى عن فضل النظر ، كقوله :

فؤادي منك ملآن ... وسرّي فيك اعلان »(١)

اما القصيدة الثانية فهي :

مني وصل ، ومنك هجر ... وفيّ ذلّ ، وفيك كبر
وما سواء اذا التقينا ... سهل على خلّة ووعر
اني – وان لم أبح بوجدي – ... أسرُّ فيك الذي أسرّ
يا ظالماً لي بغير جرم ... اليك من ظلمك المفرّ
قد كنت حراً وانت عبد ... فصرت عبداً وانت حرّ
برّح بي حبّك المعنّى ... وغرّني منك ما يغرّ
أنت نعيمي وانت بؤسي ... في ظلها والزمان نضر
غاب دجاها ، وايّ ليل ... يدجو علينا وأنت بدر ؟
تمزج لي ريقة بخمر ... كلا الرضابين منك خمر
لعله ان يعود عيش ... كما بدا ، او يُديل دهر

* * *

افضال فتح عليّ جمّ ... ونيْل فتح لديّ غمر
المنعم المفضل المرجّى ... والأبلج الأزهر الأغرّ
اذا تعاطى الرجال مجداً ... بذّهم سبقه المبرّ
هم ثماد وانت بحر ... وهم ظلام ، وانت فجر
اني وان كنت ذا وفاء ... لا يتخطّى اليّ غدر
لذاكر منك فضل نعمى ... وستْرُ نعمى الكريم كفر
وكيف شكريك عن سواء ... وما يداني نداك شكر

---

(١) أنظر : اخبار البحتري ص ٨٦ حاشية (٣) .

عذر وحسب الكريم ذنباً اتيانه الأمر فيه عذر[1]

وواضح ان هذه القصيدة هي الأخرى من السهولة والليونة في الفاظها ومعانيها بحيث لا تحتاج الى تبيان ذلك وشرحه ، بل يخيل الينا انها اكثر سهولة وليونة من القصيدة السابقة ، ويبدو ان البحتري قد عمد الى التزام المطابقة في جل ابياتها ، حتى ليمكن القول انها اكثر قصائده في هذا الالتزام ، ولا نعتقد ان من الصعوبة مجاراة قوله :

منّي وصل ومنك هجر وفي ذلّ وفيك كبر

وكذلك باقي ابيات القصيدة .

اعتلال الفتح :

غير ان البحتري ـ لحسن الحظ ـ لم يوال انتهاج هذه الطريقة . واكبر الظن انه رأى فيها خروجاً على طبعه ، وتبذلاً لموهبته ، واجحافاً بعبقريته ، وتطويحاً بسمعته فحاد عنها وآب الى منهجه القويم وطبعه السوى ، فدخل على الفتح بقصيدة في اعقاب القصيدة السابقة وذلك في سنة ٢٣٩ هـ ـ كما يقال ـ يمدحه فيها ويشير الى علّة انتابته وكادت تودى به .

والقصيدة تمثل طابع شعر البحتري العام الذي مرّ الشيء الكثير منه في قصائده السابقة ، غير اللينة او المرققة . وهي تبدأ بالغزل التقليدي على عادة الشاعر في عموم قريضه ، ثم انتقل الى الغرض المقصود ، فاذا الممدوح قد احيى ـ بجوده ـ موات الكرم ، واذا هو في مدارج العلياء منقطع القرين ، مفتقد العديل ، له من تقريب الخلفاء واحتفالهم به ما ليس لغيره ، وهو اخ في الجود يهتزله حتى ليبدو ذلك في تألق وجهه الذي يشبه تألق اشعة الشمس في متن المهند الصقيل ، وبالطبع فان شخصاً كهذا ، حين يعتل فان المعالي تشرف على شفا خطر مهول ، وان الناس من حزنهم عليه ما بين مرفضّ الدموع ، ومضطرم الحشا ، وانه من العجب ان تجتبي النوائب

---

(١) الديوان ٢/١٠٥٠ ـ ١٠٥١ .

أفاضل الناس وخيارهم ، وتتخطى ذوي الخمول والأقدار الضئيلة • ويبدو ان العلة كانت مستفحلة وخطيرة ، حتى لتجد آثارها في قلق الناس وعويلهم واضطرابهم ، وما ذلك الا لفزعهم ان يذهب بذهابه الفضل المرجّى ، والمجد الأثيل ، ولكن دفاع الله عنه ، وصنعه فيه ازالا ما علق في الاذهان من أفكار ، واختلج في الصدور من آلام ، فكان في شفائه فرحة للمسلمين وتهنئة لهم في كل ثغر وصقع :

زكت بالفتح أحداث المساعي ... وأوضح دارس الكرم المحيل
بمنقطع القرين اذا ترقّى ... ذرى العلياء مفتقد العديل
رحيب الباع يرفع منكباه ... فضول الدرع عنه والشليل
ويحكم في ذخائره نداه ... كما حكم العزيز على الذليل
اخ للمكرمات يُعدّ فيها ... له فضل الشقيق على الحميل
خلائق كالغيوث تفيض منها ... مواهب مثل جمّات السيول
ووجه رقّ ماء الجود فيه ... على العرنين والخدّ الأسيل
يريك تألّق المعروف فيه ... شعاع الشمس في السيف الصقيل

* * *

ولما اعتلّ أصبحت المعالي ... محبّسة على خطر مهول
فكائن فضّ من دمع غزير ... وأضرم من جوى كمد دخيل
ألم تر للنوائب كيف تسمو ... الى أهل النوافل والفضول
وكيف تروم ذا الفضل المرجّى ... وتخطو صاحب القدر الضئيل ؟
كفاك الله ما تخشى ، وغطّى ... عليك بظل نعمته الظليل
فلم ار مثل علتك استفاضت ... باعلان الصبابة والعويل
وكم بدأت وثنت من مبيت ... على مضض ، وجافت من مقيل
وقد كان الصحيح أشدّ شكوى ... غداتئذ من الدنف العليل
محاذرة على الفضل المرجّى ... واشفاقاً على المجد الأثيل
ليهن المسلمين بكل ثغر ... سلامة رأيك الثبت الأصيل

وصـــحتك التي قامت لديهـــم مقام الفوز بالعمـــر الطـــويل
تعـــافى في الكثير وانت باق لنا أبداً ، وتوعظ بالقليل[1]

والبحتري ـ كما ترى ـ قد أجاد في الكثير من اجزاء هذه القصيدة سواء في وصف شمائل الممدوح ، او في تصـــوير ما انتاب الناس من قلق واضطراب في اعتلال رجل كريم له اياد يفض عليه وعلى غيره .

وساطة الفتح في نزاع بني تغلب :

وحدث نزاع عنيف بين قبائل تغلب جرّ الى صدام ومعارك داميـــة بينها ، ويبدو ان هذا الصراع الدموي بين هذه القبائل لم يجد له مكاناً في كتب التأريخ والمراجع الاخرى سوى ما ذكره البحتري في شعره ، ويبدو كذلك ان هذا الصراع نشأ قبل شق اهل حمص عصا الطاعة على الخلافة كما سيأتي في سنة ٢٤١ هـ وعلى هذا فمن المرجح از هذه القصيدة تدور في فلك سنة ٢٣٩ هـ لا في سنة ٢٤٣ هـ التي يحددها شـــارح الديوان ، والذي يدعونا الى هذا هو اشارة البحتري الى يد الفتح في فض هذا النزاع، فقال من قصيدة يمدحه بها لتدخلـــه في حوادث حمص وتوسـطه لدى الخليفـــة :

رددت الردى عن أهل حمص وقد بدا لهم جانب اليوم العبوس العصبصب
فكانت يداً بيضاء مثـــل اليد التي نعشت بها عمرو بن غنم بن تغلب[2]

وقال من أخرى في مدحه ايضاً :

توالت أياديه على النـــاس فاكتفى بهـــا كلّ حيّ من شآم ومعرق
فكم حقنت في تغلب الغلب من دم مباح ، وأدنت من شتيت مفرّق[3]

لقد صوّر البحتري في هذه المدحة تصويراً مؤثراً الحرب التي نشبت بين هذه القبائل ، كما وصف الوفود التي أمت الحاضرة ، شـاكرة للفتح صنيعه الذي أسداه لهم بتدخله في هذا الصراع المؤلم .

---

(١) الديوان : ٣/١٧٣٧ ـ ١٧٤٠ .

(٢) أنظر : ص ١٢٩ . (٣) أنظر : ص ١٣١ .

وأفتتح المدحة بالغزل الذي حمل في بعضه على الغواني اللائى أخذن يصدفن عنه ، لو خط الشيب شعره ، ولاكتمال عقله ، ثم التفت الى بني تغلب فتحسر على ما أصاب ديارهم من نكبات حتى كادت ان تخلو من سكانها ، فهذه بلد وسنجار والمحلبية وماردين قد مشى فيها الدمار ، وحلّ فيها الخراب من جراء هذا الصراع الدموي ، فهو يألم من تجدّد القتال بينهم في كل آن ، لانه يجرّ الى فنائهم والقضاء عليهم ، وليس عملهم هذا الا كعمل من تأخذه العزّة بالاثم ، ثم يصور الصدام بين المتنازعين فيقول : اذا ما تلاقوا في ساحات الوغى تحاجزوا ، وكان الموت هو القاسم العادل بينهم ، كما كانت الحرب سجالاً بينهما ، وهم متكافئون في الشجاعة والبسالة والاقدام ، لانهم أخوة تربطهم وشائج الرحم والقربى ، وتزجيهم الى هذا الشجار السيوف المرهفة ، والجياد الضامرة ، والأحساب الزاكية ، وان الموت ليرى واضحاً حين يلتقي الجمعان ، وحين ترى فوارسهم وقد ترجلوا فالتحموا مع بعضهم في مأزق ضنك ، يصرعهم الطعن الدراك ، ويعمهم صوت الضراب حتى اذا دبّ الفزع في قلوب الأغمار من الفتيان لهول ما يرونه ، ردّهم الى تحمل لمكروه ، وخوض المعامع ، الكهول الشيب ، وبعد هذا الوصف المؤثر حقاً ، والجميل ايضاً ، يشير البحتري الى صفح الخليفة المتوكل عن هذه القبائل المتناحرة ، ويشير أيضاً الى ان الذي لعب دوراً كبيراً في فض هذا النزع هو الفتح بن خاقان • فكان أثره فيهم اثر الغيث في الارض الموات ، ولولاه لذهبت دماؤهم هدراً ، وقد تلافى ما وقع بينهم في موعده ولو تأخر عن ذلك لأفنى بعضهم بعضاً • ويبدو ان هذه القبائل المتقاتلة رأت ــ بعد ان مشى الفتح بينها بالسلام والقضاء على ما بينهم من الترة والعداء ــ ان تشكر الفتح لمسعاه السلمي بينهم ، فأرسلت وفوداً عنها اليه ، وصفها البحتري بانها وفود الشكر ، جاءت لتثني على عمل الممدوح ازاءها ، ثم راح يصف هيبة المدوح وخشوع الوفود واخباتها وهي تسير الى المكان المحدد لها ، فهذه الوفود ما كادت ترى الفتح حتى

قصرت من خطواتها هيبة لــه واجلالاً ، ثم تهافتت على تقبيل يده عرفاناً بالجهيل وشكراناً ، واذا حاولوا القاء خطبة ، حالت جلالته ووقاره دون ذلك ، حتى لتكاد تحسب في أبصارها ـ وقد تكسّوها هيبة له ـ ضرباً من الحول والانحراف ، وكان الممدوح يجمع بين القوة والفصـاحة والرأي الحصيف ، واستطاع بكل ذلك ان يستل من صــــدورهم ما علق بها من موجدة وضغينة . ويفشى بينهم السلام والوئام والاخاء ، ثم أولمَ لهم ليزيل ما في نفوسهم من غلّ ، وما في قلوبهم من سخيمة ، وخلع عليهم ليبعث فيهم الطمأنينة والشعور بالرضـا والاحترام ، وبهـذا فقد رأب صدعهم ، ولم شملهم ، وبعث فيهم حياة جديدة ، سيظلون يشيدون بصاحبها عـلى مدى الأيام والأحقاب .

والحق ان القصيدة من النمط العالي ، ويبدو ان البحتري قد نسج على غرارها حين امتدح المتوكل في سنة ٢٤١ هـ بمناسبة الفداء بين الروم والمسلمين ، وحين تطرق الى وصف وفد الروم الذي قدم الى سامراء في تلك الآونة(١) :

ضمان على عينيــك انني لا أسلو ... وان فؤادي من جوى بك لا يخلو
عدمت الغواني كيف يعطين للصبا ... محـــاسن أسماء يخالفها الفعـل
فنعـم ولم تنعـم بنيل نعـدّه ... وجمُل ولم تجمل بعارفة جمل
عقلت فودعت التصابي ، وانما ... تصرّم لهو المرء أن يكمل العقل

* * *

بني تغلب ! أعزز عليّ بأن أرى ... دياركم أمست وليس لها أهل
خلت بلد من ساكنيها واوحشت ... مرابع من سنجار يهمى بها الوبل
وأزعج اهل المحلبيات ناجــز ... من الحرب ما فيه خداع ولا هزل
أفي كل يوم فرقة من جميعكـم ... تبيد ، ودار من مجامعكم تخلـو
مصارع بغي تابع الظلـم بينهـا ... بساعة عـزّ كان آخـره الذل

(١) انظر : الوفد الرومي في سامراء في الفصل الثالث .

اذا ما التقوا يوم الهياج تحاجزوا ... وللموت فيما بينهم قسمة عــدل
غدوا عصبتي ورد سجالهما الردى ... ففي هذه سجل وفي هذه سجــل
كفيّ من الأحيـاء لاقى كفيّـه ... ومثل من الأقوام زاحفه مثــل
اذا ما أخ جرّ الرماح انبرى له ... أخ لا بليد في الطعان ولا وغــل
تحثهـم البيض الرقاق وضمّر ... عتاق ، واحساب بها يدرك التبـل
وما الموت الا أن تشاهد ســاعة ... فوارسهم في مأزق وهم رجــل
بطعــن يكبّ الدار عين دراكه ... وضرب كما ترغو المخزّمة البزل
يهال الغلام الغمر حتى يردّه ... على الهول من مكروهها الاشيب الكهل

* * *

تجافى أمير المؤمنين عن التي ... أتيتم ، وللجانين في مثلها النكـل
وعاد عليكم منعماً بفواضــل ... أتت وأمير المؤمنين لها أهــل
وكانت يد الفتح بن خاقان عندكم ... يد الغيث عند الارض حرّقها المحل
ولولاه طلّت بالعقــوق دماؤكـم ... فلا قود يعطى الا ذلّ ولا عقـل

* * *

أتوك وفــود الشكر يثنون بالذي ... تقــدم من نعماك عندهم قبــل
فلم أرَ يومــاً كان أكثر سؤدداً ... من اليوم ضمتهم الى بابك السبل
تراءوك من أقصى السماط فقصّروا ... خطاهم وقد جازوا الستور وهم عجل
فلما قضوا صدر السماك تهافتوا ... عــلى يد بسّام ســجيته البـذل
اذا شرعوا في خطبــة قطعتهــم ... جلالة طلق الوجه جانبه سهــل
اذا نكسوا أبصارهم من مهــابة ... ومالوا بلحظ ، خلت انهم قبــل
نصبت لهم طرفاً حديداً ومنطقاً ... سديداً ، ورأياً مثل ما انتضي النصل
وسلّ سخيمات الصدور فعالك الـ ... جميل ، وأبرا غلّها قولك الفصل
فمـا برحوا حتى تعاطت أكفهــم ... قراك فلا ضغن لديهم ولا ذحـل
وجرّوا برود العصب تضفو ذيولها ... عطاء جواد ما تكاءده البخــل (١)

---

(١) الديوان : ٣/١٦١٥ - ١٦٢١ .

عصيان أهل حمص :

وفي جمادى الآخرة من سنة ٢٤٠ هـ وثب اهل حمص بعاملهم على المعونة ، وهو ابو المغيث الرافعي موسى بن ابراهيم لقتله رجلاً من رؤسائهم، فقتلوا جماعة من أصحابه ، ثم أخرجوه وأخرجوا صاحب الخراج من مدينتهم ، فبلغ ذلك المتوكل ، فوجه اليهم عتاب بن عتاب ، ووجه معه محمد ابن عبدويه الأنباري ، وأخبرهم ان الخليفة أمر ان يحل محمد بن عبدويه محل أبي المغيث ، فان سمعوا وأطاعوا ورضوا فبها ، وإلا ارسل اليهم من يحاربهم ويقضي على فتنتهم ، فرضوا بابن عبدويه هذا ، ولكنهم ما لبثوا ان وثبوا مرة أخرى في جمادى الآخرة من سنة ٢٤١ هـ بعاملهم الجديد بمعاونة قوم من نصارى هذه المدينة ، فأرسل المتوكل جيشاً من دمشق والرملة ، وأمر عامله أن يأخذ ثلاثة من رؤسائهم فيضربهم بالسياط ضرب التلف ، فاذا ماتوا صلبوا على ابوابهم وان يأخذ عشرين آخرين فيضرب كل واحد منهم ثلثمائة سوط ، ويرسلهم مكبلين الى سامراء ، فاصاع لأمره وفعل ما أراد .

ويبدو ان الفتح قد توسط لدى الخليفة في أمر أهل هذه المدينة مما حمل البحتري على شكر صنيعه هذا في القصيدة التالية . ويبدو ايضاً ان البحتري قد تفرّد بتسجيل توسط الفتح في هذه الحادثة اذ لم تشر اليها ـ فيما نظن ـ المصادر الأخرى ولا سيما التأريخية منها .

والشاعر بعد التمهيد التقليدي يرى ان الفتح هو نهاية آماله ، وغاية مطلبه وانه الفتى المجبول على الكرم ، الفارع الطول ، الذي تغض الابصار اذا ما بدا هيبة له وتبجيلاً . والبحتري ـ كما قلنا اكثر من مرة ـ مشغوف بوقار الممدوح وهيبته ، ولهذا فهو ما يفتأ يكرر في مدائحه وصف هذه الهيبة والتمدح بها والاعجاب بصاحبها ، ويسترسل الشاعر في اطراء صفات الفتح الذهنية والخلقية ، فهو طود الخلافة ، وحسام الخليفة ، ذو فكر ثاقب ، ورأي حصيف ، ما يكاد ينظر في امر من الامور حتى ترافد

ه افكار في حل ّ ما غمض وعوص ، وهو كذلك متحفظ متأن ٍ في معالجة الأحداث ، لا تظهر عليه أمارات الاضطراب ، ولا تبدو سيماء التسرع يزين كل هذه الصفات أخلاق رائعة هي الروض المجود ، وقد أعجبت الناظر المتأمل ، وحيرت السامع المتعجب ، وزاد من حسنها وبروزها مجاورتها لنقيضها من الأخلاق ، فهي كالكواكب التي لا يظهر جمالها ولمعانها الا ّ في غياهب الليالي ودياجيها .

وبعد هذا التمهيد الطويل والاشادة بشمائل الفتح وخلاله ، ينتقل الشاعر الى أهل حمص ، فيخاطبهم بأن شملهم قد لم ّ بعد التفرق ، وبعد ان كانوا ما بين طريد مشر ّد ، وثاو ٍ رد ٍ ، وخائب مترقب ، ومصلّب على الجذوع ، وينبئهم بان الفضل في هذا يرجع الى الفتح الذي أخذ على نفسه اقالتهم من عثرتهم واغاثة ملهوفهم ، وتأمين خائفهم ، والصفح عن مذنبهم ، وبعث الطمأنينة في نفوسهم بعد ان أشرفوا على يوم عبوس عصيب .

ويبدو ان الشاعر وجد في وساطة الفتح وانقاذه لأهل حمص عملاً عظيماً جداً ، ولعل هذا راجع الى عصبية البحتري ، لان الواثبين كانوا من أهل حمص في الشام ، ولهذا فهو يشكره عن (قومه العرب) وعن قوم الفتح (الاتراك) ، وانه ـ اى الشاعر ـ لسان هذين القومين في كل مكان ، ثم هو بعد ذلك عبده الذي استرقه بنعمته ، وطو ّقه بعوارفه ، وبلغ به أقصى الغايات وأرفع درجات المجد :

لعل وجيف العيس في غلس الدجى ... وطي ّ المطايا سبسباً بعد سبسب
يبلغني الفتح بن خاقان انه ... نهاية آمالي ، وغاية مطلبي
فتى لا يرى أكرومة لمزند ٍ ... اذا ما بدا اكرومة لم يعقب
ومستشرف بين السماطين مشرف ... على أعين الرائين يعلو فيرتبى
يغضون فضل اللحظ من حيث ما بدا ... لهم عن مهيب في الصدور محبب
اذا عرضوا في حد ّة نفرت بهم ... بسالة مشبوح الذراعين أغلب
غدا وهو طود للخلافة مائل ... وحد ّ حسام للخليفة مقضب

اذا انساب في تدبير أمر ترادفت … له فكر ينجحن في كل مطلب
خفيّ مدبّ الكيد تثني أناته … تسرّع جهل الطائش المتوثب
ويبدي الرضا في حالة السخط للعدى … وقور متى يقدح بزنديه يُثقب
غرائب أخلاق هي الروض جاده … مُلثّ العزالى ، ذورباب وهيدب
فكم عجبت من ناظر متأمل … وكم حيّرت من سامع متعجب
أرى شملكم يا أهل حمص مجمّعاً … بعقب افتراق منكم وتشعّب
وكنتم شعاعاً من طريد مشرّدٍ … وثاوٍ رد او خائفٍ مترقبِ
ومن نفر فوق الجذوع كأنهم … اذ الشمس لاحتهم حرابى تنضب
تلافاكم الفتح بن خاقان بعدما … تدهدهتم من حالق متصوّب
بعارفة أهدت أماناً لخائف … وغوثاً للملهوف ، وعفواً لمذنب
رددت الردى عن أهل حمص وقد بدا … لهم جانب اليوم العبوس العصبصب
رفدتهم عند السرير وقد هوى … بهم ما هوى من سخط أسوان مغضب
وكانت يداً بيضاء مثل اليد التي … نعشت بها عمرو بن غنم بن تغلب
شكرتك عن قومي وقومك انني … لسانهما في كل شرق ومغرب
وما انا الا عبد نعمتك التي … نسبت اليها دون رهطي ومنصبي (١)

مقاصير الفتح :

ويظهر ان اهل حمص كانوا يكثرون الخلاف وشقّ عصا الطاعة على الخلافة وانهم عاودوا العصيان مرة أخرى في سنة ٢٤٤هـ(٢) ، وفي خلافة المتوكل أيضا ، ويبدو ان الفتح قد توسط ـ كما فعل ذلك قبلا ـ لدى الخليفة الذي اوشك ان يوعز لجيوشه بالزحف عليهم ـ بالصفح عنهم ـ فقدم الشاعر بهذه المدحة يشكره فيها ويشيد بآلائه وأفضاله عليه وعلى أهل حمص .

---

(١) الديوان ١/١٩١ ـ ١٩٥ .
(٢) أنظر الديوان ٣/١٥٠٨ الحاشية .

وبعد التمهيد الغزلي الذي يشير جزء منه الى قطع الشاعر مرحلة الشباب ، وغزو المشيب لمته ، ينتقل الى الغرض المقصود ، فيخبرنا بتلفته وهو في أعالى دمشق وقد تراءت له هضاب لبنان كأنها السحب المعلقة في أجواز الفضاء الى الحيرة البيضاء والكرخ ، وهما في العراق ، بعد ان ضجر من المقام بين بصرى ودمشق وهما في الشام ، تلفت الى ملجأ عزه ، ومستقر اقامته ، ومقصد هواه وشوقه ، وهو يريد بالكرخ هنا كرخ فيروز الذي فيه قصر الممدوح[1] ، والذي وصف مقاصيره المطلة على دجلة وقد حفت بالرياض الحو ، وازدانت بأفانين الزهر ، وتضوعت بأريج الانسام ، وبدت القباب البيض والشمس تضاحكها أشبه بانصاف من البيض المفلق ، ولاحت الشرفات الممتدة في الفضاء كقوادم الحمام الابيض المحلق ، وهذه المقاصير الموصوفة هي منازل الممدوح ، التي هي ملجأ المحتاجين ، وملاذ المكروبين ، يحلها كريم يجمع بين سخاء الكف ، وطلاقة المحيا ، وقد عمت جدواه ، وعطاياه الشام والعراق ، وشملت فضائله ومعارفه قبيلة تغلب ، فحقن دمها المباح ، ولم شعثها المفرق ، ولعله يشير هنا الى وساطة الفتح في القصيدة السابقة ، كما طوق بمنة عنق حمص واهلها بعد أن أشرفوا على الموت ، فاوقف زحوف الجيوش ، وأغمد سيوف الموت ، ولولاه لكانوا مزعاً بأشفار الصوارم ، ومزقاً بأطراف العوالي ، فوجب لهذا شكره والاعتراف بفضله وجميله ، وهو خليق بهذا العمل ، جدير بالقيام به ، وكيف لا ؟ وهو المرتقي ذر العلا طبعاً لا تطبعاً ، والمشرف على اعدائه من كل ناحية ، وهو مخلص لمواليه من بني العباس متفان في الذود عنهم وعن خلافتهم ، ولهذا كله فهو — أي الشاعر — يشكره ويعترف له بفضله ونعمته عليه ، وليس له ما يقدمه في هذا سوى ود صدره وشعره :

---

(١) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٨٤ .

أجدك ما وصل الغواني بمطمـع ولا القلب من رقّ الغواني بمعتق
وددت بياض السيف يوم لقيتني مكان بياض الشيب كـان بمفرقي
وصد الغواني عنـد ايماض لمتني وقصرن عن ليلك ساعة منطقـي

* * *

تلفت من عليا دمشـق ودوننـا للبنان هضب كالغمـام المعلّق
الى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدمـا ذممت مُقامي بين بصرى' وجلّق
الى معقـلي عزي وداري° اقامتي وقصد التفاتي في الهوى وتشوّقي
مقاصير ملك أقبلت بوجوههـا الى منظـر من عرض دجلة مونق
كأن الرياض الحو يكسين حولها أفانين من أفـواف وشي ملفـّق
اذا الريح هزت نورهن تضوعت روائحـه من فأرمسك مفـتّق
كأن القباب البيض والشمس طلقة تضاحكها ، أصـاف بيض مفلّق
ومن شرفـات في السماء كأنهـا قوادم بيضـان الحمـام المحلّق
رباع من الفتح بن خاقان لم تزل غنى لعديم ، او فكاكاً لموثق
يحل بها خرْق كأن عطاءه تلاحق سيل الديمـة المتخرّق
توالت أياديه على النـاس فاكتفى بها كل حيّ من شآم ومعرق

* * *

فكم حقنت في تغلب الغلب من دم مباح ، وأدنت من شتيت مفرّق
وكم نفّست في حمص عن متأسف غـدا الموت مه آخذاً بالمخنّق
وقد قطعت ارض (الارند) اليهم كتـائب تزجى فيلقاً بعـد فيلق
به استأنفوا برد الحيـاة وأسندوا الى ظـلّ فينان من العيش مورق
فشكراً بنى كهلان للمنعـم الذي أتاح لكم رأى الامـام الموفّق
ثنى عنكم زحف الخلافة بعدمـا أضاءت بروق العـارض المتألّق
وقد شهرت بيض السيوف واعرضت صدور المذاكى من كميت وأبلق

هنـــالك لو لم يفتلتكم حملتـــم ... على مثل صدر اللهذمي المذلّق[1]
فـــلا تكفرن الفتح آلاء منعـــم ... نجوتم بها من لا حج القطر ضيّق
له خلق في الجـــود لا يستطيعه ... رجـال يرومون العـــلا بالتخلّق
اعـــين بنو العباس منـــه بصارم ... جراز وعزم كالشهاب المحرّق[2]
وصدر أمين الغيب يهدى اليهم ... نصيحة حرّان الجوانح مشفق
رأيتك من يطلب محلك ينصرف ... ذميماً ، ومن يطلب بسعيك يلحق
لك الفضـــل والنعمى عليّ مبينّة ... ومالي الاّ ودّ صدري ومنطقي[3]

حسام الخليفة :

وهذه مدحة لم تؤرخ وأكبر الظن انها جاءت في اعقاب القصيدة الماضية ، وقد أشاد فيها بخلال الفتح وصفاته على النسق الذي مرّ في أكثر قصيده ، فممدوحة تجشّم خطة من المجد ليس بوســـع ســـواه الاضطلاع بها ، ولا بمقدور المقتدى ان ينهض باعبائها ، والمكارم ملازمة له ، تحلّ حيث يحلّ ، وتجدها حيث تجده ، وليست هذه الاخـلاق سوى مواهب ، يرزقها بعضهم ، ويحرمها بعض آخر ، وهو حمّال أعباء المعالي ، نهّاض باثقالها ، لا ينوء كاهله بها ، وهو حسام الخليفة المداوي لأدواء المخالفين له والخارجين عليه ، جامع بين التأني في النظر الى الامور ، وبين الاسراع في امضاء العزيمة ، وهو ربيب خلائف راشدين مقوّمين ، تعهدوه بالتثقيف والتدريب والتعليم حتى عاد كالسيف الابيض القاطـع الذي ترادفت عليه القيون صقلاً وجلاء . والشاعر ما يكاد يفرغ من نعت حتى يعود الى آخر يسنده الى الممدوح ، فهو أيضاً مدبّر ملك ، وظلاّم اعداء ، ووقور شجاع ، ومستهلك للمكرمات ، مستنفد لها ، ولا سبيل الى

---

(١) افتلت الشيء : أخذه بسرعة . اللهذمي : الحاد القاطع من السيوف والاسنة . المذلّق : المحدد الطرف .
(٢) الجراز : السيف القاطع .
(٣) الديوان ٣/١٥٠٩ ــ ١٩١٢ .

مجاراة أحد له في هذا الشأن وهو أي الشاعر لا يزفّ قصائده الغرّ الا لمستحقها والكفء لها ، وهل هناك غير الفتح :

لقد جشم الفتح بن خاقان خطة — من المجد ما يسطيعها المتجشّم
يبيت المضاهي فاتر الطرف دونها — ويعجز عنها المقتدى المتعلم
متى تلقه تلقَ المكارم والندى — وبعضهم في الفرط والحين يكرم(١)
وما هذه الاخلاق الا مواهب — والاّ حظوظ في الرجال تقسّم
تحمّل أعباء المعالي بأسرها — اذا حطّ منها مغرم عاد مغرم
حسام أمير المؤمنين الذي به — يعالج أدواء الاعادي فتحسم
وما هزّه الاّ تقرّر عنده — قرار اليقين ايّ سيفيه أصرم
أمدّ الرجال لبثة حين يرتأي — وأسرعهم امضاءة حين يعزم
بتسديده تلغى الامور وتجتبى — وتنقض أسباب الخطوب وتبرم
ربا في حجور الملك يغريه بالحجى — خلائف منهم : مرشد ومقوّم
فآضَ كما آضَ الحسام ترادفت — عليه القيون فهو أبيض مخذم
مدبّر ملك ، ايّ رأييه صارعوا — به الخطب ردّ الخطب يدمي ويكلم
وظلاّم أعداء اذا بدىء اعتدى — بموجزة ترفضّ من وقعها الدم(٢)
وقور يردّ العفو فرط شذاته — وفي القوم أشتات : مليم ومجرم(٣)
ارى المكرمات استهلكت في معاشر — وبادت كما بادت جديس وجرهم
أراحوا مطاياهم فلا الحمد يبتغى — ولا المجد يستبقى ، ولا المال يهضم

* * *

اليك القوافي نازعات قواصداً — يسيّر ضاحي وشيها وينمنم(٤)
ومشرقة في النظم غرّاً يزيدها — بهاء وحسناً أنها لك تنظم

---

(١) الفرط : الحين .

(٢) يرفضّ : يسيل . الموجزة : الطعنة السريعة اخراج الدم .

(٣) الشذاة : الاذى والشر .

(٤) نازعات : مشتاقات . يسيّر : يجعل كوشي السيراء : وهي ضرب من الحلل مخططة أو يخالطها حرير .

ضوامن للحاجات اما شـــوافعاً   مشـفّعة او حاكمـات تحكّم[1]

والحق ان البحتري - على الرغم - من تكراره للصفات والمعاني ، فان احتفاله بالالفاظ والتصوير والتقسيم والتشبيه قد أسبغ على الكثير مما أتى به حلّة قشيبة ، وصورة رائعة زاخرة بالالوان والاصباغ ، ومن أجل هذا فاننا قد لا نبعد كثيراً عن الصواب ، اذا ما زعمنا ان البحتري يعد في هذا نسيج وحده من بين شعراء العربية ، فهـــو على الرغم من تكراره لوصف هيبة الفتح ووقاره ورزانته وطوله وما الى ذلك ، فانه ما يكاد يتناول هذا الجانب منه حتى تجـــد نفسك مأخوذاً بوصفه ، مسحورا براعته ، مشدودا بأبياته ، وكأنك تسمع منه هذا اول مرة • وقل مثل ذلك عند وصفه لاخلاق الممدوح ، وتفننه في تشبيهها ونعتها واطرائها •

غرق الفتح :

تروى المراجع ان الفتح خرج يوما متصيدا فاجتاز على بعض القناطر وقد انقطع عن عسكره ، فانخسفت به القنطرة فغرق فرآه أكّار فطرح نفسه عليه وأنقذه وقـــد كاد ان يتلف ، فجلس بعد أيام للناس لتهنئته بالسلامة ، فكان من الطبيعي ان يكون في جملة المهنئين شاعره البحتري الذي دخل عليه فأنشده قصيدة بهذه المناسبة فقال له الفتح : هنونا بنثر وأنت تنظم وتتعب[2] •

يوم النهر :

لقد مهّد البحتري لقصيدته - كعادته - بالغزل ، ولكنه غزل فيه رقة ولطافة وروعة لا تجدها الا لدى الوليد ، ثم انتقل بعد التمهيد الى

---

(١) الديوان ٣/١٩٢٨ - ١٩٣١ •

(٢) أخبار البحتري ص ٩٦ - ٩٧ ، والفرج بعد الشدة للتنوخي ص ٢٤٨ •

الثناء على الفتح فأشار الى ان في بقائه بقاء الجود والعطاء ، وانه الفتى الذي ما تزال أياديه البيض شاهدة له ، وهو كالبدر الذي يبدد الدياجي ويكشف الظلمات ، تزينه أخلاق كالانجم الزهر واضحة نيّرة ، والبحتري يتفنن كثيرا في وصفه أخلاق الفتح وتشبيهها ، فمرة هي كالسحب المحمّلة بما تجود به[١] ، وأخرى كالروض المنوّر الموشّى بأفانين الزهور[٢] ، وتارة كالانجم الزهر المشرقة[٣] ، والى جانب ذلك فهو مسعر حرب ، وحارس أمين ، ينطوي على الامانة والتقى ، ويتحلى بالكفاية والنصر ، ويتجمل بالتواضع والورع ، ورجل هذه صفاته لابد ان يفدى بمن هم دونه قدرا ومنزلة وكرما واحسانا ، وان يدعى له بالبقاء وطول العمر ، لان في ذلك بقاء المساعي ، ودوام المعالي • والبحتري بعد كل هذه التقدمة من الاوصاف يدلف الى الغرض الذي يرمي اليه من قصيدته هذه ، فيحاول ان يعلل ببراعة وطرافة انخساف القنطرة او الجسر - كما يسميه - صاحبه وولي نعمته • وان هذه الحادثة (يوم النهر) - كما يسميها - يوم عظيمة ونعماء في آن واحد ، وان اجتيازه النهر - وهو البحر - أحدث في أمواجه ولججه ما أحدث من اضطراب واندفاع وطغيان ، ادت الى تحطيم قواعد الجسر التي انهدمت به ، لعدم قدرتها على احتماله ، ولم يكن الجسر في ذلك ظالما ولا باغيا ، لانه ليس بوسعه مقاومة من هو أعظم منه ، وأنّى يكون ظالما وقد تحمل حلما كجبل قدس ، وهمة كجبل رضوى ، وقدراً لا يعد له قدر ! ولولا رحمة الله به ، ودفاعه عنه ، ومنّه عليه ؛ لأظلمت الدنيا ، وذهب بهاؤها وحسنها بذهابه ، وانه حين حزَبَهُ الامر ، وادلهم عليه الخطب ، ورأى المكروه منه قاب قوسين أو أدنى ، لم يذهل للأمر ، ولم يستسلم للمكروه ، فنهض وشمّر في حزم ،

(١) أنظر : ص ١٢٢ •
(٢) أنظر : ص ١٢٩ •
(٣) أنظر : الصفحة القادمة •

وطلع من بين الأهوال كما يطلع البدر من وراء الظلمات منيرا مشرقا ، ولعل في هذا اشارة الى مكابدة الفتح ، ومكافحته للنجاة من الغرق والذي أشار اليهما الوليد في قصيدة أخرى كما سنرى !

وبعد هذا الوصف الجميل ، والتعليل الرائع لهذه الحادثة ، ينهي قصيدته بالدعاء للممدوح بالبقاء الحميد الذي يشيد به الشعر ، ويقول : انه ليعجبه فقره الى الممدوح ، ولولا محبته له لما أحبّ الفقر ! وانه ما زال شاكرا لمعروفه له ونعمته عليه ، لا عذر له في جحود هذه النعمة والكفر بصاحبها :

هل العيش الا ّ أن تساعفنا النوى ... بوصل سعاد أو يساعدنا الدهر
ويوم تثنت للوداع وسلّمت ... بعينين موصول بلحظهما السحر
توهمتها ألوى بأجفانها الكرى ... كرى النوم، او مالت باعطافها الخمر

* * *

لعمرك ما الدنيا بناقصة الجدا ... اذا بقي الفتح بن خاقان والقطر
فتى لا يزال الدهر حول رباعه ... أيادٍ له بيض وأفنية خضر
أضاء لنا أفق البلاد ، وكشفتَ ... مشاهده ما لا يكشّفه الفجر
بوجه هو البدر المنير نفى الدجى ... سناه ، وأخلاق هي الأنجم الزهر
غمام سماح ما يغبّ له حياً ... ومسعر حرب ما يضيع له وتر
وحارس ملك ما يزال عتاده ... مهندة بيض وخطيّة سمر
فداك رجال باعد المنع رفدهم ... فلا الخمس ورد من نداهم ولا العشر
ألامت سجاياهم وضنت أكفهم ... فاحسانهم سوء ، ومعروفهم نكر
بقاء المساعي ان تمدّ لك البقا ... وعمر المعالي أن يطول لك العمر

* * *

لقد كان يوم النهر يوم عظيمة ... أطلت ، ونعماء جرى بهما النهر
أجزت عليه عابراً فتساجلت ... اواذيّه لما طما فوقه البحر
وزالت أواخي الجسر، وانهدمت به ... قواعده العظمى ، وما ظلم الجسر

تحمّل حلماً مثل قدس ، وهمّـة كرضوى ، وقدراً ليس يعد له قدر
ولولا دفاع الله عنـك ، ومنّـة عليك ، وفضل من مواهبه غمـر
لأظلمت الدنيـا ولا نقضّ حسنها ولا نحتّ من افنانها الورق الخضر؟
ولمـا رأيت الخطب ضنكاً سبيله وقد عظم المكروه واستفظع الأمـر
صرمت فلم تقعد بحزمك حيرة الـ ـمروع ولم يسدد مذاهبك الذعر
وما كان ذاك الهـول الا غيابـة بدا طالعاً من تحت ظلمتها البـدر

* * *

أراك بعـين المكتسى ورق الغنى بآلائك اللاتى يعدّدها الشـعر
ويعجبني فقري اليك ، ولم يكن ليعجبني لولا محبتـك الفقـر
ووالله مـا ضاعت أيادٍ أتيتهـا الىّ ، ولا ازرى بمعروفها الكفر
وما لى عـذر في جحودك نعمـة ولوكان لي عذر لما حسن العذر(١)

وقد لا نغالي اذا ما زعمنا ان هذه القصيدة قد انطوت على شيء غير قليل من الجودة والروعة والبراعة ، ويخيل الينا ان البحتري قد حذا في قصيدته هذه حذو رائيته في التوكل التي أنشأها بمناسبة عيد الفطر ، وكأني به أراد أن لا يحرم الفتح من امثالها ، فنسج على منوالها كمـا ترى !

ولم يكتف البحتري بهذه القصيدة التي صوّر فيها غرق الفتـح ونجاته تصويرا مؤثرا بل أردفها بقصيدتين أخريين ، وجه احداهما الى المتوكل ، ووجه الثانية الى الفتح نفسه .

يد الله :

ففي القصيدة الاولى هنأ الخليفة المتوكل بنجاة وليّه ومولاه وصديقه

---

(١) الديوان ٢/٨٤٤ ـ ٨٤٧ . جاء في أخبار البحتري ص ٩٨ ـ ٩٩ ان المبرد قال : « كأني به (أي البحتري) ينشد الفتح (واورد الابيات الثلاثة الاخيرة) فقال الفتح : أما هـذا البيت فما وقع موقع ابياتك ! قال : وكان الفتح من اعلم الناس بالشعر » .

من هذا الحدث الجلل الذي أشرف فيه على خطر عظيم ، فاعتبر النجاة عطية من الله أنعم بها على المتوكل • وكيف لا تكون هذه النجاة عطية عظيمة لعبد أخلص لسيده سرّا وعلانية ، ويبدو ان البحتري كان حاضراً ساعة الحادث بدليل قوله :

ولم أنسه يطفو ويرسب تارة ... ويظهر للرائين ثم يغيب

فالفتح قد تعرض في غرقه الى أمر عظيم ـ كما يظهر ـ فكان يطفو ويرسب ، ويظهر للعيون ثم يختفي تحت طيات الأمواج ، حتى كاد يتلف، لولا ان تهيأ له أكار أنقذه وخلصه من موت محقق كما أسلفنا • ولكن البحتري هنا يشير الى ان نجاته كانت بسبب دعوة الفتح وهو في محنته باسم سيده المتوكل ، حتى ليقسم بانه لو دعاه وهو في مأزق أكثر حرجاً مما كان فيه لفرجّه عنه الخليفة المذكور ، ثم يعود فيقول كما قال في قصيدته السابقة ، لولا دفاع الله عنه ورحمته به لبقيت تبكيه العيون وتشتاقه القلوب ، ولكنه جاء بعد يأس وقنوط من انقاذه ونجاته ، فحلت الأفراح ، وذاعت البشريات :

لتهنىء أمير المؤمنين عطية ... من الله يزكو نيلها ويطيب
يد الله في فتح اليك جميلة ... وانعامه فيه عليك عجيب
وليّك دون الاولياء محبة ... ومولاك والمولى الصريح نسيب
وعبدك أخطته اليك نصيحة ... وأرضاك منه مشهد ومغيب
رمته صروف النائبات فأخطأت ... كذا الدهر يخطي مرّة ويصيب
ولم أنسه يطفو ويرسب تارة ... ويظهر للرائين ثم يغيب
دعا باسمك المنصور والموج غامر ... لدعوته ، والموت منه قريب
وأقسم لو يدعوك والخيل حوله ... لفرجّها عنه أغرّ نجيب
فلولا دفاع الله دامت على البكا ... عيون ولجت في الغرام قلوب
فجاء على يأس وقد كادت القوى ... تقطع ، والآمال فيه تخيب

فيا فرحة جاءت على أثر ترحة   وبشرى أتت بعد النعيّ تؤوب
بقيت أمير المؤمنين ، فانما   بقاؤك حسن للزمان وطيب[1]

دفع الله :

وفي القصيدة الثانية مدح الفتح وهنأه بنجاته من حادثة الغرق المذكورة ، وكرّر فيها ما ذكره في القصيدتين السابقتين ، فتمنى ان يكون لعدوه ومكايده الحدث الواقع والحمام الفاجع ، وان ما حصل لم يكن الا عثرة دعى لها بالاقالة ، وهي ليست غريبة فلربما كبا الجواد المتقدم ، ونبا الحسام القاطع ، ولن يظفر الاعداء بزلة منه تفرحهم ما دامت عين الله ترعاه ، ورحمته تكلؤه ، وان الامام (الخليفة) قلق الضمير على ما أصابه ، جزع على ما انتابه ، وهل هناك أبلغ على الحزن الشديد من نشيج يعلو ، ومدامع تفيض ، ثم ان ما أصابه كان فضيلة دلت على كرم جوهره ، وصلابة عوده وشجاعة قلبه ، فلم يتغير لونه ، ولا خارت عزيمته ، ولا ارتعدت فرائصه ، وانما برز من غمرات الموت : رابط الجأش ، مشرق الجبين ، فكان ذلك نبأ كبت الحاسدين ذيعه ونثه :

بعدوك الحدث الجليل الواقع   ولمن يكابدك الحمام الفاجع
قلنا : لعاً لما عثرت ولا تزل   نوب الليالي وهي عنك رواجع
ولربما عثر الجواد وشأوه   متقدّم ، ونبا الحسام القاطع
لن يظفر الأعداء منك بزلة   والله دونك حاجز ومدافع
احدى الحوادث شارفتك فردّها   دفع الاله ، وصنعه المتتابع
دلت على رأى الامام وانه   قلق الضمير لما أصابك جازع
هل غاية الوجد المبرّح غير ان   يعلو نشيج او تفيض مدامع ؟
وفضيلة لك ان منيت بمثلها   فنجوت متئداً وقلبك جامع
ما حال لون عند ذاك ولا هفا   عزم ، ولا راع الجوانح رائع
حتى برزت لنا وجأشك ساكن   من نجدة ، وضياء وجهك ساطع

---

(١) الديوان ١/٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

خبر يسوء الحاسدين اذا بدا وأعاد فيه محدّث او سامع
سارت به الركبان عنك ، وربما كبت الحسود لك الحديث الشائع[1]

وهكذا يتخذ البحتري من هذا الحادث مادة للاشادة بالفتح ووصف ما انتابه من أمر كاد يودي بحياته ، وقد تفنن ـ كما رأيت ـ في تعليل انخساف الجسر ، كما أبدع في وصف جهاد الفتح ومكابدته الغرق حتى نجا منه ، ثم صوّر قلق الخليفة عليه والمحبين له ، كما ندّد بأخصامه ومناوئيه ، كل ذلك بلفظ رشيق ، وتشبيه رائع ، وقوة أسر ، وجودة سبك ، واحتفال بالموسيقى والتقسيم .

مناجزته للاسد :

وفي غضون هذه السنة ـ على ما يبدو ـ وهي سنة ٢٤٦ هـ يعترض الفتح احد أسُود حديقة المتوكل للوحوش في سامراء[2] ، فينبرى له الفتح بسيفه ويجهز عليه ، وتهز هذه الحادثة شاعرية البحتري فيخلدها بقصيدة رائعة تعد من عيون شعره ، ومن فرائد الشعر العربي أيضاً في هذا الباب . وقد استهلها كالعادة بالغزل الذي جرى عليه في عموم شعره ، وهو غزل أحسن ما يقال فيه انه غزل بحتري في رقته وعذوبته وسلاسته ، ثم دلف بعد التمهيد الى الثناء على المدوح فنصح للمعتفين ان يردوا حوض الفتح ؛ لانه معدن الجود ، ومنبع الكرم ، ولانه العارض الثجّاج ذو الجود والعطاء ، وهو يجمع الى ذلك شجاعة مشهودة في حومة الوغى ، ورزانة عند خفوف الحلوم ، ووقاراً عند ادلهمام الخطوب ، وهو عنيد اذا عوزز في الملمات ، سهل اذا أخذ باللين لا ينقصه الحزم ساعة الحزم ، ولا يدخله الهوج اوان الكف . وبعد هذا الاطراء والتمدح بصفات المدوح وشمائله

---

(١) الديوان : ٢/١٣٠٧ ـ ١٣٠٨ .

(٢) للوقوف على هذه الحديقة يحسن الرجوع الى كتابنا « سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٣٠٢ .

يصور لقاءه للاسد الذي وصف عرينه ومرتاده وصفاً دقيقاً شاماً ، كما وصف المعركة بينه وبين الفتح وصفاً رائعاً مشبعاً بالحركة حركة الليث الغاضب الذي يُدلّ بشجاعته وقوته ورهبته ، وحركة الفتح التي لا تقل عن حركة ذلك الليث عنفاً وبسالة وادلالاً ، حتى ليخل الينا ان البحتري كان حاضراً هذه المعركة وواقفاً على تفاصيلها ، ونحن لا نريد ان نسترسل في وصف هذه الحادثة وانما يحسن تركها كما وصفها الشاعر لئلا نفسد عليه جمال الوصف وروعة الاسلوب وسحر البيان .

وبعد ان انتهى من الوصف انتقل الى الاعتراف بفضل الممدوح وحسن صنيعه ، وكثرة عطاياه ، حتى ألان له الأيام بعد شدتها ، وعاتب له الدهر الزارى فأرضاه ، وألبسه النعمى التي غيرت عليه أخاه ، ولهذا كله فهو مدين لولى نعمته هذا بردّ جميلة وشكر معروفه ، وتخليده بقوافٍ سائرة ، تشدو بها الركبان في مشارق الارض ومغاربها :

أجدّك ما ينفكّ يسري لزينبا ... خيال اذا آب الظلام تأوّبا
سرى من أعالي الشام يجلبه الكرى ... هبوب نسيم الروض تجلبه الصبا
وما زارني الاّ ولهت صبابة ... اليه ، والا قلت : أهلاً ومرحبا

* * *

أقول لركب معتفين تدرعوا ... على عجل قطعاً من الليل غيهبا
ردوا نائل الفتح بن خاقان انه ... أعمّ ندى فيكم وأقرب مطلبا
هو العارض الثجاج أخضل جوده ... وطارت حواشي برقه فتلهبا
رزين اذا ما القوم خفت حلومهم ... وقور اذا ما حادث الدهر أجلبا
حرون اذا عازته في ملمة ... فان جئته من جانب الذل أصحبا
فتى لم يضيع وجه حزم ولم يبت ... يلاحظ أعجاز الأمور تعقّبا

* * *

وما نقم الحسّاد الاّ أصالة ... لديك ، وفعلاً أريحياً مهذّبا
وقد جربوا بالامس منك عزيمة ... فضلت بها السيف الحسام المجرّبا

غداة لقيت الليث ، والليث مخدر يحدّد ناباً للقاء ومخلبا
يحصّنه من نهر نيزك معقل منيع تسامى غابه وتأشبا
يرود مغاراً بالظواهر مكثباً ويحتلّ روضاً بالأباطح معشبا
يلاعب فيه أقحواناً مفضضاً يبصّ ، وحوذاناً على الماء مذهبا[1]
اذا شاء غادى عانة او غدا على عقائل سرب او تقنّص ربربا
يجرّ الى أشباله كل شارقٍ عبيطاً مدمّى او رميلاً مخضبا[2]
ومن يبغ ظلماً في حريمك ينصرف الى تلف او يثن خزيان أخيبا
شهدت لقد انصفته يوم تنبرى له مصلتاً عضباً من البيض مقضبا[3]
فلم ارَ ضرغامين أصدق منكما عراكاً اذا الهيّابة النكس كذبا[4]
هزبر مشى يبغي هزبراً واغلب من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدلّ بشغب ثم هالته صولة رآك لها أمضى جناناً وأشغبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً وأقدم لمّا لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه ان كرّ نحوك مقبلاً ولم ينجه ان حادعتك منكّبا
وكنت متى تجمع يمينك تهتك الضريبة ، أو لا تبق للسيف مضربا

* * *

ألنت لي الأيام من بعد قسوة وعاتبتَ لي دهري المسيء فأعتبا
وألبستني النعمى التي غيّرت أخي عليّ ، فأضحى نازح الودّ أجنبا
فلا فزت من مرّ الليالي براحة إذا أنا لم أصبح بشكرك متعبا
على أن أفواف القوافي ضوامن لشكرك ما أبدى دجى الليل كوكبا
ثناء تقصّى الارض : نجداً وغائراً وسارت به الركبان: شرقاً ومغربا[5]

---

(١) يبصّ : يبرق ويتلألأ .

(٢) العبيط : الذبيحة تنحر وهي سمينة من غير علة . الرميل : الملطخ بالدم .

(٣) العضب : السيف القاطع .

(٤) النِكس : الرجل الضعيف والمقصر عن غاية النجدة .

(٥) الديوان ١/١٩٦ ـ ٢٠١ .

والحق ان وصف البحتري للاسد من الجودة والروعة والنفاسة هو الذي حمل الجرجاني على القول بعد كلامه على لامية المتنبي في الاسد أيضاً : « ولولا أبيات البحتري في هذا المعنى لعددت هذه من أفراد ابي الطيب ، ولكن البحتري قال يصف قتل الفتح بن خاقان اسداً عرض له (واورد -١١- بيتاً) من قوله : « غداة لقيت الليث ... الى قوله : وكنت متى تجمع يمينيك » فاستوفى المعنى وأجاد في الصفة ووصل الى المراد »[١].

اعتذاراته وعتابه للفتح :

ويبدو ان البحتري على الرغم من مهارته في التزلف ، وحذقه وسائل التمدح ، ومرونته في التقلّب ، ومكنته في اجتياز ما يعتور سبيله من عقبات ، لم يستطع ان يفلت من حبائل الأخصام ، ومكائد المناوئين ، ومن فساد الطوية ، والتدني الخلقي الذي كان سائداً بعض جوانب ذلك المجتمع .

وان الشاعر بعد مضي حوالي ثلاث عشرة سنة في صحبة الفتح والانقطاع اليه ، والاشادة بخلاله وصفاته وأعماله وما كان يطرأ عليه من أمور وأحوال ، حتى صار من خواصه يشفع اليه في الناس[٢] ، أقول بعد كل هذه الأعوام من الصفاء والمودة والوئام ، تظهر في سماء صفائهم خيوط سوداء ما تلبث ان تحلك وتدكن حتى تستحيل ظلاماً دامساً ، وحجاباً صفيقاً يحولان بين الشاعر وبين ممدوحه والذي يدل على تأخر ما حدث بينهما قول البحتري من قصيدة له في عتابه للفتح ، يشير فيه الى انه قد شارف الاربعين من عمره ، واذا صح ان ولادته كانت في سنة ٢٠٦هـ فمعنى هذا ان الخلاف بينهما كان في غضون سنة ٢٤٦هـ ، يقول :

ومن يطلع شرف الأربعين يحيّى منالشيب زوراً غريبا[١]

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني ص ١١٤ ـ ١١٥ .
(٢) انظر اخبار البحتري ص ٨٤ .
(٣) الديوان ١/١٥٠ .

ولو شئنا ان نتلمس الاسباب التي عملت عملها في تكدير هذا الصفاء الذي استحال الى قطيعة تامة بين الشاعر ووليّ نعمته لوجدنا ان ما قيل في ذلك ما يزال ملفعاً بغلالة من الظنون والشكوك والترجيح ، لم يصل — فيما نحسب — الى القطع او اليقين .

فالصولي يذكر في أخبار البحتري سببين لغضب الفتح على الشاعر واطراحه له ، يقول : « وسألت أبا الغوث عن سبب غضب الفتح على ابيه الموجب لهذه الاعتذارات» فقال : استبطأ برّه في وقت من الاوقات فبلغه انه هجاه وثلبه ، وكان يحسد على مكانه منه فيتكذب عليه عنده .

وأما محمد بن يحيى بن ابي عبّاد فحدثني أن بعض الكتاب الأجلاء جعل للبحتري الف دينار على ان يخبّب خادماً للفتح ، فخبّبه ، فغضب عليه . قال : وفي شعر ابن ابي طاهر ذكر لهذا ، وقد هجا البحتري به[1].

فالسبب الثاني — كما ترى — يشير الى افساد البحتري غلاماً للفتح لقاء مبلغ كبير من المال ، ويبدو ان هذا السبب قد حمل البعض على التعليق عليه بشيء ينمّ عن القبول الخفي له ، فهو يقول : « والبحتري مولع بافساد الغلمان ، وهو مشهور بميله اليهم »[2] .

ويبدو لنا انه — على الرغم من الاخبار التي تشير الى ميل الشاعر الى هذا التردي الخلقي الذي كان شائعاً في عصره ومجتمعه ، فاننا نستبعد ان ينزلق البحتري وهو الذي كان يقدّر منزلته لدى الفتح حق قدرها — الى هذا المهوى الذي لا يخلو من الشره المادي والتدني الخلقي !

وأكبر الظن ان الشاعر كان مكتفياً بما كان يمنحه اياه الفتح من هبات مترادفة وعطايا متصلة اذا صح ما اعترف به له في تضاعيف مدائحه فيه . وعلى هذا فان ما أتهم به الشاعر من افساد غلام الفتح — كما نظن —

---

(١) أخبار البحتري ص ٧٧ — ٧٨ والتخبيب : افساد الرجل عبداً أو أمة لغيره .

(٢) أنظر : أخبار البحتري ص ٧٨ هامش ٢ .

لا يعدو ان يكون ضرباً من التلفيق الذي الصقه به بعض مناوئيه وخصومه.

وأما الشاعر نفسه فيخبرنا اكثر من مرّة بجهله للسبب الذي أغضب الفتح عليه ، فهو يقول :

ولو كنت أعـــرف ذنباً لما   تخالجني الشك في أن أتوبا

ويقـــول :

أعد نظراً فيمـا تسخطت هل ترى   مقـــالاً دنياً ، او فعالاً مذمّما
ولم أعرف الذنب الذي سؤتني لـه   فأقتل نفسي حســـرة وتندّما[1]

وحين يستغلق على الشاعر معرفة السبب لهذا الاطراح يرفع عقيرته صارخاً :

ثناه العدى عني فأصـبح معرضـاً   وأوهمه الواشـون حتى توهما[2]

والغالب على الظن ان السبب في غضب الفتح هذا يعود ـ كما يرى الشاعر ـ الى سعاية بعضهم لديه ، وتغير قلبه عليه ، مما حمله على جفائه واطراحـه .

ولكن ماذا كان وراء هذه القطيعة ؟ وماذا جناه البحتري من جرائها ؟ وما ذا أفاد الأدب منها ؟ من غير شك انها أصابت الشاعر بخسارة مادية ، اذ حيل بينه وبين الوصول الى ممدوحه ، ولكنها عادت على الادب بقصيدتين ومقطعـــة في العتاب والاعتذار بلغت درجة عاليـــة من الروعة والاجادة والاحسان .

عديم الضريب :

فهذه احدى القصيدتين اللتين أنشأهما في عتاب الفتح ، وفيها يشـير الى انه قد شارف الاربعين من العمر ، ثم يقول : اختبر طبائع من رآهم

---

(١) الديوان ٣/١٩٨٥ .
(٢) نفسه ٣/١٩٨٣ .

من أهل زمانه فلم يجد للفتح نظيراً ولا مثيلاً ، وقد صهرته الحادثات فأبدت له منه ذا عزم وشيك ، ورأى حصيف ، وكان يجمع بين خلتين : بين السماح المرتجى ، وبين البأس المهيب ، فهو كالسيف ـ ينجد ـ في الشدّة ، وكالبحر ـ يرقد ـ في الرجاء ، وهو فداؤه في الخطوب والنوائب، وان كان رأيه قد تغيّر فيه فاستحال البشر قطوباً وآلت اموره الى الخيبة ، وكلما حاول ان يستريب شيئاً يأتيه به ، يرده قدره واكباره اياه عنه ، حتى ليكره التمادي ولو على سبيل الخديعة والتمويه ، لخوفه من التردي في مهاوي المنون ، ولهذا فانه يعود الى ظنه مكذّباً اياه بصحة سخطه عليه ، وان كان متحققاً من صدق ظنه في ذلك ، ولا أدلّ على صحة غضبه وسخطه عليه من ذمّه الزمان ، وشكواه الخطوب ، وانه ليجد نفسه مضطراً لأن يلتجيء الى لومة يبين فيها ما يداخله ويخامره ـ سواء كان مخطئاً في ذلك أو مصيباً ، فهل يجوز ان يحرم من عطائه وسيبه بعد ان كان مغموراً بهما ، مشمولاً بفيضهما ، فهو اليوم يبع أحبته كما تباع السّوام ، ويفتقدهم ويحزن عليهم الواحد تلو الآخر ، وليس سخطه هذا عليه الا الفراق الذي يفيض الدموع ويشجي القلوب ، ولكن كيف يتوب ويطلب الصفح وهو لا يعرف الذنب ولا مصدره ولا سببه ؟ فليس له حيلة اذن الاّ الصبر في انتظار رضاه بَعُدَ ذلك الرضا او قرب . وليس له الاّ ترقّب صحة رأيه فيه ، وانتظار عطفه عليه :

وحملت عندك ذنب المشـ ... ـيب ، حتى كأني ابتدعت المشيبا
ومن يطلع شرف الاربعيـ ... ـن يحيىّ من الشيب زوراً غريبا
بلونا ضرائب من قد نرى ... فما إن رأينا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادثا ... ت عزماً وشيكاً ورأياً صليبا
تنقّلَ في خلتى سؤدد : ... سماحاً مرجّى ، وبأساً مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخاً ... وكالبحر إن جئته مستثيبا

فديناك من اي خطب عرا ... ونائبة اوشكت أن تنوبا
وإن كان رأيك قد حال فيّ ... فلقيتني بعد بشر قطوبا
وخيّبت أسبابيَ النازعا ... ت اليك ، وما حقها أن تخيبا
يريبني الشيء تأتي به ... وأكبر قدرك أن استريبا
اكذّب ظني بان قد سخط ... ت ، وما كنت أعهد ظني كذوبا
ولو لم تكن ساخطاً لم أكن ... أذمّ الزمان وأشكو الخطوبا
ولابد من لومة أنتحي ... عليك بها مخطئاً أو مصيبا
أيصبح وردي في ساحتيـ ... ـك طرقاً ، ومرعايَ محلاً جديبا
أبيع الأحبة بيع السَّوام ... وآسى عليهم حبيباً حبيبا
ففي كل يوم لنا موقف ... يشقّق فيه الوداع الجيوبا
ولو كنت أعرف ذنباً لما ... تخالجني الشكّ في أن أتوبا
سأصبر حتى ألاقي رضا ... ك : إمّا بعيداً واما قريبا
أراقب رأيك حتى يصحّ ... وأنظر عطفك حتى يثوبا[1]

حيرة :

وأعقب البحتري عتابيته واعتذاريته السابقة بمقطعة أشار فيها الى سوء حاله واضطراب أمره ، وشماتة الأخصام به ، وانه ليتساءل بمرارة وحزن هل ان ممدوحه قد تخلّى عنه فعلاً ، واذا كان الأمر كذلك، فماذا سيكون موقفه ازاء من سيسأله عن حاله ؟ وماذا سيقول للشامتين الذين يسرّهم ما آل اليه أمره ، او للمنكرين المتعجبين من صيرورته الى هذه الحالة ؟ أيقول لهم انه مغضوب عليه ؟ وكيف يصدقون ذلك ، وعهدهم به لم يذنب ولم يعتذر ؟ أم هل يقول لهم ان حاله تخلفت لديه ، ومنزلته ساءت عنده ، ومن ذا سيقرّبه ويستصحبه اذن ؟ ولهذا كله فسينتحي بعده جانب الوحدة، وسيبقى منطوياً على نفسه ، يتجرّع غصص الآلام ، ومرارة الحرمان ،

---

(١) الديوان : ١٥٠/١ ـ ١٥٣ .

وسيهجر الشعر ويرفضه ، لانه لا يجد خلاوة التمدح الافية ، فهو يقول :

أمخلّفي يا فتح أنت وظـاعن في الظاعنين ، وشـاهدو مغيبّي ؟
ماذا أقول اذا سئلت فحطنـي صدقى ، ولم يستر عليّ تكذّبي ؟
ماذا أقول لشامتين يسـرّهم ما سـاءني ، ولمنكر متعجّب ؟
أأقول : مغضوب عليّ ؟ فعلمهم أن لست معتذراً ولست بمذنب
أم هل أقول : تخلفت بي عنـده حال فمن ذا بعده مستصحبي
سـأقيم بعده ، إن أقمت بغصة في الصدر لم تصعد ولم تصوّب
وسأرفض الاشعار ان مذاقهـا بمديح غيرك في فمي لم يعذب
لا أخلط التأميل منك لغـيره أبداً ، ولا ألقى دنَى المكسب(١)

الرضا من الغنيمة بالاياب :

وحين يجد البحتري ان ما عاتب به الفتح واعتذر به اليه لم يكن ذا أثر في عدوله عن الصدود والاعراض ، يعود كرّة ثالثة فينسج قصيدة عتابية أخرى تمثل ـ فيما نحسب ـ قمة شعره العتابي الذي اشتهر بـه ، لما فيها من دقة الأحكام ، وجميل المحاكمة ، ولطف الاعتذار ، وبراعـة التنصّل مما رمى به ، وعزّة النفس التي لا يريد اذلالها او الحط منها .

والقصيدة تبدأ بالغزل الذي فيما يخيل الينا ان الشاعر نحا فيه منحى قد لا يخلو من العمد والقصد الى شيء من الايحاء نحو ما كان بينه وبين ممدوحه من التباعد والصـدود ، فهـو بعد التمهيد التقليدي ينتقل الى مقصده ، فيتساءل ـ على لسان محبوبته بعد فراقه لها ، يقول : هل سيرضى الفتح فيكون في رضاه التئام شمله واجتماع أمره ، وانتما أيها الخليلان ، لا تلوماه على فيض عبرة أبت تباريح الوجد الا فيضها وسجومها، ولا تعجبا من فجيعة الفراق ، فالحب لا يخلو من الحلاوة والمرارة ، ثم من يعذره من الأيام التي كدرت صفو مشاربه ، وأبدلت سعوده نحوساً ، وأكسبته

---

(١) نفسه ١٤١/١ .

سخط امرىء استحال داجياً كالليل البهيم • ولكن الشاعر حاول ان يخفف من حدة غضب الممدوح ، ويصور حالته معه ، وهو ازوراره عنه، واطراحه اياه ، ولعله كان يأمل في ذلك التلطيف والتليين من شدّة سخط الفتح عليه، فهو يقول : انه ظهرت عليه بعض أمارات الرضا ، ولكنها أمارات تنطوي على بقية من العتاب ، اوشكت أن تنقضي وتنقطع ، ثم يستطرد الى وصف حالة الفتح حين يكلمه وما يطرأ على لحظه وقوله من حركات وجمجمة ، فهو ان وقع نظره عليه ردّه عنه كليلاً وان كلمه أجابه بشيء من الجمجمة التي لا تبين ولا تفصح ، وكأنه يريد بذلك دفعه والتخلص منه ضيقاً وتبرّماً ! وما زال الأعداء يثنونه عنه ، والوشاة يوهمونه ويوغرون صدره ضده ، حتى أخذ ما رمى به عنده سبيله الى نفسه وقلبه ، فأعرض عنه وأطرحه ، وتحولت سهولته وعورة ، وطلاقته جهومة ، ثم يتساءل هل ان من أحسن اليه وانعم عليه يبتغى الاساءة عنده ، والانتقام منه ؟ ان هناك من يخوّفه من سوء رأيه فيه ، وليس هناك خوف سوى خشيته من جوره وظلمه ، وانه ليعيذه ويكبره وينزهه من ان تكون خشيته له من غير ذنب اذنبه، او جرم أجرمه؟ ثم أليس هو الموالي فيه تدبيج القصائد المتلألئة كتلألؤ النجوم في الليل البهيم ، والتي تحمل في ثناياها ثناء كالروض المزهر ، والوشي المسهّم ، ولو انه حاول توقير شعره وتنزيهه واعظم ما أصاب مدائحه فيه من ضيم وحيف ، لربأ بنفسه ان يتخنّع ، أو يتدنى بطلب الصفح والمعذرة وليأت ما يأتي وليكن ما يكون ، ولكنه ينحو هذا المنحى من التلطف والتبسط والتضرّع لاكباره مقامه واستحيائه منه ، أن يكون كالمدلّ والمستعظم ؟

والشاعر بعد ان ضجر وتضايق نفسّ بعض الشيء عما يكابده من الألم والمرارة ، في الابيات الاربعة السابقة التي حاول فيها ـ كما رأيت الاعتزاز بشعره ونفسه وتبيان سبب الحالة في الضراعة والتماس الصفح والمغفرة •

ثم يعود فيطلب من الفتح ان يعيد النظر في اسباب سخطه وغضبه عليه فهل سيجد هناك ما يؤاخذ عليه من عمل ذميم ، او قول دنيء ؟

ويتراءى له ان العراق ـ الذي كان يأمل في ربوعه الغنى والثراء ـ قد ضاق به ، وان النوائب تشير عليه ان يرضى من الغنيمة بالاياب ـ الى الشام سالماً ثم يعود الى التنصّل مما رمى به والى جهله الاسباب لهذا السخط ، والتذكير بسالف عهده معه ، وخالص ودّه له ، وسيرورة شعره فيه ، فاكبر ظنه فيه ان لا يحمله الظن على ان يستحل حرمة ما بينهما من ذمام وعهد ، وان الحياء ليمنعه ان يذهب في سوء ظنه به كل مذهب ، او يشط به في ركوب عظائم الأمور ، وكيف يعمل هذا وهو ما زال جاهلاً بحقيقة السخط ، وسبب الاطراح ، فلو علم بهما لما تردد في قتل نفسه حسرة على ذلك وتندماً ، وحتى لو صح ما سعى به اليه او توهمه وظنه فيه ، لما كان من العجب ان يكون الشاعر قد لؤم في عمله ، والممدوح قد كرم في عفوه وغفرانه ، ثم هل يذكره بما كان بينهما من عهد وثيق وود خالص لا شائبة فيه او ما دبجه فيه من غرر القصائد التي طبقت بشهرتها ودويّها مشارق الارض ومغاربها ؟ ومع كل هذا فهو يقر بذنبه الذي لم يرتكبه ، وجنايته التي لا يعرف سببها ، وان كان يحسب انه الوم منه في ذلك ، وهو لا يبتغي الا رضاه . وهذا ليس بالغريب على مثله ، لشهرته بجميل الفعال وكرم النفس ، وسجاحة الخلق ، وهل الناس ـ عنده ـ سوى فئتين : فئة تمثل الاصفياء ، فتنعم بجزيل نعمته ، ووفرة أعطيته ، وأخرى تمثل الاعداء ، فيشيقها بقوة بأسه ، وجراءة نفسه :

يهون عليها أن أبيت متيّما ... أعالج وجداً في الضمير مكتّما
وقد جاورت أرض الاعادي وأصبحت ... حمى وصلها مذ جاورت ابرق الحمى
بكت حرقة عند الوداع ، واردفت ... سلواً نهى الاحشاء ان تصرما
فلم يبق من معروفها غير طائف ... ملم بنا وهناً اذا الركب هوما

يكاد وميض البرق عند اعتراضه — يضيء خيالا جاء منها مسلما
ولم أنسها عند الوداع ونثرها — سوابق دمع أعجلت ان تنظما
وقالت هل الفتح بن خاقان معقب — رضى فيعود الشمل عنا ملأما
خليلي كفا اللوم في فيض عبرة — أبى الوجد الا أن تفيض وتسجما
ولا تعجبا من فجعة البين ، انني — رأيت الهوى طعمين : شهدا وعلقما
عذيري من لايام رنقن مشربي — ولقينني نحسا من الطير أشأما
وأكسبنني سخط امرىء بت موهنا — أرى سخطه ليلا مع الليل ، مظلما
تبلج عن بعض الرضا ، وانطوى على — بقيـة عتب شارفت ان تصرما
اذا قلت يوما : قد تجاوز حدها — تلبث في أعقابها وتلوما
وأصـيد ان نازعته اللحظ رده — كليلا ، وان راجعته القول جمجما
ثناه العدا عني فأصبح معرضا — وأوهمه الواشون حتى توهما
وقد كان سهلا واضحا فتوعرت — رباه ، وطلقا ضاحكا فتجهما
أمتخذ عندي الاساءة محسن — ومنتقم مني امرؤ كان منعما
ومكتسب فيَّ الاساءة ماجد — يرى الحمد غنما والملامة مغرما
يخوفني من سوء رأيك معشر — ولا خوف الا أن تجور وتظلما
أعيذك أن أخشاك من غير حادث — تبين او جرم اليك تقدما
ألست الموالي فيك نظم قصائد — هي الانجم اقتادت مع الليل أنجما؟
ثناء كأن الروض منه منورا — ضحى ، وكأن الوش فيه مسهما
فلـو أنني وقرت شعري وقاره — وأجللت مدحي فيك ان يتهضما
لاكبرت أن اومي اليـك باصبع — تضرع أو أدنى لمعذرة فما
وكان الذي يأتي به الدهر هيناً — عليَّ ولو كان الحمام المقدما
ولكنني أعلى محلك أن أرى — مدلاً ، واستحيك أن أتعظما
أعد نظرا فيما تسخطت هل ترى — مقالا دنيا أو فعالاً مذمما
رأيت العراق أنكرتني وأقسمت — عليَّ صروف الدهر ان أتشأما

وكان رجـائي أن أؤدب مملكاً   فصار ، رجائي أن أؤدب مسلما
ولا مانع مما توهمت غـير أن   تذكر بعض الانس او تذممـــا
وأكبر ظني أنك المرء لم تكن   تحلل بالظن الذمام المحـرما
حياء ، فلم يذهب بى الغيّ مذهبا   بعيدا ، ولم أركب من الامر معظما
ولم أعرف الذنب الذي سؤتني له   فأقتل نفسي حسرة وتندمـا
ولو كان ما خبرتـه او ظننتـه   لما كان غروا أن ألوم وتكرمـا
اذكرك العهـد الذي ليس سؤددا   تناسيه ، والـود الصحيح المسلما
وما حمل الركبان شرقا ومغـربا   وأنجد في أعلى البلاد وأتهمـا
أقر بما لم أجنه متنصـلا   اليك ، على أني اخالك ألومـا
لي الذنب معروفا وان كنت جاهلا   به ، ولك العتبى علىّ وأنعمـا
ومثلك أن أبدى الفعال أعـاده   وان صنع المعروف زاد وتمما
وما الناس الا عصبتان : فهـذه   قرنت بها بؤسى ، وهاتيك أنعمـا
وحلة أعداء رميت بعزمـة   فأضرمتها نارا ، وأجريتها دما[1]

وأكبر الظن ان ما مرّ بنا من عتابيات الشاعر ، كان قد لقي صدى حسناً لدى الفتح ، فرضي عنه ، واستأنف علاقته به من جديد ، على انا لم نجد في شعر البحتري ما يشير الى كيفية رضاه عنه ، وما أسبغه عليه من نعمة بعد زوال القطيعة ، واستئناف العلاقة .

والحق ان البحتري قد نحا في عتابه منحى لطيفاً طريفاً ، حتى أصبح يعد في طليعة شعراء العتاب ومتقدميهم ، وقد اعترف له بهذا الفضل كثير من القدامي والمحدثين .

فقال الصولي : « سمعت عبدالله بن المعتز يقول : لو لم يكن للبحتري من الشعر الا قصيدته السينية في وصف ايوا نكسرى ، فليس للعرب سينية مثلها ، وقصيدته في وصـف البركة : ميلوا الى الدار من ليلى نحييهـا .

---

(١) الديوان ٣/١٩٨١ – ١٩٨٦ .

واعتذاراته في قصائده الى الفتح بن خاقان التي ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة الى النعمان ... لكان أشعر الناس ... »[١] .

وقال ابن رشيق : « وأحسن الناس طريقاً في عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيد الجماعة ابو عبادة البحتري (واستشهد على ذلك بمثالين من قصيدتيه : البائية والميمية في عتابه للفتح) »[٢] .

وقال ابن الاثير : « وكذلك فاعلم ان النون الثقيلة متصلة بهذا الباب ، فاذا استعملت في موضع فانما يقصد بها التأكيد : فمما جاء منها قول البحتري في معاتبة الفتح بن خاقان :

هل يجلبنّ الىّ عطفك موقف ثبت لديك أقول فيه وتسمع

الابيات الى قوله :

إلاّ يكن ذنب فعدل واسع

وهذه ابيات حسنة مليحة في بابها ، يُمحى بها حرّ الصدور ، ويستمال بها صعر الخدود ، وانما ذكرتها بجملتها لمكان حسنها »[٣] .

الواقع ان الابيات التي تكلم عليها ابن الأثير لم تكن في الفتح وانما كانت في الخليفة المتوكل[٤] . ويبدو ان الذي أوهم ابن الاثير في ذلك هو اشتهار البحتري بعتاباته للفتح .

وقال بعض المحدثين في عتابه : « اما العتاب فله فيه اليد الطولى ، ويرى ابن رشيق انه أحسن الناس طريقاً في عتاب الأشراف ويلقبه بشيخ الصناعة الشعرية وسيد الجماعة ، وقد أصاب ابن رشيق ففي عتابه نعومة حريرية

(١) أخبار البحتري ص ٧٢ ـ ٧٣ ، وانظر : ص ٧٧ من المصدر نفسه .

(٢) العمدة لابن رشيق ٢/١٦٠ ـ ١٦١ .

(٣) المثل السائر ٢/٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

(٤) أنظر : ص ٢٣٩ من هذا البحث .

فلما تجدها في سواه »[1] . ثم ساق عدداً من الامثلة على ذلك ، ولكنه ـ وهذا موطن الغرابة ـ لم يتمثل بشيء مما قاله في الفتح الذي هو مدار كلام ابن رشيق كما رأيت .

فالبحتري اذن كان من المبدعين في هذا الباب ، ومشهود له بين شعراء العربية بالسبق واليد الطولى !

ونرى من المستحسن ان نثبت هنا ما ذكره ابن رشيق في تعريف العتاب وطرائق الشعراء فيه ، لنرى مبلغ تأثر البحتري فيه ، ومدى استخدامه لطرائقه ، يقول : « العتاب ـ وان كان حياة المودة ، وشاهد الوفاء ـ فانه باب من أبواب الخديعة ، يسرع الى الهجاء ، وسبب وكيد من اسباب القطيعة والجفاء ، فاذا قلّ كان داعية الألفة ، وقيد الصحبة ، واذا كثر خشن جانبه ، وثقل صاحبه ، وللعتاب طرائق كثيرة ، وللناس فيه ضروب مختلفة، فمنه ما يمازجه الاستعطاف والاستئلاف ، ومنه ما يدخله الاحتجاج والانتصاف ، وقد يعرض فيه المنّ والاجحاف ـ مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف .

وأحسن الناس طريقاً في عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيد الجماعة ابو عبادة البحتري ... »[2] .

ولو رجعنا الى عتاب البحتري في الفتح لوجدناه ينطبق تمام الانطباق على ما أشار اليه ابن رشيق ، فالشاعر لم يكثر من عتابه ، كما علمت ، ولهذا لم يثقل ظله ، ولم يخشن جانبه ، كما نظن .

وقد طرق في عتابه ما أشار اليه ابن رشيق ايضاً ، ففي عتابه مزيج من الاستعطاف والاستئلاف، وفيه شيء من الاحتجاج والانتصاف ، ولم يخل

---

(١) امراء الشعر في العصر العباسي لأنيس المقدسي ص ٢٤٦ .

(٢) العمدة ٢/١٦٠ .

من ملامح المنّ والاجحاف ، واكثر فيه من الاعتذار والاعتراف .. وكأني بابن رشيق قد استهدى بعتاب البحتري في الفتح عند تعريفه للعتاب آنف الذكر !

مفتاح باب الندى :

وهذه مقطوعة من أربعة ابيات تنسب للبحتري في الفتح، وكان الاولى بها ان تذكر ضمن مدائحه الاولى للفتح ، ولكننا أرجأناها الى اعقاب الموضوع للشكوك التي تساورنا في نسبتها للشاعر ، فقد ذكر ياقوت في ترجمة الفتح ابن خاقان قصة هذه الأبيات منسوبة الى ابى بكر محمد بن جعفر الخرائطى الذي قال : « حدثنا العباس بن الفضل الربعي ، حدثنا علي بن الجهم قال : اني لعند المتوكل يوماً والفتح بن خاقان حاضر اذ قيل له : فلان النخاس بالباب ، فأذن له فدخل ومعه وصيفة ، فقال له أمير المؤمنين ، ما صناعة هذه الوصيفة ؟ قال : تقرأ بالألحان ، فقال الفتح ، اقرئي لنا خمس آيات فاندفعت تقول : « واورد الأبيات وبينها وبين ابيات الديوان خلاف في بعض الألفاظ ».. قال : والله لقد دخل المتوكل من السرور ما قام الى الفتح فوقع عليه يقبّله ، ووثب الفتح فقبّل رجله ، فأمره أمير المؤمنين بشـــرائها ، وأمر له بجائزة وكسوة وبعث بها الى الفتح ، فكانت أحظى جواريه عنده . فلما قتل الفتح رثته بهذه الأبيات « واورد لها ثلاثة أبيات في رثائه[1] .

وعلق شارح الديوان على هذه القصيدة بعد ان ذكرها مخرومة اذ لم يشر الى رثاء الجارية للفتح بعد وفاته ــ بقوله : « ولعل علي بن الجهم قد أراد بهذه القصة صرف هذه المقطوعة عن ان تنسب للبحتري ، لما كان بين الشاعرين من خصومة .. » ولا ندرى هل ان هذه الأبيات من الجـــودة والروعة بحيث لو نسبت الى غير البحتري لرفعت من مكانته الشـــعرية ، ولحطت من مكانة البحتري ؟ ولم لم ينسبها ابن الجهم لنفسه كما فعل ــ كما

---

(١) معجم الادباء ١٨٦/٨١ .

يقال ـ في مقطوعة أخرى للشاعر[١] ، على انه يخيل الينا ان هذه الأبيات في روحها واسلوبها أقرب الى ما ذكره ابن الجهم عنها ، وأبعد عن ان تكون من شعر البحتري والابيات هي :

قد جاء نصر الله والفتح ‏ ‏ ‏ وشق عنا الظلمة الصبح
وزير ملك ورجا دولة ‏ ‏ ‏ شيمته الانعام والصفح
كالليث الا انه ماجد ‏ ‏ ‏ كالغيث الا انه سمح
وكل باب للندى مغلق ‏ ‏ ‏ فانما مفتاحه الفتح[٣]

---

(١) انظر : سامراء في ادب القرن الثالث الهجرى ص ٢٩ هامش ١٢٣

(٢) الديوان ١/٤٧٤ .

الفصل الثالث

البحتري والمتوكل

المتوكل :

بعد ان وطّد البحتري صلته بالفتح ـ كما أسلفنا ـ وحصل على جوائزه وحظى لديه بمكانة مرموقة ، حاول ن يتقدم خطوة أخرى الى الأمام ، فالتمس من ممدوحه ان يقدمه الى الخليفة ، لعله يتسنى له ان يحظى لديه بمثل ما حظي عنده ، وقد أشرنا الى الحاح الشاعر في طلبه هذا ، حتى تهيأ له أخيراً ، أن يصل الى مبتغاه ، ويظفر بمطلبه مما سنشير اليه فيما بعد ! •

ولما كان الشاعر قد حظي لدى لمتوكل بما لم يحظ بمثله لدى خليفة آخر إذا ما استثنينا ابنه المعتز ، ولما كان قد أمضى في رحابه حقبة غير قصيرة من الزمن ، أنشأ فيها روائع مدائحه ، وجميل اوصافه ، وواكبه في أكثر اعماله ، كان خليقاً بنا ان نلمح الى شيء من حياة هذا الخليفة الذي كان له فضل كبير على شاعرنا ظلّ يذكره ويحن اليه طوال أيام حياته بعده •

هو ابو الفضل جعفر بن محمد المعتصم بن الرشيد الملقب بالمتوكل على الله ، ولد بفم الصلح[1] في سنة ٢٠٦ او ٢٠٧هـ ، وامه ام ولد اسمها « شجاع » • استخلف بعد أخيه الواثق سنة ٢٣٢ هـ وهو في السادسة والعشرين من العمر[2] •

---

(١) فم الصلح : بلدة كانت على فوهة نهر الصلح المختلج من نهر دجلة فوق واسط من الجانب الشرقي • أنظر : نساء الخلفاء لابن الساعي تحقيق : الدكتور مصطفى جواد ص ٦٠ هامش (١) •

(٢) أنظر : تاريخ بغداد ١٦٥/٧ ـ ١٦٦ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٤٦ •

وكان أسمر ، رقيق البشرة ، يضرب لونه الى الصفرة ، حسن الوجه والعينين ، خفيف العارضين ، كما كان وسيماً مهيباً الى الغايـة ، وكان الى القصر أقرب[١] .

وهو عاشر الخلفاء العباسيين وثالث من اتخذ سامراء عاصـمة له ، وأشهرهم في هذه المدينة ؛ اذ تهيأ له من الصفات المحببة ، والأعمال الجليلة ، والمدة الطويلة ، ما جعل عهده يتسم بالرخاء والصفاء والغضارة .

ولعل اول عمل قام بـه حبّب اليه نفوس الرعيـة هو ابطاله الجدل والخوض في مسألة القول بخلق القرآن التي تبناها المأمون فالمعتصم فالواثق ، وتشددوا فيها وشدّدوا على الناس في الاعتقاد بها ، حتى لم يتورعوا عن معاقبة الكثير ممن حاول مقاومتها او التلكؤ في الأخذ بها ، فثقل ذلك على الرعيـة ، فلما جاء المتوكل واستهلّ خلافته بابطال هذه المسألة سـرى عن الناس ، ودخلهم من الفرحة والغبطة ما دخلهم[٢] حتى قال بعضهم في ذلك : « الخلفاء ثلاثة : ابو بكر الصديق (رض) في قتل أهل الردة ، وعمر بن عبدالعزيز في ردّ المظالم ، والمتوكل في احياء السنة ، واماتة التجهم »[٣] .

ولم يكتف المتوكل بذلك بل أمر باحضار الفقهاء والمحدثّين الى سامراء للتحدّث بالسنة ، ولعل هذا هو السبب في انتشار المحدّثين في هذه المدينة حتى كان لبعضهم طريقة متميزة في الحديث عرفوا بها[٤] ؟

ويبدو ان المتوكل حاول ان يسوس الرعية بشيء من الرفق واللين ،

---

(١) أنظر : تاريخ الطبري ٩/٢٣٠ ، والتنبيه والاشراف للمسعودي ص ٣١٣ ـ ٣١٤ ، وتاريخ بغداد ٧/١٧٢ .

(٢) أنظر : تاريخ اليعقوبي ٣/٢١٧ ، وتاريخ الطبري ٩/١٩٠ ، ومروج الذهب ٤/٣ ، ٨٦ ، ٣١٩ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٣٤٦ .

(٤) أنظر : تاريخ الخلفاء ص ٣٥٠ ، وسامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٨٦ ـ ٨٩ .

ليكون قريباً من نفوسهم ، حبيباً الى قلوبهم . ولعل ما روى عنه ـ اذا صحّ ـ ان الخلفاء كانت تتعصب على الرعية لتطيعها وانا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني »[١] . خير دليل على ذلك .

واتسم عهده بالنضارة والأمن والرفاه ، حتى قيل في ذلك : « وكانت أيام المتوكل أحسن الأيام وأنضرها ، من استقامة الملك ، وشمول الناس بالأمن والعدل[٢] . وقيل ايضاً : « وكانت أيام المتوكل في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سرّاء لا ضرّاء ، كما قال بعضهم : كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ، ورخص الاسعار ، وأماني الحب ، وأيام الشباب ... »[٣] .

وان عهداً كهذا تسوده الطمأنينة ، وتتوفر فيه الأموال ، ويظهر فيه خليفة كالمتوكل خليق بان يحظى فيه الادباء والشعراء وأرباب الفنون ، وهكذا كان ، فقد حظي كل اولئك في كنفه برعاية واهتمام كبيرين[٤] . حتى قيل في ذلك : « لا يعلم أحد في صناعته في جدّ ولا هزل إلاّ وقد حظي في دولته وسعد بأيامه ، ووصل اليه نصيب وافر من ماله »[٥] .

ولعل رخاء الأيام ، وصفاء الحياة ، ولين عريكة الخليفة ، ودماثة خلقه ، كل ذلك ساعد على ان يسلك في حياته مسلكاً فيه شيء من الانهماك على الشهوات ، والميل الى الدعابة وطلب الفكاهة ، حتى قيل : إنه اول من أظهر من خلفاء بني العباس الانهماك على شهوته ، وكان اصحابه يتسخّفون

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣٥٢ .

(٢) مروج الذهب ٤/٨٦ .

(٣) نفسه ٤/١٢٢ .

(٤) أنظر : محاضرة الابرار لابن عربي ٨/٤٤ ، ومآثر الانافة للقلقشندي ١/٢٣٠ .

(٥) مروج الذهب ٤/١٢٣ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٤٩ .

ويستخفون بحضرته ، وكان يهازل الجلساء ، ويفاخر الرؤساء[1] . بيد انه ـ مع كل ذلك ـ كان محبباً الى قلوب الناس مقرباً اليهم[2] وكان مهيباً الى الغاية كما يقول المسعودي[3] .

ولقد كان عصر المتوكل يتسم بطابع العمارة وبكثرة البذخ والاسراف، ولعل مردّ ذلك هدوء الحالة السياسية ووفرة الأموال ، وشغف الخليفة بذلك ، فشيّد قصوراً فخمة ، وعمائر ضخمة ، أتينا على اوصافها في كتابنا « سامراء في ادب القرن الثالث الهجري » .

وقد كلفت تلك العمائر والقصور أموالاً طائلة ، كما كلفت الأعمال الأخرى كثيراً من اموال الدولة ، ولا أدل على الاسراف والبذخ الكثيرين مما يرويه الشابشتي في دياراته عن اعمال هذا الخليفة ، فقد ذكر في معرض كلامه على أحد قصوره وهو البرج فقال : « وكان البرج من أحسن أبنيته ... فبلغت النفقة على هذا القصر الف الف وسبعمائة الف دينار ، وجلس فيه على السرير الذهب ، وعليه ثياب الوشي المثقلة ، وأمر ألا يدخل عليه أحد إلاّ في ثياب وشي منسوجة او ديباج ظاهره ، وكان جلوسه فيه في سنة تسع وثلاثين ومائتين . ثم دعا بالطعام ، وحضر الندماء وسائر المغنين والملهين ، وأكل الناس ، ورام النوم فما تهيأ له ، فقال له الفتح : يا مولاى ليس هذا يوم نوم . فجلس للشراب ، فلما كان الليل ، رام النوم ، فما أمكنه ، فدعا بدهن بنفسج فجعل فيه شيئاً على رأسه ، وتنشّقه فلم ينفعه ، فمكث ثلاثة أيام بلياليها لم ينم . ثم حُمَّ حمّى حادة . فانتقل الى الهاروني قصر أخيه الواثق ، فأقام به ستة اشهر عليلاً ، وأمر بهدم البرج وضرب

---

(١) زهر الآداب ٢٩١/١ ، وانظر : الديارات للشابشتي ص ٣٩ ، مروج الذهب ٨٦/٤ .

(٢) زهر الآداب ٢٩٢/١ .

(٣) التنبيه والاشراف ص ٣١٤ .

تلك الحلى عيناً »[١] .

وذكر أيضاً في موضع آخر بعض بذخ هذا الخليفة واحتفاله بالمتعة وشغفه بالأنس ، حتى ليعد ضرباً من ضروب الخيال ، ونوعاً من الأساطير التي يحلو للبعض ان يبثها في تضاعيف تصانيفه ، قال : « شرب المتوكل يوماً في بركوارا »[٢] ، فقال لندمائه : أرأيتم ان لم يكن أيام الورد لا نعمل نحن شاذكلاه[٣] ، قالوا : يا أمير المؤمنين ، لا يكون الشاذكلاه الا بالورد ، فقال : بلى . ادعوا اليّ عبدالله بن يحيى ، فحضر ، فقال تقدم بان تضرب اليّ دراهم في كل درهم حبتان ، قال : كم المقدار يا أمير المؤمنين ؟ قال : خمسة آلاف الف درهم ، فتقدم عبدالله في ضربها ، فضربت ، وعرّفه الخبر . فقال : اصبغ منها بالحمرة والصفرة والسواد ، واترك بعضها على حاله ففعل . ثم تقدم الى الخدم والحواشي ، وكانوا سبعمائة ، ان يعد كل واحد منهم قباء جديداً وقلنسوة على خلاف لون قباء الآخر وقلنسوته ، ففعلوا ، ثم عمد الى يوم تحركت فيه الريح ، فنصبت له قبة لها أربعون باباً ، فاصطبح فيها ، والندماء حوله ، ولبس الخدم الكسوة التي أعدّها ، وأمر بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، فنثرت اولاً اولاً ، فكانت الريح تحمل الدراهم فتقف بين السماء والارض كما يقف الورد ، فكان من أحسن أيام المتوكل وأظرفه »[٤] .

ولعل أقصى ما وصل اليه البذخ والاسراف في عهد المتوكل هذا ، هو

---

(١) الديارات : ص ١٦٠ ـ ١٦٢ الطبعة الثانية .

(٢) بركوارا : من أحسن أبنية المتوكل واجلها ، بلغت النفقة عليه عشرين الف ألف درهم . ولمعرفة المزيد عن هذا القصر يحسن الرجوع الى كتابنا « سامراء في أدب القرن الثالث الهجري » ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

(٣) الشاذكلاه ، ويقال فيها الشاذكلي : لفظة فارسية معناها « يوم الفرح العظيم » وعربيتها النثار . أنظر الديارات ص ١٦٠ هامش (٥) .

(٤) الديارات ص ١٦٠ .

ما أنفقه على حفلة اعذار ابنه المعتز التي أقامها في قصره بلكوارا ايضاً ، وقد وصف هذه الحفلة وصفاً دقيقاً شاملاً الشابشتي كذلك ، وأتى على الكثير مما جرى فيها ، وأسماها دعوة الاسلام الثانية . فمما جاء في وصفها قوله : « ولما صح عزمه على اعذار ابى عبدالله المعتز ، أمر الفتح بن خاقان بالتأهب له ، وان يلتمس في خزائن الفرش بساطاً للايوان في عرضه وطوله ، وكان طوله مائة ذراع ، وعرضه (خمسين)[1] ذراعاً . فلم يوجد إلا فيما قبض عن بني أمية ، فانه وجد في أمتعة هشام بن عبدالملك على طول الايوان وعرضه . وكان بساطاً ابريسماً مذهب مفروز مبطن ، فلما رآه المتوكل ، أعجب به وأراد ان يعرف قيمته ، فجمع عليه التجار ، فذكر انه قوم على اوسط القيم عشرة آلاف دينار . فبسط في الايوان ، وبسط للخليفة في صدر الايوان سرير ، ومد بين يديه أربعة آلاف مرفع[2] ذهب مرصعة بالجوهر فيها تماثيل العنبر والند والكافور المعمول على مثل الصور ، منها ما هو مرصع بالجوهر مفرداً ، ومنها ما عليه ذهب وجوهر وجعلت بساطاً ممدوداً ، وتغدى المتوكل والناس ، وجلس على السرير ، وأحضر الأمراء والقواد والندماء وأصحاب المراتب فأجلسوا على مراتبهم ، وجعل بين صوانيهم والسماط فرجة ، وجاء الفراشون بزبل قد غشيت بأدم مملوءة دنانير ودراهم نصفين ، فصبت في تلك الفرج حتى ارتفعت وقام الغلمان فوقها ، وأمروا الناس عن الخليفة بالشرب ، وأن ينتقل كل من يشرب بثلاث حفنات ما حملت يداه من ذلك المال ، فكان اذا أثقل الواحد منهم ما اجتمع في كمه أخرجه الى غلمانه فدفعه اليهم وعاد الى مجلسه . وكلما فرغ من موضع أتى الفراشون بما يملأونه به حتى يعود الى حاله . وخلع على سائر من حضر ثلاث خلع

(١) في الاصل (خمسون) .

(٢) المرفع : الكرسي ، وفسره محقق ثمار القلوب بالاناء الصغير ص ١٦٦ هامش (٤) .

كل واحد ، وأقاموا الى ان صليت العصر والمغرب ، وحُملوا عند انصرافهم على الأفراس والشهارى ، واعتق المتوكل عن المعتز الف عبد ، وأمر لكل واحد بمائة درهم وثلاثة أثواب . وكان في صحن الدار بين يدى الايوان اربعمائة بُلَيَة[1] . عليهن أنواع الثياب ، وبين ايديهن الف نبيجة[2] خيزران ، فيها انواع الفواكه من الاترج والنارنج على قلته كان في ذلك الوقت ، والتفاح الشامي والليموه ، وخمسة آلاف باقة نرجس وعشرة آلاف باقة بنفسج ، وتقدم الى الفتح بان ينثر على البليات وخدم الدار والحاشية ، ما كان أعدّه لهم وهو عشرون الف الف درهم ، فلم يُقدم احد على التقاط شيء ، فأخذ الفتح درهماً ، فأكبت الجماعة على المال فنهب ، وكانت قبيحة[3] قد تقدمت بان تضرب دراهم ، عليها « بركة من الله لاعذار أبي عبدالله المعتز بالله » . فضرب ألف ألف درهم نثرت على المزين ومن في حيزه من الغلمان والشاكرية[4] ، وقهارمة الدار والخدم الخاصة من البيضان والسودان ...
وقال ابراهيم بن العباس : سألت أبا حرملة المزين في هذا اليوم ، فقلت كم حصل لك الى ان وضع الطعام ؟ فقال : نيّف وثمانون الف دينار سوى الصياغات والخواتيم والجواهر والعتيدات .

وأقام المتوكل ببركوارا ثلاثة أيام ، ثم أصعد الى قصره الجعفري[5] ،

---

(١) البلية : المرأة المغنية الراقصة في الحفلات .

(٢) النبيجة : السفرة او الطبق من الخوص أو الخيزران .

(٣) هي أم المعتز .

(٤) شرح محقق الديارات هذه الكلمة بقوله : « الشاكرية : فرقة من الجند ظهرت في أيام المهتدى (كذا) واستفحل أمرها في أيام المستعين » . ومعلوم ان المهتدي متأخر بالنسبة للمستعين ، وعلى هذا فالصواب (المهدى) لا المهتدى ، ويبدو انه من آثار الخطأ المطبعي ولكنه لم يثبت في جدول الخطأ والصواب .

(٥) أكبر الظن ان الشابشتي يريد بالقصر الجعفري قصر المتوكل في مدينته المتوكلية ، واذا كان كذلك ففيه نظر ، ذلك ان قصر الجعفري

وتقدم باحضار ابراهيم بن العباس ، وأمره بان يعمل له عملاً بما أنفقه في هذا الاعذار ، ويعرضه عليه ، ففعل ذلك ، فاشتمل العمل على ستة وثمانين ألف ألف درهم .

وكان الناس يستكثرون ما أنفقه الحسن بن سهل في عرس ابنته بوران ، حتى أرخ ذلك في الكتب ، وسميت دعوة الاسلام ، ثم أتى من دعوة المتوكل ما أنسى ذلك ...[1] .

وكان المتوكل الى جانب ذلك يحفل بالعلم والادب ، كما كان سمحاً

ابتدىء بناؤه في سنة ٢٤٥هـ ، في حين ان وفاة ابراهيم بن العباس الصولي كانت في سنة ٢٤٣هـ (أنظر : تاريخ بغداد ١١٨/٦ ، معجم الادباء ٢٦٠/١ ، وفيات الاعيان ٢٩/١ ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٣١٥/٢ ، الاعلام للزركلي ٣٨/١ وغيرها) ، فكيف يتسنى لمن كانت وفاته في سنة ٢٤٣ ان يقوم باعداد نفقات حفلة الاعذار في سنة ٢٤٥هـ ، على ان هناك قصرا آخر باسم الجعفري المحدث أشار اليه الطبري في حوادث سنة ٢٤٨هـ . غير اننا نستبعد ان يكون ذلك القصر من الاهمية في نفس المتوكل ما كان لقصره الجعفري في مدينته المتوكلية . ومن الجدير بالذكر ان محقق الديارات لم يلتفت الى هذا ، وانما أحالنا الى الذيل (١١) الذي تكلم فيه على القصر الجعفري والجعفري المحدث ، ولكنه لم يبين المقصود من القصر الجعفري الذي أشار اليه الشابشتي ، وانظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٦٠ ــ ٢٦٩ .

(١) الديارات ص ١٥٠ ــ ١٥٦ ، وانظر : ثمار القلوب للثعالبي ص ١٦٦ ــ ١٦٧ ، حيث أشار الى هذه الدعوة وأضاف الى ما ذكره الشابشتي قوله : « ... ونظر ابن حمدون الى سطل ذهب مملوء مسكاً فأخذه ، ومر به ليدفعه الى غلامه ، فقال له المتوكل : الى اين ؟ فقال : الى الحمام يا أمير المؤمنين .. » وانظر : الحضارة الاسلامية لآدم ميتز ٢٩٤/٢ وجاء فيها « وكان أكبر عيد بقصر الخلافة في القرن الثالث الهجري عيد ختان عبدالله (كذا) » والصواب ابى عبدالله وهي كنية المعتز « المعتز بن المتوكل ... ثم ذكر المبلغ الذي أشار اليه الشابشتي ، وعلق عليه بقوله : « وهو مقدار يشبه ما يقال في القصص الخيالية » .

جواداً وممدّحاً حتى قيل : ما أعطى خليفة شاعراً مـا أعطى المتوكل[1] ، ولعله اول خليفة عباسي أثاب عن كل بيت الف دينار[2] .

والحق ان المتوكل كان مرضي السيرة ، محبوب الصفات ، حتى ليمكن الزعم بانه اكثر الخلفاء العباسيين تقرّباً من قلوب الرعية ، ولولا ما شـــاب عهده بشيء من الاعنات للطالبيين الذي مردّه السياسة ، وباقدامه على النيل من مثوى الحسين بن علي (رض) لكان من افراد الحكام في العهد العباسي كلـه[3] .

ولا أدل على حب الناس لـه وتعلقهم به ، ما تشـير اليه المراجع من الأسى الذي ران عليهم ، والحزن الذي كابدهم حين سمعوا بمقتله عـلى أيدي الأتراك في المؤامرة التي كان ابنه المنتصر أحد المشتركين فيها وذلك سنة ٢٤٧ هـ ، حتى ادعى بعضهم انه رأى فيما يرى النائم ليلة مقتله منشداً ينشد ابياتاً تشير الى موته وموت وزيره الفتح[4] ، كما ادعى آخرون ان ماء زمزم قد غار ليلة مقتله ايضاً[5] .

هذا هو المتوكل الذي اتصل به البحتري اتصالاً وثيقاً حتى أصبح من جلسائه وندمائه والمقربين اليه[6] .

---

(١) أنظر : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٩ .

(٢) أنظر : تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ١٤٢/٥ .

(٣) أنظر : النجوم الزاهرة ٢٨٣/٢ ــ ٢٨٤ ، ٣٢٤ ، والكامل في التاريخ لابن الاثير ٥٥/٧ ــ ٥٦ . والجدير بالذكر ان جرجي زيدان يرى خلال تعليقه على ما الزم به المتوكل اهل الذمة من ارتداء ملابس خاصة بهم لمعاضدتهم بعض الخارجين على الخلافة ــ في حكم المتوكل نوعا من العسف والجور شمل رجال الدولة وغيرهم ، وهو رأي يجانف الحق كثيرا فيما نحسب اذا ما قيس بما فعله غيره من الخلفاء .

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٣٥٤ .

(٥) تاريخ بغداد ١٧١/٧ .

(٦) أنظر : العمدة ٤٥/١ .

لقد جهد البحتري ان يكون شاعر البلاط منذ عهد هذا الخليفة[1] ، ومن ثمّ كان شعره سجلاً حافلاً لكثير مما قام به المتوكل من أعمال عمرانية واجتماعية وسياسية ، مما سنراه من خلال مرافقتنا الشاعر في رحلته الطويلة مع الخليفة .

أول اتصاله بالمتوكل :

ما زالت الخطوط الاولى لاتصال البحتري بالمتوكل غير واضحة المعالم شأنها في ذلك شأن اول اتصاله بالفتح بن خاقان ، فهذا الصولي جامع أخباره يشير في خبرين له الى هذا الاتصال ، يقول في الاول : « حدثني يحيى بن البحتري » قال : قال أبي : اول ما مدحت به الفتح بن خاقان :

هب الدار ردّت رجع ما انت قائله

فانشدته اياها سنة ثلاث وثلاثين ومائتين بعد ما أقمت شهراً لا أصل الى انشاده وهو مع ذلك يجرى عليّ ويصلني ، ثم جلس جلوساً عاماً ، وحضرت وحدي فرأيته يبتسم عند كل بيت جيد ، فعلمت انه يعرف الشعر وكان ذلك أعجب اليّ من جميع ما وصلني به ، وكان اول ما اهتز له حين بلغت الى قولي :

وقد قلت للمعلي الى المجد طرفه ... دع المجد فالفتح بن خاقان شاغله

والى قولي :

صفت مثلما تصفو المدام خلاله ... ورقت ـ كما رق النسيم ـ شمائله

فلما فرغت سرّه ما سمع ، وأمر لي بخمسة آلاف درهم ، وقال : أمير المؤمنين يخرج لصلاة الفطر ويخطب ، فاعمل شعراً تنشده إيّاه اذا رجع ؟ فلما جاء الفطر ركب ورجع ، اوصلني اليه بعد أيام ، فدخلت فأنشدته :

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ٢/٣٦٦ .

أبرّ على الأنواء نائلك الغمر   فلما بلغت الى قولي :

بهرت قلوب السامعين بخطبة   هي الزهر المبثوث واللؤلؤ النثر

قال المتوكل للفتح : هذا شاعرك ؟ فجعل يصفني له ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم ، فأخذتها من وقتي ، وخصصت بالفتح حتى كنت أشفع اليه في الناس ، ثم صيّرني بعد ذلك من جلساء المتوكل[1] .

ويقول في الثاني : « وقد روي في اتصال البحتري بالمتوكل خبر : حدثني احمد بن ابراهيم الغنوي قال : طولب أبو سعيد الثغري بمال بعد غزاته المشهورة وسلّم الى ابي الخير النصراني الجهبذ ، ليستخرج المال منه ، فجعل يعذّبه ، فشقّ ذلك على المسلمين ، وقالوا : يأخذ بثأر النصرانية ! فقال البحتري :

يا ضيعة الدنيا وضيعة أهلها   والمسلمين وضيعة الاسلام

الأبيات الى آخرها ... فقرىء الشعر على المتوكل ، فأمر باطلاقه وتوليته ، وأمر باحضار قائله ، فأحضر البحتري ، فاتصل به ، وكان اول شعر أنشده قوله في أبي سعيد :

جعلت فداك الدهر لبس بمنفعك   الابيات »[2] .

وحين نعود الى الخبر الاول نجد ان الصولي يشير الى ان الذي قدّم الشاعر الى المتوكل هو وزيره الفتح ، وان اول شعره فيه قصيدته الرائية . بيد انا حين نرجع الى هذه القصيدة ، نجد الشاعر يشير فيها الى عزم المتوكل على السفر الى الشام الذي كان في سنة ٢٤٣ هـ ، وهذا ينافي بطبيعة الحال التأريخ الذي قدم فيه الشاعر الى الخليفة ، كما يشير اليه الخبر المذكور[3] .

---

(١) أخبار البحتري ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٢) أخبار البحتري ص ٩٧ ـ ٩٨ ، والفرج بعد الشدة للتنوخي ص ٩٥ .

(٣) أنظر : أخبار البحتري ص ٨٤ هامش ٢ ، وأنظر : ص ٩٥ .

اما الخبر الثاني فهو يشير الى ان السبب في احضار البحتري من قبل المتوكل هو سماعه الابيات التي قالها في أبي سعيد الثغرى حين ألقي في حبس سامراء متهماً ببعض الاموال وكان ذلك في حدود سنة ٢٣٣هـ[١] ، وهذا يعني ان البحتري تسنى له الاتصال بالخليفة دون الاستعانة بوسيط في هذا الشأن ، وهو أمر بعيد الاحتمال على ما نظن ، والذي يدفعه اشارات الشاعر في خلال قصائده في الفتح التي الح والحّ فيها الى تقديمه للخليفة وتذكيره بالوعد الذي قطعه له .

ويبدو ان البحتري بدأ بالتلميح الى رغبته في الوصول الى الخليفة قبل ان يوطد صلته بالفتح[٢] ، وجاء ذلك في قوله من قصيدة يعاتب فيها علي بن

---

(١) أنظر ص ٨٤ .

(٢) علق شارح الديوان على احدى قصائد الشاعر في الفتح (الديوان ٤٤٥/١) بقوله : « هذه القصيدة نظمها البحتري متوسلا فيها من الفتح ان يصله بخدمة المتوكل ، ويبدو ان الفتح كان قد وعده بذلك ، فهو يتعجل الوفاء بالوعد فيقول في البيت الثامن « وعدت فأوشك نجح وعدك » ثم يخاطبه في البيت التاسع فيقول « واخباره عني سبيل من النصح » . ثم عاد يتعجله في قوله من القصيدة رقم ٥٥٦ :

فهلم وعـــدك في الامام فانه فضل الى جدوى يديك تضيفه
وهو الخليفة ان أسر وعطاؤه خلفي فان نقيصة تخليفـــه

ويظهر ان الفتح تباطأ في تقديمه الى الخليفة فعاتبه في القصيدة رقم ٧٦١ وعاتب معه علي بن يحيى المنجم :

لقد خاب فيها جاهد وهو ناطق وأعطى منها وادع وهو مفحم
ولو وصلتني بالامـــام ذريعة درى الناس أي الطالبين يحكم »

فالشارح يرى ان البيتين الاخيرين من القصيدة (٧٦١) جاءا في معاتبة الفتح لتباطؤه في تقديم الشاعر الى الخليفة ، والصحيح ان هذه القصيدة (٧٦١) نظمت قبل القصائد التي ذكر الشارح امثلة منها ، وأكبر الظن انها نظمت قبل ان تتوطد صلة البحتري بالفتح وقبل ان يعده بتقديمه للخليفة ، وان الشاعر كان يشكو من تباطؤ الفتح في العطاء والمنح لا في الوفاء بالتقديم أنظر : ص ٥٠ .

يحيى المنجم :

ولو أنصفتني سر من راء لم أكن   الى العيش من ايطانها أتظلم
لقد خاب فيها جاهد وهو ناطق   وأعطى منها وادع وهو مفحم
ولو وصلتني بالامام ذريعة   درى الناس أي الطالبين يحكم
أعاتب أخواني ولست ألومهم   مكافحة ان اللئيم الملوم(١)

غير ان هذا التلميح ما لبث ان تحوّل الى تصريح والحاح بعد توطيد صلته بالفتح وتمكنه منه ، فهو يقول له مرة :

وعدت فأوشك نجح وعدك انه   من المجد اعجال المواعيد بالنجح
وأنت ترى نصح الامام فريضة   واخباره عني سبيل من النصح(٢)

ويقول له اخرى :

فهلم وعدك في الامام فانه   فضل الى جدوى يديك تضيفه
وهو الخليفة ان أسرْ وعطاؤه   خلفي ، فان نقيصة تخليفه(٣)

ومهما يكن من أمر غموض الملامح الاولى لاتصال الشاعر بالخليفة ، ومهما يكن من أمر الذي اوصله ومهدّ له السبيل ، فان الشاعر تيسّر له الوصول الى هدفه المنشود وغايته القصوى ، وانه سرعان ما ثبّت قدمه ، وحاز إعجاب الخليفة به .

حتى أصبح نديماً له لا يكاد يفارقه(٤) ، ويبدو انه استهل صلته به بابدال كنيته القديمة وهي ابو الحسن بابي عبادة(٥) ، وقد كانت له نوبة

---

(١) الديوان ١٩٧٨/٣ وانظر ص ٥٠ .
(٢) الديوان ٤٤٦/١ .
(٣) نفسه ١٤٢٥/٣ وانظر اخبار البحتري ص ٨٠
(٤) أنظر : العمدة لابن رشيق ٤٥/١ .
(٥) أنظر : الموازنة للآمدي ٢٥/١ ، واخبار البحتري ص ٥٨ ، وتاريخ بغداد ٤٤٧/١٣ ، ومن الجدير بالذكر ان الآمدي يشير الى ان البحتري أبدل كنيته القديمة (ابا عبادة) الى أبي الحسن ليزيل العنجهية

بحضرها في دار الخليفة[1] واثالت عليه عطايا المتوكل وهباته حتى أثرى وأفاد . وقد سجل الشاعر الكثير من أعمال الخليفة في خلال الحقبة التي واكبه فيها والتي أربت على اثنتي عشرة سنة وهي حقبة تمثلت بالازدهار والرخاء والطمأنينة كما أسلفنا .

مجموع شعره في المتوكل :

ان ما أنشأه البحتري في اثناء هذه الحقبة بلغ زهاء (٣٩) تسع وثلاثين قصيدة ومقطعة ، اشتملت على نحو (٨٦٤) اربع وستين وثمانمائة بيت ، وهذا العدد من الأبيات يقارب ما نظمه في الفتح بن خاقان ، وهو في رأينا قليل ، اذا ما استحضرنا أهمية الممدوح ومكانته وطول المدة التي انقطع فيها اليه ، ويخيل الينا ان السبب في هذه القلة يرجع الى ما أشرنا اليه عند كلامنا على مدائحه في الفتح .

تنحل أغراض هذه القصائد والمقطعات الى مديح الخليفة والاشادة بصفاته وأعماله والى تعزيته بوفاة والدته ، ورثائه بعد مقتله .

أما عدد الأبيات التي اشتملت عليها كل مقطعة او قصيدة فيبينها التوزيع الآتي :ـ

١ ـ من (٥) أبيات الى (١٠)	٢
٢ ـ من (١١) الى (٢٠)	١٦
٣ ـ من (٢١) الى (٣٠)	١٣
٤ ـ من (٣١) الى (٤٥)	٨

وبلغ عدد أبيات الغزل الذي مهدت به هذه القصائد زهاء (٢٠٥) ابيات

والاعرابية ، ويساوي في مذاهبه اهل الحاضرة ، ويتقرب بهذه الكنية الى أهل النباهة والكتابة من الشيعة . في حين يشير الصولي والخطيب الى انه استعاض عن كنيته أبي الحسن بأبي عبادة في أيام المتوكل ، لانها أشهر .

(١) أنظر : أخبار البحتري ص ٨٩ .

ويجمل بنا بعد هذا الاستعراض السريع لحياة المتوكل ، وصلة البحتري به ان نواكب مسيرة الشاعر الطويلة في رفقة ممدوحه الكبير .

الخليفة في عيد الفطر :

ولعل من اوائل شعره فيه قصيدته الرائية التي أنشأها في سنة **٢٣٥**هـ بمناسبة حلول عيد الفطر ، وخروج الخليفة لأداء الصلاة في مسجده الجامع . ووصف فيها وصفاً دقيقاً ، موكب الخليفة واحتفـــال العيد ، ومهّد لذلك بتسعة أبيات من الغزل الرقيق الذي عرف به البحتري ، ثم انتقل الى شكر الله على نعمته للخليفة ، وانعامه عليه بملك وســيع زانه الخليفة وحسّنه بسيرته المحمودة ، وعدله الشامل ، واحسانه العميم . وكأن البحتري شعر بعظمة الخلافة وجلالة الملك ، وضخامة الجيوش ، فالممدوح أفضل صائم ، لان صيامه عن عقيدة وايمان ، وانطاره لم يكن الا لان سنّة الله تبيح ذلك ، فهذا اليوم يوم الفطر ، يوم أغرّ محجل بالنسبة لبقية الأيام ، وقد بدا عزّ الملك وهيبته بما ظهر من احتشاد الجحافل ، وجلبه الجيوش ، حتى ليخال الرائي ما يشاهده جبالاً سائرة مائجة ، تزخر بصـــهيل الجياد ، وادعاء الفرسان ، ولمعان السيوف ، وبريق الأسنة ، فخشعت الأرض ومادت باثقالها، واعتكر الجو بالنقع المثار ، فكانت الشمس تظهر تارة ، وتحتجب تارة أخرى من كثافة الغبار الاكدر والعجاج الأغبر(١) . وقد انجلت دكنة الغبـــار ،

---

(١) من الجدير بالذكر ان وصف البحتري هذا يعيد الى الاذهان ما رواه المبرد عن كثافة الجيوش في سامراء في عهد الخليفة المتوكل ، فقد جاء في ذلك قوله : « كنت بسر من رأى في أيام المتوكل وكانت الجيوش متكاثفة فما كان أحد من مرّار الطريق يعدم حصاة تتلقاه من حذف حوافر الخيل فأنشدني بعضهم :

لا تقعـــدنّ بسامرا على الطـرق ... ان كنت يوماً على عينيك ذا شفق
حوافر الخيـــل أقواس وأسهمها ... صمّ الحجارة والاغراض في الحدق

(انظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٣٩) .

وتبددت حلكة الدجى عند طلوع محيّا الخليفة المشرق ، وقد استشــرفه الناس مأخوذين بخليفتهم ، مفتنين فيه ، فكان بعضهم يومىء اليـه باصبعه ، وكان البعض الآخر مكتفياً بتحديق النظر اليه[1] . ويبدو ان الناس كانوا يرفعون عقيرتهم بالتهليل والتكبير في اثناء مرور موكبه بينهم ، وبعد هـذا يدلف الخليفة الى المسجد في خشـوع واخبات ، لا يبدو عليه شـيء من الزهو والكبرياء حتى ليكاد المنبر ـ لو يستطيع ـ من فرط اعجابه بـه ، واشتياقه له ـ ان يسعى اليه ماشياً ، وها هو الخليفة بعد ان صعد المنبر شنّف آذان المصلين بخطبة موشحة بالمواعظ ، مدبّجة بالحكم ، فألانت القلـوب القاسية ، وهدت النفوس الحائرة ، ثم أمّ المصلين ، فصلّوا وراءه خاشعين مخبتين :

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر ... وألام في كمـد عليك وأعـذر

وأراك خنت على النوى من لم يخن ... عهد الهوى ، وهجرت من لا يهجر

اني وان جـانبت بعض بطالتي ... وتوهم الواشون أني مقصـر

ليشوقني سـحر العيون المجتلى ... ويروقني ورد الخدود الاحمـر

* * *

بالبر صمت وانت أفضل صـائم ... وبسـنة الله الرضية تفطـر

فانعـم بيوم الفطر عينـاً انـه ... يوم أغر من الزمان مشهـّر

أظهرت عز الملك فيه بجحفل ... لجب ، يحاط الدين فيه وينصر

خلنا الجبال تسير فيه وقـد غدت ... عُدَداً يسير بها العديد الاكثر

فالخيل تصهل ، والفوارس تدعي ... والبيض تلمع ، والأسنة تزهـر

والارض خاشعة تميد بثقلهـا ... والجو معتكر الجوانب أغبـر

* * *

---

(١) كرّر البحتري مثل هذا في وصفه لموكب الخليفة المهتدي في سنة ٢٥٦هـ .

والشمس ماتعة توقد في الضحى ... طورا ، ويطفئها العجاج الاكدر
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلى ... ذاك الدجى ، وانجاب ذاك العثير
وافتن فيك الناظرون ، فاصبع ... يوما اليك بها ، وعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها ... من أنعم الله التي لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا ... لما طلعت من الصفوف وكبروا

* * *

حتى انتهيت الى المصلّى لابسا ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو ان مشتاقا تكلف غير ما ... في وسعه لمشى اليك المنبر
أبديت من فصل الخطاب بخطبة ... تنبى عن الحق المبين وتخبر
ووقفت في برد النبي مذكرا ... بالله ، تنذر تارة وتبشر
ومواعظ شفت الصدور من الذي ... يعتادها ، وشفاؤها متعذر
حتى لقد علم الجهول وأخلصت ... نفس المروي ، واهتدى المتحير
صلوا وراءك آخذين بعصمة ... من ربهم ، وبذمة لا تخفر (١)

وغني عن البيان القول بان هذه القصيدة اشتملت على شيء غير قليل من جودة السبك ، وروعة المعنى ، ودقة الوصف ، وان ابن خلكان كان على حق حين علق عليها بقوله : « وهذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة ، والسهل الممتنع ، فلله دره ! ما أسلس قياده ، واعذب الفاظه ، وأحسن سبكه ، والطف مقصده ، وليس فيه من الحشو شيء ، بل جميعه نُخَب »(٢) .

المتوكل وصعوبة شعر البحتري :

ذكر الصولي في أخبار البحتري ان البحتري قال : « كنت أمدح

---

(١) الديوان ٢/١٠٧٠ ـ ١٠٧٣ .
(٢) وفيات الاعيان ٥/٧٩ .

المتوكل مقوّماً لفظي ، غير مرسل نفسي ، فقال لي الفتح ـ وكان والله ، ما علمتُ ، قويّ الادب ، حسن المعرفة بالشعر ـ ليس بك حاجة في مدح أمير المؤمنين الى مثل هذا ، ليّن كلامك حتى يفهم ، فانه يلذّ ما يفهم ، فعلمت انه نصحني ، فمدحته بأشعاري التي منها :

لي حبيب قد لجّ في الهجر جدا

لِم لا ترقّ لذلّ عبدك . ومنها :

عن اي ثغر تبتسم فحظيت عنده، وقربت من قلبه، وتوفّرت على صلاته »[١].

وعقّب عبدالقاهر الجرجاني على تليين البحتري لشعره بقوله : « لا يمكن ادّعاء ان جميع شعره في قلة الحاجة الى الفكر ، والغنى عن فضل النظر ، كقوله : فؤادي منك ملآن[٢] . وقوله : عن ايّ ثغر تبتسم .

وهل ثقل على المتوكل قصائده الجياد حتى قلّ نشاطه لها واعتناؤه بها إلاّ لانه لم يفهم معانيها، كما فهم معاني النوع النازل الذي انحط له اليه »[٣].

وحين نرجع الى ديوان الشاعر نجد فيه هذه القصائد التي أشير اليها في الخبر السابق ، ونجد ان شارح الديوان قد وضع تواريخ لها كما سيأتي .

وقد ذكرنا عند الكلام على علاقة البحتري بالفتح الخبر المتقدم الذي نصح له فيه الفتح في تليين شعره ، وأشرنا الى ان الشاعر مدح الفتح بقصيدتين من هذا اللون السهل اللين يرجع تاريخ اولاهما الى سنة ٢٣٤هـ ، ويعود تاريخ ثانيتهما الى سنة ٢٣٧ هـ ، كما ذكرنا ان البحتري مدح كاتب الفتح هذا بقصيدة نحا فيها منحى هذه السهولة والليونة يعود تاريخها الى

---

(١) اخبار البحتري ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٢) من الجدير بالذكر ان هذه القصيدة ليست في المتوكل وانما هي في الفتح أنظر : ص ٦٩ ـ ٧١ .

(٣) اخبار البحتري ص ٨٦ حاشية رقم (٣) .

سنة ٢٣٢هـ ، وقلنا لعل هذه القصيدة كانت ترشيحاً لقصائده اللينة في الفتح والمتوكل فيما بعد[١] .

من قصائده اللينة :

فمن شعره الليّن في المتوكل هذه الدالية التي يرى شارح الديوان انها من اوائل ما مدح به المتوكل بعد اتصاله به ، ولهذا فهو يؤرخها في سنة ٢٣٤هـ ، وهو تأريخ ـ فيما نحسب ـ بعيد الاحتمال ، ومجانب للصواب ، اذا ما استهدينا بخبر الصولي الآنف الذكر ، فالخبر يشير الى ان الفتح نصح له بتسهيل شعره وتليينه بعد ان سمع مدائحه فيه ، ورأى فيه تقويم اللفظ الذي ـ كما يقال ـ لم يكن بوسع المتوكل فهمه ! فأين هذه المدائح التي نظمها الشاعر في ممدوحة في اثناء هذه السنة ؟

ومن العجيب ان الشارح يؤرخ قصيدة أخرى بنفس التأريخ وهي تدور في فلك القصيدة السابقة من حيث السهولة والليونة أيضاً . فكأن الشاعر قد نبّه الى اتباع هذه الطريقة قبل ان يتصل بالخليفة ، وهو أمر غريب وبعيد عن الحقيقة والصواب ، وعلى هذا فمن المحتمل ان تكون القصيدتان قد نظمتا بعدهذا التأريخ بزمن حتى يصح الخبر الذي جاء على لسان البحتري في أخباره .

على انه ينبغي ان نشير الى ان البحتري لم يكثر من هذا الشعر اللين السهل ، لا في الفتح ولا في المتوكل ، الأمر الذي يدعونا الى الظن بان الشاعر قد عدل عن هذا اللون حفاظاً على شاعريته من التبذّل ، وصوناً لها من الهدر والتدني[٢] .

ويبدو لنا ان اتهام المتوكل بقلة الفهم لشعر البحتري المقوّم لا يخلو من الغلوّ والاسراف ، بدليل عدول الشاعر عن هذا اللون من الشعر ،

---

(١) أنظر : ص ٦٩ ـ ٧١ .

(٢) أنظر : ص ٧١ .

وقلة القصائد التي دبجّها فيه ، هذا الى ان المتوكل لم يكن متهماً بقلة الفهم او ضحالة الثقافة ، بل كان مولعاً بالأخبار والانساب وما يقع فيها من غريب اللغة ، ولا أدلّ على ذلك من اختياره المبرّد حين أشخصه من البصرة لحل معضلة نحوية اختلف فيها مع وزيره الفتح بن خاقان[1] . هذا الى ان كبار شعراء العصر كانوا يؤمونه وينشدونه مديحهم فيه ، ولم يحاول أحد منهم ان يليّن من شعره فيه ، وكان بعضهم من خواصه وندمائه والمقربين اليه كعلى بن الجهم مثلاً .

ودالية البحتري هذه مفتتحة بالغزل الذي استغرق اكثر من نصفها ثم انتقل الى الغرض الاساس فاذا المتوكل قائم بأمور الدين والدنيا ، يفوق الناس شيمة وخلقاً وبذلاً ، ذا عزيمة نفّاذة ، وطّدت ملكه ، وعدل شامل ، عمّ البلاد ، وهو ذو كفّ معطاء ، تبرّ على السحاب المدرار ، بل هو في السماحة والجود بحر خضمّ ، وهو وَزَر الدنيا في العطاء والبذل ، وجمالها في السناء والمجد ، وشبيه النبي في خلقه وأخلاقه ، ونسيبه في محتده وأصوله :

لي حبيب قد لجّ في الهجر جدا ... وأعاد الصدود منه وأبدا
ذو فنون يريك في كلّ يومٍ ... خلقاً من جفائه مستجدا
يتأبى منعاً ، وينعم اسعا ... فاً ، ويدنو وصلاً ويبعد صدا
أغتدى راضياً وقد بتّ غضبا ... ن وأمسى مولى ، وأصبح عبدا
وبنفسي أفدى على كل حال ... شادناً لو يمس بالحسن أعدى
مرّ بي خالياً فأطمع في الوصـ ... ـل ، وعرّضت بالسلام فردّا
وثنى خدّه اليّ على خو ... فٍ فقبّلت جلناراً وورداً
سيدى أنت ما تعرضت ظلماً ... فأجازى به ، ولا خنت عهدا

(١) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث البحري ص ٢٠٣ ، ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

رقّ لي من مدامـــع ليس ترقـا وارث لي من جوانح ليس تهدا
أتراني مستبدلاً بك ما عشـ ـت بديلاً ، وواجداً منك بدا ؟
حاشـــى لله أنت أفتر ألحـا ظاً ، وأحلى شكلاً ، وأحسن قدّا

* * *

خلق الله جعفراً قيـمّ الدنـ ـيا سداداً ، وقيمّ الدين رشدا
أكرم الناس شيمة ، واتم النا س خلقاً ، واكثر الناس رفـدا
ملك حصـنّت عزيمتــه الملك فأضـــحت لـه معانــاً ور دّا
أظهر العدل فاستنارت به الأر ض ، وعمّ البلاد : غوراً ونجدا
وحكى القطر ، بل أبرّ على القطـ ـر بكفّ على البريـّة تنـدى
هو بحر السماح والجود فازدد منه قرباً تزدد من الفقر بعدا
يا ثمال الدنيا عطـاء وبذلاً وجمال الدنيا سـناء ومجـدا
وشبيه النبـيّ خلقاً وخلقـاً ونسـيب النبي جداً فجـدا
بك نستعتب الليالي ونستعـ ـدى علـى دهرنا المسيء فنعدى
فابق عمر الزمان حتى نؤدي شكر احسانك الذي لا يؤدى(١)

والحق ان اكثر هذه الصفات قد سبقه فيها غيره من الشعراء ، ولكنه ـ كما نظن ـ اكثرهم إجادة في التحدث عنها، واقدرهم على صوغها وابرازها بهذا الثوب القشيب من اللفظ الرشيق ، وقد اكثر في هـــذه المدحة من الطباق ، كما اكثر من التقسيم وبخاصة في الابيات : الثالث والتاسع والحادى عشر والثالث عشر والثامن عشر والتاسع عشر .

ويخيل الينا ان البحتري ـ وان جنح فيها نحو السهولة والليونة ـ لم يسف فيها الى درجة يؤاخذ عليها كما يظن البعض .

هزء الخليفة بالشاعر :

ومثل القصيدة الدالية السابقة في السهولة والليونة هـذه الميمية التي

---

(١) الديوان : ٢/٧١٢ ـ ٧١٣ .

يرجح الشارح انها من منظومات سنة ٢٣٤ هـ ، وهو ما نستبعده أيضاً .

ولهذه القصيدة قصـــة تناقلتها المصـــادر الادبية والتاريخية لم تخل ـ فيما نظن ـ من التزيّد والاضافة حتى كادت ان تبعد عن الحقيقة كثيراً ، وبخاصة ما يتعلق بطريقة انشاد البحتري لشعره عموماً .

فقد روى الصولي في اخبار البحتري : « ان البحتري أنشد المتوكل وابو العنبس حاضر ، قصيدته : عن ايّ ثغر تبتسم الى آخرها .. وكان اذا أنشد يختال ويعجب بما يأتي به ، فاذا فرغ من القصيدة ردّ البيت الاول ، فلما ردّه وقال :

عن ايّ ثغر تبتسم   وبايّ طرف تحتكم

قام ابو العنبس ، وقد غمزه المتوكل ان يولّع به ، فقال للبحتري :

من ايّ سلح تلتقم   وبأيّ كفّ تلتطم

ادخلت رأسك في الحرم

فولّى البحتري لما سمع ذلك مغضباً فجعل يصيح خلفه : وعلمت أنك منهزم . فضحك المتوكل لذلك ، وأمر لابي العنبس بالصلة التي أعـــدت للبحتري .

وقال احمد بن يزيد عن ابيه قال : فجاءني البحتري فقال لي يا أبا خالد انت عشير وابن عم وصديق ، وقد رأيت ما جرى عليّ ، أترى أن أخرج الى منبج بغير اذن ، فقد ضاع العلم ، وهلك الادب ؟ فقلت : لا تفعلن من هذا شيئاً ، فالملوك تمزح باكثر من هذا ، ومضيت معه الى الفتح فشكا اليـه ذلك فقال له نحواً من قولي ، وعوّضه ، نشكر لي ذلك »[1] .

وروى المسعودي في مروجه ان المبرد قال « ووردت سرّ من رأى ، فأدخلت على المتوكل وقد عمل فيه الشراب ، فسئلت عن بعض ما وردت له ،

---

(١) اخبار البحتري ص ٨٨ ـ ٨٩ .

فأجبت ، وبين يدى المتوكل البحتري الشاعر فابتدأ ينشده قصيدة يمدح بها المتوكل ، وفي المجلس ابو العنبس الصيمرى ، فأنشده البحتري قصيدته التي أولها :

عن اي ّ ثغر تبتسم وبأي ّ طرف تحتكم

(الابيات) فلما انتهى مشى القهقرى للانصراف، فوثب ابو العنبس ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أتأمر برد ّه ، فقد والله عارضته في قصيدته هـذه ؟ فأمر برد ّه . فأخذ ابو العنبس ينشد شيئاً لولا ان في تركه بتراً لمخبر لما ذكرناه ، وهـو :

من اي ّ سلح تلتقم وبأي ّ كف ّ تلتطم
أدخلت رأى البحتري أبي عبادة في الرحـم

ووصل ذلك بما أشبهه من الشتم ، فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، وفحص برجله اليسرى ، وقال : يدفع الى ابي العنبس عشرة آلاف درهم ، فقال الفتح يا سيدي البحتري الذي هجي واسمع المكروه ينصرف خائباً ! قال : ويدفع الى البحتري عشرة آلاف درهم ، قال : يا سيدي ، وهذا البصري الذي اشخصناه من بلده لا يشركهم فيما حصلوه ؟ قال : ويدفع اليه عشرة آلاف درهم . فانصرفنا كلنا في شفاعة الهزل ولم ينفع البحتري جده واجتهاده وحزمه »[1] .

اما ابو الفرج الاصـفهاني فقد روى عن جحظة البرمكي قولـه : « حدثني ابو العنبس الصيمرى قال : كنت عند المتوكل والبحتري ينشد :

عن اى ّ ثغر تبتسـم وبأي ّ طرف تحتكم

حتى بلغ الى قوله :

قل للخليفـة جعفر الـ ـمتوكل بن المعتصم
للمرتضى ابن المجتبى والمنعـم ابن المنتقـم

---

(١) مروج الذهب ٤/٩ ـ ١٠ .

اسلم لدين محمد فاذا سلمت فقد سلم

وكان البحتري من أبغض الناس انشاداً ، يتشادق ويتزاور في مشيه مرة جائياً ، ومرة القهقرى ، ويهز رأسه مرة ، ومنكبيه أخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ثم يقبل على المستمعين ، فيقول : ما لكم لا تقولون : أحسنت هذا والله ما لا يحسن أحد ان يقول مثله • فضجر المتوكل من ذلك وأقبل عليّ وقال ما تسمع يا صيمري ما يقول ، فقلت : بلى يا سيدي ، فمرني فيه بما أحببت فقال : بحياتي اهجه على هذا الروي الذي أنشدنيه ، فقلت تأمر ابن حمدون ان يكتب ما أقول ، فدعا بدواة وقرطاس ، وحضرني على البديهة فقلت :

ادخلت رأسك في الحرم وعلمت أنك تهزم

(الابيات)(١) •

فهذه الروايات تجمع على استهزاء المتوكل بالشاعر وسخريته واصغائه الى شاعر آخر أقل شاعرية من البحتري بدرجات ، ولكنه اكثر منه مجوناً واستهزاء وهزلاً !

ويخيل الينا ان هذه السخرية من الخليفة لم تكن منذ اول صلته بالشاعر ، واكبر الظن انها كانت بعد توطيد الصلة بينهما وبعد مرور وقت غير قليل من اختلاف البحترى الى مجلس المتوكل ، واذا صح هذا فتأريخ القصيدة ينبغي أن يتأخر كثيراً عما حدّده لها شارح الديوان !

ويبدو لنا كذلك ان ما رواه الاصفهاني على لسان جحظة من ان البحتري « كان من ابغض الناس انشاداً ، يتشادق ، ويتزاور في مشيه مرة جائياً ومرة القهقرى ••• الخ » • لا يخلو من الوضع ، ولا يبعد ان يكون من تلفيقات جحظة البرمكي نفسه •

---

(١) الاغاني ١٨/١٧٣ طبعة الساسي ، وانظر : معجم الادباء ٨/١٢ـ١٤ •

فالروايتان الاولى والثانية لا تشيران الى مثل هذه الحركات العجيبة الغريبة التي لا يمكن ان تصدر عن شاعر له منزلة كمنزلة البحترى ، بل ان ما رواه المسعودي على لسان المبرد الذي كان في جملة من شهد الحادث في مجلس الخليفة لم يكن فيه اشارة من قريب او بعيد الى أية حركة من هذه الحركات العجيبة الغريبة ؟

وانه لمن الغرابة ان ينصح الفتح للشاعر بترقيق شعره وتليينه حتى يفهمه المتوكل ولا يلفت نظره الى ما يقوم به من هذه الحركات الغريبة التي قد لا تليق به كشاعر مختص به وبالخليفة .

واذا صح ان الشاعر كان مبتلى بالقيام بهذه الحركات أفليس من الغريب حقاً ان يهجو أحد المغنين بقوله :

اذا صاح سالت له مخطة   على العود ، وانقلعت بلغمه
كثير التلف والاعترا   ض، شديد التفلت والهمهمه[1]

ويبدو ان ما ذكره الاصفهاني عن حركات البحتري قد أخذ طريقه الى بعض الدراسات الحديثة التي وضعت في الشاعر المذكور ، واعتبر حقيقة مسلّما بها ، وهو اتجاه ـ كما نظن ـ فيه اجحاف كثير بحق هذا الشاعر الكبير[2] . فلو صح ما اتهم به الشاعر من هذه الحركات لوجد منه أخصامه

---

(١) ديوان البحتري ٢٠٧٧/٤ ، وانظر : « حياة البحتري وفنه » للدكتور احمد بدوى ص٢٢٠ ففيه تفنيد لما اتهم به البحتري من القيام بامثال هذه الحركات المزعومة .

(٢) ممن أخذ بهذا الرأي الدكتور طه حسين في كتابه « من حديث الشعر والنثر ص ١١٥ ـ ١١٦ ، حيث عرّض بطريقة انشاد البحتري وعدها نوعاً من اعجاب الشاعر بنفسه ، واستشهد ـ لتاكيد هذا الرأى ـ بأحد رجال الديمقراطية في أثينا في غضون القرن الخامس ، كان يقوم بحركات على غرار ما كان يقوم به البحتري ، وأشار الى ان قصيدة الصيمرى التي هجا فيها البحتري مثبتة في الموشح ، بيد اننا حين نرجع الى المصدر المذكور لا نجد شيئاً منها فيه .

ومناوئوه مادة للمطعن عليه ، والتشنيع به ، وبخاصة من قبل الصيمري نفسه الذي خلت قصيدته التي هجاه فيها من أيّة اشارة الى هذه الحركات[١] ، أو من قبل ابن الرومي الذي هجاه هجاء مقذعاً فاحشاً ولكنه لم يشر الى شيء مما رمى به الشاعر من هذا القبيل[٤] .

وأكبر الظن ان هزل المتوكل في هذا المجلس لم يكن القصد منه الحط من قيمة الشاعر او تبرمه بطريقة انشاده المزعومة ، وانما كان من أثر عمل الشراب في الخليفة كما يقول المبرد . ولا ندري هل ان الشاعر قد أقلع عن الحركات التي كان يقوم بها كما يرويه الاصفهاني بعد هذه الحادثة ؟ أو أنها بقيت ملازمة له الى أخر أيامه ؟

اما القصيدة فهي تجرى على هذا النمط السهل الليّن :

عن أيّ ثغر تبتسم　　وبأيّ طرف تحتكم ؟
حسن يضن بحسنه　　والحسن أشبه بالكرم
أفديه من ظلم الوشا　　ة ، وإن أساء وان ظلم
وكأن في جسمي الذي　　في ناظريه من السقم

---

(١) مما جاء في قصيدة الصيمري قوله :

يا ابن الثقيلة والثقيـ　　ـل على قلوب ذوى النعم
وعلى الصغير مع الكبيـ　　ـر مع الموالي والحشم

معجم الادباء ١٨/١٣ . واكبر الظن ان هذين البيتين لا يصدقان في ان البحتري كان ثقيلاً فعلاً على قلوب من كان متصلاً بهم ، وان ثقل ظله امتد حتى شمل الناس أجمعين . فليس في الأخبار التي رويت عنه في صلاته الكبيرة مع اكثر رجالات الدولة ما يشير الى شيء من هذا .

(٤) هجا ابن الرومي البحتري بأكثر من سبعين بيتاً هجاء مقذعاً فاحشاً ، ورماه بانتحال الشعر وسرقته ، وطول اللحية ، وخبث الأصل وما الى ذلك ، ولكنه لم يشر الى انه كان مبتلى بالقيام بأيّة حركة من الحركات القبيحة التي الصقت به عند انشاده الشعر . (انظر : ديوان ابن الرومي ص ٤٠٨ ـ ٤٢٦ شرح محمد شريف سليم) .

يهنيك انك لم تذق ... سهراً ، وانى لم أنم
أقسمت بالبيت الحرا ... م ، وحرمة الشهر الأصم
وعُلا أمير المؤمنيـ ... ـن فانها حقّ القسم
لقد اصطفى ربّ السما ... ء له الخلائق والشّيم
ملك بدا وجبينه : ... شمس الضحى ، بدر الظلم
قل للخليفة جعفر الـ ... ـمتوكل بن المعتصم
للمرتضى ابن المجتبى ... والمنعم ابن المنتقم
أما الرعيّة فهي من ... أمنات عدلك في حرم
نعم عليها في بقا ... ئك ، فلتتم لها النعم
يا باني المجد الذي ... قد كان قوّض فانهدم
اسلم لدين محمدٍ ... فاذا سلمت فقد سلم
نلنا الهدى بعد العمى ... بك ، والغنى بعد العدم[1]

ويبدو لنا ان القصيدة ــ على الرغم من سهولتها وليونتها ــ لا تخلو من الرقة والعذوبة في الالفاظ ، ومن الخفة في الوزن •

ولاة العهود :ــ

ومن القصائد التي تدور في فلك السهولة والليونة ايضاً هذه المدحة التي يشير فيها الشاعر الى ان المتوكل بكرمه قد أعجز غيره وأعياه ، وانه لا سبيل الى ان يسمى كسموه ، او يجاء بمجد كمجده ، وأنىّ يمكن الوصول اليه وهو في الذرا من الشرف والرفعة ، وكرم المحتد ؟ أليس هو سليل آباء كرام ينتمون الى قريش ، وان وشائج القربى تربطه بأشرف الخلق وهو الرسول الكريم ، وهو عفوّ مقتدر ، ينير سبل الرشاد الى الآخرين ، بحسن سيرته ، وسداد رأيه ، حتى لتبدو مخايله وأماراته ضرباً من سيماء الرسول ، الذي اشتمل ببردته واقتدى بآثاره ، ثم ينتقل الى

(١) الديوان : ٣/١٩٩٨ ــ ١٩٩٩ •

الاشادة بولاة العهود فيبدى اعتزازه بذلك العمل ، وفرحة الناس بهم ، ويشير الى تمسكهم بالبيعة التي أحكمت عقودها ، وأكدت شروطها فيقول :

لم لا ترق لـذلّ عبدك وخضوعه ، فتفي بوعدك ؟

* * *

قـل للخليفـة جعفـر أعيا الرجال مكانُ ندك !
أيّ امرئ يسمو سموك ،أو يجيء بمثـل مجدك ؟
وعلا قصيّك أو قريـ شك ، أو نزارك او معدّك ؟
ـباع تُمدّ بـه النبوّ ة والخلافة قبل مدّك
أحرزت ميراث الرسو ل بسهمة العبّاس جدك
ووصلت عفوك ، يا أميـ ـر المؤمنين ، لنا بجهدك
ورعيتنـا فأريتنـا سنن الرشاد بحسن قصدك
حسنت لنا الدنيا بحمـ ـد الله ربك ثم حمدك
وعليك من سيما النبـ يّ مخايلٌ شهدت برشدك
تبدو عليك اذا اشتملـ ـت ببرده من فوق بردك
اعـززت أمـة أحمـد بالفاضلين ولاة عهدك
فهم جميعاً يحمدو ن ، ويشكرون جميل رفدك
متمسكين ببيعـة أحكمتها بوثيق عقدك
فاسلم لهم ولسؤدد أصبحت فيه نسيج وحدك(١)

خروج أهل ارمينية :ـ

ويحدث ان يثب أهل أرمينية بعاملهم يوسف بن محمد في سنة ٢٣٧ هـ بسبب خروج أحد بطارقة الروم عليه الذي أخذه يوسف وأرسله الى دار الخلافة ، فأثار هذا العمل بطارقة الروم الآخرين فاجتمعوا وحاصروا يوسف في المدينة التي كان يتحصن فيها فقتلوه ومن قاتل معه ،

---

(١) الديوان ٢/٧٠٥ ـ ٧٠٦ .

ونهبوا وسلبوا وعاثوا فساداً ، فوجه المتوكل اليهم بغا الشرابي الذي استطاع ان يفتك بالخارجين فتكاً ذريعاً ، وأن يرسل جملة منهم الى دار الخلافة في سامراء[1] .

ويدخل البحتري على المتوكل بمدحة يشير فيها الى هذه الحادثة[2] ، والى ولاية العهد لابنائه الثلاثة ، ويفتتحها ــ على عادته ــ بالغزل الذي يستغرق تسعة أبيات منها وهو غزل جهد الشاعر ــ على ما يبدو ــ ان يتأنق بألفاظه ومعانيه ما وسعه الجهد والتأنق ، ثم ينتقل الى مدح الخليفة ، فيشير الى تأميم ركابه حضرته ، بعد تجشمها المشاق وجوزها رحاب البيد والفيافي ، مستهدياً بنور طلعته في تبديد حلكة الدياجي حتى اذا حطت ركابه وركاب أصحابه العطشى في ساحل بحره الوسيع نقعت غللها ، من ثرة مياهه الموردة ، ووجدوا في كنفه آمالهم المنشودة ، وأهدافهم المطلوبة ، وقد تجسم في كرمه واسراعه رفد معتفيه . وهو الى ذلك عظيم القدر في قلوب الناس ، عزيز الجانب لديهم ، وكأن قدره في نفوسهم ، وعزته لديهم، تتجددان دائماً وأبداً ، ثم ينتقل الشاعر الى وصف جيش الخلافة ، ممهداً

---

(١) تاريخ الطبري ١٨٧/٩ ــ ١٨٨ ، والكامل في التاريخ لابن الاثير ٥٨/٧ ــ ٥٩ .

(٢) يؤرخ الشارح هـــذه القصيدة في سنة ٢٣٥ هـ مستنداً الى ان الشاعر أشار في البيت الثلاثين الى عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة ، ولكن ماذا نفسر اشارة البحتري الى خروج (ارمينية) في البيت الثالث والعشرين ، والذى أرخه الطبري وابن الاثير في سنة ٢٣٧هـ ، فهل كان الشاعر يستبق الحوادث ؟

ومن الجدير بالذكر ان المتوكل حين بايع بولاية العهد لابنائه الثلاثة احتفل بذلك احتفالاً كبيرا ، فقد أشار اليعقوبي في تاريخه الى هذه الحادثة فقال : « وبايع المتوكل بولاية العهد من بعده لابنه محمد ثم لابنيه : ابى عبدالله المعتز بالله وابراهيم المؤيد بالله وأحضر وجوه الناس من كل بلد الى سر من رأى فأعطاهم على البيعة الجوائز وأعطي الجند لعشرة أشهر ووجه الخطباء ليخطبوا بذلك » . تاريخ اليعقوبي ٢١٩/٣ طبعة النجف .

بذلك الى ما يبغي الاشارة اليه من خروج بعض العمال على الخليفة المذكور . فهو أي الخليفة ـ محاط بانصاره واتباعه الذين جمعوا بين حسن النية ، وقوة الشكيمة ، ووفرة العدّة والعدد ، فهذه رماحهم اذا ما غرزت او ركزت في الارض ـ تحيل الجو لكثافتها وتشابكها ـ الى غاب كثيف اشبه بغاب الأسود ، وان بريق السلاح ولمعانه الوهاج فيه ، أشبه ببحر من الحديد يتراءى في البر المديد ، وان من يحمل هذا السلاح قوم أشداء مفطورون على حب القتال وغشيان ساحات الوغى ، وحومات الجلاد ، وانه ـ اي الممدوح ـ لم يغفل عن الخارجين عليه والخالعين لسلطانه ، فهو يتقضاهم ويتتبعهم بعزم نافذ ، وقلب حديد ، فها هو يتصدى لمن خرجوا عليه في أرمينية فيرميهم بجيش لجب ،وقوة رادعة ، تحيلهم الى قتيل وصليب وأسير ، فالممدوح بقضائه على هذه الفتنة قد أرجع الى الخلافة هيبتها ، وأعاد الى الاذهان أفعال آبائه السالفين في معالجة أمثال هذه الأمور ، ولكنه مع قدرته وبسالته وتنكيله باعدائه وأخصامه ، رؤوف برعيته ، عفوّ عن المذنبين والمسيئين ، وكأنه يريد بذلك عفو المتوكل عن قتل ابن البعيث .

وهو الى جانب مقدرته وكفاءته مزين بالأناة والوقار والتلبث والحلم ، وان هذه الصفات كثيراً ما أعادت الى اليائس من النجاة ـ لعصيانه أملاً ، والى القانط من الحياة ـ لجرمه ـ حياة ! ثم ينتقل بعد هذا الى قضية أخرى مهمة في تاريخ الخلافة العباسية ، وهي قضية ولاية العهد . فالمعروف ان المتوكل عقد البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد ، وهم : المنتصر والمعتز والمؤيد ، وذلك يوم السبت لثلاث بقين من ذي الحجة ، وقيل لليلتين بقيتا منه ، من سنة ٢٣٥ هـ ، وعقد لكل واحد منهم لواءين : أحدهما أسود وهو لواء العهد ، والآخر أبيض وهو لواء العمل ، وأقطع كل واحد منهم جزء من المملكة الواسعة[١] .

---

(١) انظر : الطبري ٩/١٧٥ـ١٧٦ ، والكامل في التاريخ ٧/٤٩ـ٥٠ .

وعلى الرغم من أن قضية تعدد ولاة العهود لم تكن الا مفرقة لمن تعقد لهم ، ومجزئة لاوصال الدولة ، ومقسمة الرعية الى طوائف وأشياع ، فان شاعرنا قد بارك هذا الاتجاه ، واعتبره عملاً جديراً بالثناء والاشـادة ، فالمتوكل بعمله هذاحفظ رعيته وتعهد أمورها حين عهد الى أبنائه الفتيـة بولاية العهد من بعده ، وكيف لا وأمامهم نور النبيّ يهتدون به ، وخلفهم هداية أبيهم تعضدهم وتسند ظهورهم . فهم أحقّ من غيرهم بهذه البيعـة في رائعة النهار ، وهم اولى بلالىء تاجها المعقود عليهم ، وأنّى يدّعي مدعٍ فيها ، وهذه أماراتها واضحة جلية تدلّ الأخرين على انها لهم دون سواهم ، ولعله كان يرمي من طرف خفي الى مناوئي العباسيين من العلويين ، وقد أكثر الحديث عنها حتى كاد أن ينفد ، واستفاق كل منافس وحسود لهم ، ولكنهم لم ينالوا سوى الخيبة والخذلان :

لما مشين بذي الأراك تشابهت ... أعطاف قضبان بـه وقـدود
في حلتي حبَرٍ وروض ، فالتقى ... وشيان : وشُ رُبى ووشي برود
وسفرن ، فامتلأت عيون راقها ... وردان : ورد جنى وورد خدود
وضحكن،فاغترفالأقاحي من ندى ... غضٍ وسلسال الرضاب برود

* * *

طلبت أمير المؤمنين ركابنـا ... من مترع للطالبين بعيـد
فالخمس بعد الخمس يذهب عرضه ... في سيرها والبيد بعد البيد
نجلو بغرتـه الدجى ، فكأننـا ... نسري ببدر في الدآدي السود
حتى وردنا بحـره فتقطعت ... غلل الظما عن بحره المـورود
في حيث يعتصر الندى من عوده ... ويرى مكان السؤدد المنشـود

* * *

في هضبة الاسلام حيث تكاملت ... أنصاره من عدّة وعـديد
مترادفين على سرادق أغلبٍ ... تعنو لـه نظر الملوك الصيد
جو اذا ركز القنا في أرضـه ... أيقنت أن الغاب غاب اسـود

واذا السـلاح أضاء فيه حسبته		برّاً تألّق فيـه بحر حديـد
ومدربين علـى اللقـاء يشفّهم		شوق الى يوم الوغى الموعـود
لحقت خطـاه الخـالعين وأثبت		عزماته في الصخرة الصيخود[1]

★ ★ ★

ورمى سواد الأرمنين وقد غدا		فـي عقر دارهم قدار ثمود[2]
فغدوا حصيداً للسيوف تكبهـم		أطرافهن ، وقائمـاً كحصـيد
ولـه وراء المذنبـين ودونهم		عفو كظل المزنة الممـدود
واناة مقتدر تكفكف بأسـه		وقفات حلـم عنده موجـود

★ ★ ★

حاط الرعيّة حين ناط أمورهـا		بثلاثـة بكروا ولاة عهـود
قدّامهم نـور النبـيّ وخلفهـم		هدى الامام القائم المحمـود
لن يجهل السارى المحجة بعدما		رفعت لنا منهـم بدور سعود
كانوا أحقّ بعقد بيعتهـا ضحىً		وبنظم لؤلؤ تاجهـا المعقـود
عرفوا بسـيماها فليس لمدّع		من غـيرهم فيها سوى الجلمود
فنيت أحاديث النفوس بذكرها		وأفاق كلّ منافس وحسـود
واليأس احدى الراحتين ولن ترى		تعباً كظن الخائب المكدود[3]

المتوكل وخلق القرآن :

مرّ بنا ان من أعمال المتوكل المهمة في مطلع استخلافه ابطاله الخوض في مسألة خلق القرآن ، التي تبناها المعتزلة ، وشدّد في أخذ الناس بهـا : المأمون والمعتصم والواثق ، وقد تعرّض كثير من رجال الدين الذين وقفوا ضده هذه المسألة الى الاضطهاد والتنكيل ، وقد اطلق عليها كثير من المؤرخين اسم « المحنة » .

وكان احمد بن ابي دواد قاضي قضاة المعتصم والواثق وفترة من عهد

(١) الصيخود : الصمّاء الراسية الشديدة .
(٢) قدار ثمود : هو قدار بن سالف عاقر ناقة الله .
(٣) الديوان ٢/٦٩٧ ـ ٧٠١ .

المتوكل ، من القائلين بها ، والمؤيدين لها . وكان احمد هذا ـ الى جانب ذلك ـ كريماً نصيحاً مقرّباً للعلماء والأدباء ، وقد امتدحه كثير من الشعراء ، منهم ابو تمام ، وابو عبدالرحمن العطوي الذي انقطع اليه ، والذي لم يشتهر شعره الاّ بعد ان أمّ سامراء وأقام فيها .

وأصيب ابن ابي دواد هذا في سنة ٢٣٣ هـ بالفالج ، ثم تعرّض هو وابنه ابو الوليد الى غضب المتوكل سنة ٢٣٧هـ ، وصودرت املاكهما وكل ما كان في حوزتهما ، ثم احدر أبناء احمد الى بغداد . وتوفي هو وابنه ابو الوليد في سنة ٢٤٠هـ[١] .

ان موقف ابن ابي دواد من مسألة القول بخلق القرآن كان مدعاة لهجائه من قبل الشعراء ، والبحتري الذي كان يقيم في هذه الاثناء في كنف المتوكل اتخذ من انحراف الخليفة عن القاضي وابنه ذريعة لمدح المتوكل ، واظهار عمله للناس ، من جهة ، وللنيل من ابن ابي دواد من جهة أخرى ! فابتدأ الابيات بالثناء على المتوكل الذي وصف أيامه بالغرالحسان ، وبانه أعاد الدين فذاً بعد ان انقسم الناس فيه فئتين متخاصمتين ، وقصم ظهور الظالمين في كل بقعة من الارض ، فانزوى الظلم ولم يعدله مكان يعرف ، وقضي على المتجبرين الطغاة بداهية دهياء كان من آثارها ما أصاب ابن ابى دواد الذي ترك جسماً هامداً لاحراك به ، ولا قدرة له على النطق الا ما كان بالاشارة والايماء ، ثم يمضي يهجوه ويتشفى بدائه العضال ، ويشمت بما آل اليه حاله ، وان انطاسي قد تحيّر في أمره فأخذ يطمئنه اشفاقاً ، ويمنيّه تلطفاً ، وبعد ان شفى البحتري غليله مما أصاب المهجوفي جسمه انتقل للنيل منه في عقيدته ، فذكر ان اصحاب ابن ابي دواد لا يخوضون في مسألة خلق القرآن إلاّ وهم نشاوى ، تدار عليهم الكؤوس في مجالس

---

(١) انظر : الطبري ١٦٣/٩ ، ١٨٩ ـ ١٩٧ وسامراء في ادب القرن الثالث الهجرى ص٨٥ .

الشرب ، ثم انهى الأبيات بثلب ابي الوزير الذي لا نعرف سبب هجائه له في هذا المكان :

أمير المؤمنين لقد سكنا ... الى أيامك الغرّ الحسان
رددت الدين فذاً بعدما قد ... أراه فرقتين تخاصمان
قصمت الظالمين بكلّ أرض ... فأضحى الظلم مجهول المكان
وفي سنة رمت متجبريهم ... على قدر بداهية عوان
فما أبقت من ابن أبي دؤاد ... سوى جسد يخاطب بالمعاني
تعرّب بارتباط الجرْز حتى ... رمته في اليدين وفي اللسان
وما كانت غداة زمان يشرى ... سراطين الصراة ويهربان
تحيّر فيه سابور بن سهل ... وطاوله ومنّاه الأماني
اذا أصحابه اصطبحوا بليلٍ ... أطالوا الخوض في خلق القران
يديرون الكؤوس وهم نشاوى ... يحدّثنا فلان عن فلان

* * *

وآخر حادث أنا غدونا ... نعوذ أبا الوزير من الزمان
وكان اذا تسربل كل قبحٍ ... وساءك في السماع وفي العيان
أهشّهم الى غير المعالي ... وأضحكهم الى غير الخوان[1]

من صفات المتوكل :

وتوالى غرر البحتري في المتوكل ويجهد ان يحتفل ما وسعه الاحتفال بهذه الغرر ، فيضفى عليها من عبقريته الشعرية ، وطاقته الفنية ما يحيلها الى نماذج مجتباة في بابها ، تخطر بالحلل الموشاة ، وتزهو بالأصباغ والشيات .

وهذه احدى خرائده التي قدّم لغرضه فيها بعشرة ابيات شكا فيها حبيبه وما يقاسيه من جفائه واخلافه ، وما كان عليه هذا الحب من الجمال ،

---

(١) الديوان ٤/٢٢٩٠ ـ ٢٢٩٢ ، وانظر : تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٥٤ .

وما تخيل من مطاوعته له التي أتاحت له بعض النيل منه ، ثم يلتفت الى الذي ينشد الجدا والعطاء فينصح له ان يؤمم صوب الامام ، ففيه ما يبتغيه من نوال ، وما يسعى اليه من ثراء ، فهو أجود من السحاب وأمضى من الحسام ، ساس الملك بالعدل والسداد ، وقام بالأمر خير قيام ، وهو اذا ما حمي الوطيس ، واستعرت الحرب ، وحزب الأمر وادلهم الخطب ، فرّج المأزق بضرب دراك ، وجلّى الكرب بطعن نفاذ ، وهو بخلاله الحميدة ، وسجاياه الكريمة فرض حبه على الناس فرضاً ، ـ وهنا يذكرنا بدمائة خلق المتوكل وحب الرعيّة له ، وتقربهم منه كما أسلفنا . ثم هو ابن عم النبيّ ونسيبه ، وفي المحل الزاكي من قريش : نفساً وديناً وعرضاً . والبحتري يحلو له ان يكرر ويعيد في هـذه الاوصاف وبخاصة قرابة الخليفة من الرسول ، واشتماله ببردته والسير على سننه وطريقته ، وانتمائه الى قبيلة قريش التي تعدّ في مقدمة القبائل العربية شرفاً ومنزلة ومكانة :

أيّها العاتب الذي ليس يرضى ... نم هنيئاً ، فلست أطعم غمضا
انّ لي في هواك وجداً قد استهـ ... ـلك نومي ، ومضجعا قد أقضّا
فجفوني في عبرة ليس ترقا ... وفؤادي في لوعة ما تقضى
يا قليل الانصاف كم اقتضي عنـ ... ـدك وعدا انجازه ليس يقضى
فاجزني بالوصل ان كان دينا ... وأثبني بالحب ان كان قرضا

* * *

أيها الراغب الذي طلب الجو ... د فأبلى كوم المطايا وأنضى
رد حياض الامام تلق نوالاً ... يسع الراغبين طولاً وعرضا
فهناك العطاء جزلا لمن را ... م جزيل العطاء ، والجود محضا
هو أندى من الغمام واوفى ... وقعات من الحسام وأمضى
دبّر الملك بالسداد فابرا ... ما صلاح الاسلام فيه ونقضا
يتوخى الاحسان قولا وفعلا ... ويطيع الاله بسطاً وقبضا

واذا تشنعت حـومة الحـر ب ، وكان المقام بالقوم دحضـا
ورايت الجياد تحت مثار النقـ ـع ينهضن بالفوارس نهضـا
غشي الدارعين ضربا هـذا ذيـ ـك ، وطعناً يورّع الخيل وخضا
فضّل الله جعفـراً بخـلال جعلت حبّـه على الناس فرضـا
يا ابن عـم النبي حقا ، ويا أز كى قريش نفسا ودينا وعرضـا
بنت بالفضل والعلـو فأصبحـ ـت سماء ، وأصبح الناس ارضا[1]

المتوكل والخلافة :

وينشىء الشاعر مدحة أخرى ، ولعلها من نظم سنة ٢٤٠ هـ ، لا تقل عن سابقتها جودة سبك ، وروعة بيان ، وقوة أسر ، ولطف خيال . وبعد التمهيد التقليدي بالغزل ينتقل الى وصف خلافة الممدوح ، ويشير الى انها سعدت به ، وانيرت بصبيح وجهه ، بل انها لبست من جلاله ما بدت كالسحر الذي تغشّاه الصباح المقبل ، وجاءته طيّعة راضية دون قتال او نزال ، وليس ذلك بعجيب اذا ما علمنا انها كانت ترقبه وتنظره منذ القدم ، وانها انحازت اليه وسعت نحوه ، لانه مستحقها دون غيره ، وقد رضي بها الشـرع ، وسكنت اليها النفوس وقرت بها العيون ، وكانت مخايله كافية للتدليل على فضله واستحقاقه لها دون الحاجة الى شـورى في ذلك ، وان الدنيا بدت بخلافته ـ وكأنها روضة مؤرجة مطلولة ، وان الربيع بحسنه وروعتـه وبفضل الخليفة وعنايته قد رقت أيامه وراقت حتى كـاد الدجى يستحيل نوراً واشراقاً ، والجندل يجرى ماء رقراقاً ، وهذا يعيد الى الاذهان ما كانت توصف به أيام هذا الخليفة من الهدوء والاطمئنان والنضارة والحسن[2] . ولم يكن ينقص الخليفة البطولة والاقدام ، فانه قد أذلّ اعداءه ، وأخضـع مناوئيه ، بنفس شجاعة ، ورأى حصيف ، وعزيمة مؤيدة ، ومنطق فصل . ثم هو قد أمات الضلال وأحيا السنة التي كادت ان يطوّح بها في عهـود

(١) الديوان ٢/١٢١٤ ـ ١٢١٦ .
(٢) انظر : ص ١٥٩ .

من سبقه من الخلفاء ، وهو يشير بهذا الى المتوكل بعد استخلافه ، حيث أمر بترك الجدال والخوض في مسألة القول بخلق القرآن التي أشرنا اليه فيما سلف[1] . فاطمأنت الرعية المجهدة ، وهدأت النفوس الحائرة ، وشمل الناس عدل واسع كانوا يفتقرون اليه ، وازاء كل ما تقدم فان الله ورسوله سيرعيان عبدهما ويحفظانه من كل سوء ، واذا كانت الخلافة تضع الخلفاء في المرتبة العليا فان فضل ممدوحه أفضل، واذا كان العاشر في سلسلة الخلفاء العباسيين فانه الاول في الفضل والندا والاحسان ، وان اشتماله ببرد الرسول وترسمه هداه لخير ما نرجوه في حكمه ونأمله :

اليوم أطلع للخلافة سعدها … وأضاء فيها بدرها المتهلل
لبست جلالة جعفر فكأنها … سحر تجلله الصباح المقبل
جاءته طيّعة ولم يهزز لها … رمح ، ولم يشهر عليها منصل
أنىّ وقد كانت تلفت نحوه … من قبل أن يقع القضاء فتعقل
حتى أتته يقودها استحقاقه … ويسوقها حظ اليه مقبل
عن بيعة الا تكن عقبية … فهي التي رضي الكتاب المنزل
لم تنصرف عنها النفوس ولم تزغ … فيها القلوب ولم تزل الارجل
فكأنما الدنيا هنالك روضة … راحت جوانبها تراح وتوبل
او ما ترى حسن الربيع وما بدا … وأعاد في أيامه المتوكل
أشرقن حتى كاد يقتبس الدجى … ورطبن حتى كاد يجري الجندل
من بعدما اسودّ الزمان المنتضى … فينا ، وجفّ لنا الثرى المتبلل

* * *

الله سهل بالخليفة جعفر … من دهرنا ما لم يكن يتسهل
ملك اذل المعتدين بوطأة … ترسو على كتد الزمان وتثقل
نفس مشيعة ورأي محصد … ويد مؤيّدة ، وقول فيصل

* * *

(١) انظر : ص١٨٩ .

اسلم أمير المؤمنين لسنة — أحييتها والناس حيرى ضلل
ورعية أحسنت رعي سوامها — حتى غدت والعدل فيها مهمل
فضل الخلائف والخلافة واقف — في الرتبة العليا ، وفضلك أفضل
اوفيت عاشرهم فان ندبوا الى — كرم واحسان فأنت الاول[1]

الوفد الرومي في سامراء :

وفي سنة ٢٤١هـ يتفق الروم والمسلمون بعد محادثات ومفاوضات حول أمر الفداء بين رعاياهم ، ويبدو ان الذي طلب هذا الفداء هم الروم في عهد ملكتهم تدورة التي كان في حوزتها عدد كبير من المسلمين ، وقد عرضت عليهم التنصر فمن امتنع عن ذلك كان مصيره القتل ، وقد قتلت عدداً كبيراً منهم ، ثم ارسلت تطلب المغاداة لمن بقي منهم في ديارها ، فأرسل المتوكل رسولاً عهد اليه ان يتقصى عدد المسلمين في بلاد الروم ، ثم اتفق الطرفان على الفداء ، وتمّ ذلك على نهر اللامس[2] من بلاد الروم ، يوم الاحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال من هذه السنة وحضره من المسلمين قاضي القضاة جعفر بن عبدالواحد[3] .

وبالطبع ان حادثاً مهماً كهذا لم يكن ليفوت البحتري تسجيله والاشادة بمن قام به ، ويبدو من قصيدته ان وفداً من الروم قد وصل فعلاً الى الحاضرة العباسية سامراء ، وان الخليفة قد أولم له وأظهر من الأبهة

---

(١) الديوان : ٣/١٧٥٤ ـ ١٧٥٧ .

(٢) جاء في معجم البلدان لياقوت ٨/٥ من طبعة بيروت ما نصه : « لامس : من قرى الغرب فاذا جزت قلمية الى البحر نحو مرحلة بان لك مكان ، وكان يعرف با للامس وهي قرية على شط بحر الروم من ناحية ثغرطرسوس ، كان فيه الفداء بين المسلمين والروم يقدمون في البحر فيكونون في سفنهم والمسلمون في البر ، ويقع الفداء » .

(٣) انظر : تاريخ الطبري ٢٠٢/٩ ـ ٢٠٣ ، والكامل في التاريخ ٧٦/٧ ـ ٧٧ .

والبذخ ما جعل أعضاء الوفد يصابون بالدهشة والحيرة مما رأوا .

فبعد المقدمة الغزلية التقليدية ينتقل الشاعر الى الثناء على المتوكل وتقريظه فيقول : ان الرعية تعيش في بحوحة من الأمان والطمأنينة والعدل بفضل ما يسوسهم به هذا الخليفة الذي يعيد الى الاذهان سياسة الخليفة العادل عمر بن الخطاب ، وان الله اجتباه لهذا المركز الجليل وهو الخلافة ، لانه رأى فيه ناصراً لها ، وذائداً عنها ، وهي ـ اي الخلافة ـ أفضل رتبة يحرزها انسان ، وأسمى ما يتمناه ، ولكنه مع كل هذا فهو أفضل منها ، وهو عفوّ عن الجانين والمذنبين ، ولكنه عفو القادر المتزن الذي لا يتهور ولا يتعجل ، فعفوه كعفو السحاب الذي في ارعاده القصف المحطم ، وفي بريقه الحريق المدمّر ، وهو يقتدي في كل أعماله وأقواله ـ بجده العباس عم الرسول الكريم ووصيه . وبالطبع ان شخصاً كهذا لا يدانيه آخر في رفعة المجد وشرف المحتد .

ويبدو ان الشاعر حاول ان يجهر لاول مرة باسم من يناوئون المتوكل الذين أسماهم الروافض ، وهم فرقة من الشيعة ، وقد ألمح ـ فيما يخيل الينا ـ الى منافسي المتوكل وهم العلويون ، قبل هذه المرة في قصيدته الدالية التي اسلفنا ذكرها[1] . فهؤلاء الروافض ليسوا بمستطيعين ان ينالوا منه ، ومما هو فيه من سموّ الحظ ، ورفعة المنزلة ، شيئاً مهماً صغر وضؤل ، ثم يأخذ بالثناء على عمل الخليفة الذي كان له شرف مفاداة أسراه من قبل الروم، فالمسلمون في ظل حكمه العادل ، وشمول رعايته ـ في عيشة راضية وحرمة مصونة ، وهل هناك شيء أكثر دلالة على أياديه لهم ، وحياطته حريمهم ، وتحصينه بيضتهم من هذا الفداء الذي كاد ان يعجز غيره ويستحيل أمره ؟

والشاعر بعد هذا يصف لنا بشيء من التفصيل وفد الروم الذي قدم الى سامراء ، ويبدو من هذا الوصف ان الشاعر كان قد شهد هذا الوفد

---

(١) انظر : ص ١٨٧ .

وما أعدّ له ، فهو يقول لقد شهد هذا الوفد بعد عناده وتعنته ، معترفاً بجليل فضائل الخليفة ، وعظيم اعماله ، وهي مشهورة معلومة ، وقد بدهوا حين رمقوه فتكلموا بلغتهم ، ولو قدر لهم معرفة العربية لراحوا مكبّرين ومهللين بما رأوه من جلاله وعظمته ، وانهم ما كادوا يلمحونه حتى ضؤل في نفوسهم من كانوا يكبرونه ، وصغر في عيونهم من كانوا يجلّونه ، وانه جبههم بحجج دامغة وبراهين ساطعة ، لا مثيل لها في قوتها وبلاغتها ، ولعل في هذا اشارة الى ما دار بين أعضاء الوفد وبين الخليفة من حوار وجدال حول الاسرى ، والعلاقات الأخرى بين الفئتين .

ويستطرد البحتري فيصف لنا بشيء من المباهاة التي لا تخلو من الغلو والمبالغة ، ما أعدّ لاعضاء هذا الوفد من مأدبة حافلة عظيمة ، فهم حين حضروا هذه المأدبة كانوا قد ذهلوا ودهشوا من عظمة ما رأوه وشاهدوه ، حتى كانت أكفهم تخطىء سبيلها الى الافواه ، وقد رانت الحيرة عليهم فبهتوا ووجموا ، وجمح الخيال بشاعرنا فادعى ان من غاب من الروم حسد من كان حاضراً منهم ، ويظهر ان امثال تلك الوفود ما كانت لتؤوب الى بلادها دون ان تنال شيئاً من الهدايا :

ان الرعيّة لم تزل في سيرة عمرية مذ ساسها المتوكل
الله آثر بالخلافة جعفراً ورآه ناصرها الذي لا يخذل
هي أفضل الرتب التي جعلت له دون البرية وهو منها أفضل
ملك اذا عاذ المسيء بعفوه غفر الاساءة قادر لا يعجل
وعفا كما يعفو السحاب ، ورعده قصف ، وبارقه حريق مشعل
يتقيّل العباس عم محمد ووصيّه فيما يقول ويفعل
شرف خصصت به ومجد باذخ متمكّن فوق النجوم مؤثّل

* * *

فهل الروافض ناقصوك قلامة ان غيّروا بضلالهم أو بدّلوا
لن يستطيعوا نقل خطك بعدما أرسى به قدس وخيّم يذبل

لا يعدم منك المسلمون فانهم ... في ظل ملكك أدركوا ما أملوا
حضت بيضتهم وحطت حريمهم ... وحملت من أعبائهم ما استثقلوا
فاديت بالاسرى وقد غلقوا فلا ... منّ ينال ولا فداء يقبل
ورأيت وفد الروم بعد عنادهم ... عرفوا فضائلك التي لا تجهل
نظروا اليك فقدسوا ، ولو انهم ... نطقوا الفصيح لكبروا ولهللوا
لحظوك أول لحظة فاستصغروا ... من كان يعظم فيهم ويبجل
أحضرتهم حججا لو اجتلبت بها ... عصم الجبال لاقبلت تتنزل
ورأوك وضاح الجبين كما يرى ... قمر السماء التم ليلة يكمل
حضروا السماط فكلما راموا القرى ... مالت بأيديهم عقول ذهّل
تهوي أكفهم الى أفواههم ... فتجور عن قصد السبيل وتعدل
متحيرون فباهت متعجب ... مما يرى او ناظر متأمل
وبود قومهم الألى بعثوا بهم ... لو ضمهم بالامس ذاك المحفل
قد نافس الغيب الحضور على الذي ... شهدوا، وقد حسد الرسول المرسل
عجلت رفدهم ، وأفضل نائل ... حُبي الوفود به الهنيء الاعجل
فالله أسأل ان تعمّر صالحا ... ودوام عمرك خير شيء يسأل(١)

ولا أظنني بحاجة الى التدليل على الوصف الحي لأعضاء الوفد وحركاتهم وتصوير ما ران على وجوههم من أمارات الدهشة والاعجاب ، فكل ذلك واضح بيّن !

المتوكل والقبائل العربية :

على الرغم من الهدوء الذي كان يسود أقطار الخلافة في عهد المتوكل ، فان بعض التحركات والمنافرات كانت تحدث هنا وهناك ، فكان الخليفة يقضي عليها ، اما بارسال الجيوش ، واما بتدخله الشخصي ووساطته ، ولعل من اهم الحوادث في غضون تلك الحقبة ، ما حدث بين قبائل بني تغلب

---

(١) الديوان : ٣/١٥٩٩ ــ ١٦٠٢ .

من قتال كاد يودي بها ويستأصل شأفتها ، وقد أشار البحتري الى هـذا الحادث بقصيدتين : وجّه احداهما الى الفتح الذي لعب دوراً كبيراً في الوساطة أيضاً ، وقد مرّ بنا عند الكلام على صلة الشاعر به[1] .

أما الثانية فهي هـذه القصيدة ، ويبدو ان البحتري جهد ان يجعل القصيدتين في مستوى واحد من حيث النسج الشعر العالي ، ومن حيث معالجة المعضلة ووصف ما حدث بين أفراد القبائل من قتال مستعر ، بل حاول ان يقارب بين ما انطوت عليهما القصيدتان في عدد الأبيات أيضاً .

وقد مهّد للغرض الأساس بستة أبيات ، أشار فيها الى صدود حبيبته عنه حين رأت انتشار الشيب في عذاره ، وشكا من جفائها وقلة وفائها ، وهو ما ذكره في مقدمة مدحته للفتح أيضاً . وقد حملته ناقة عريقة النسب ، فجازت به السباسب والقفار ، حتى أجهدت فتشكت من الأين والنصب ، وقد حفيت أخفافها ودميت ، وقد آل على نفسه ألاّ يزور مقام الملوك ما لم يجهد مطيته وينصبها حتى يوهنها ويضعفها ، وهي تؤم القصور البيض ـ قصور اولياء نعمه في العراق ، وكنّى عنها بأرض بابل ، ثم الحاضرة العباسية سامراء حيث فيها من قصور الخليفة المتوكل : « الفرد والبديع » . واذا ما بدا « البرج المطل »[2] ، في الليالي الحالكة الداجية ، فيرشدها الى مقصده ، ويقودها الى مبتغاه ! وانها تقصد زيارة أمير المؤمنين على الرغم مما تكابده من بعد النوى وشط المزار ، وان فضائله واحسانه ونداه عمت أقطار الخلافة ، فالناس في كل بلد يلهجون بها ، ويشيدون بصاحبها ، وانه حامي بيضة الاسلام ، وذائد عن حياضه ، وقد تقرر ذلك في نفوس الأخصام والاعداء ! فالرعية في ظله بأمن ودعة وسلام ، وانه لجدير بالمنصب الرفيع

(١) انظر : ص ١٢٣ .

(٢) يحسن الرجوع الى كتابنا « سامراء في ادب القرن الثالث الهجري » للوقوف على تفصيلات قصور المتوكل .

الذي تبوأه وهو الخلافة ، وانه بتسنّمه لها قد جلا الشكوك والريب عن الناس ، وأزال عن القلوب خوفها وعن البصائر والأبصار غشاوتها ، فلا ظلم ولا ظلام بعد اليوم ، وبعد هذه التوطئة يدلف الشاعر الى مبتغاه ومقصده فاذا به يتحسّر على ما أصاب أخوالــه من ربيعـة من عفاء الديار ، واقواء الربوع ، وتفرقة الشمل ، وبعد ان كانت تعبّ من رحيق الحياة ، وتروى من مناهل النعيم ، اذا بها تساقى كؤوس المنون ، وتتوارد حياض الحتوف فما يكادون يفترقون من وقعة دامية حتى يثنيهم اليها كرّة أخرى الــدم المطلول والنجيع المهدور ، وان نساءهم ليدفعن رجالهن اذا ما قعدوا عـن الأخذ بأذحالهم والقصاص من أخصامهم ، تزجيهم الى ذلك حميّة جاهلية مفطورة على الشغب ، وعزّة كليبية متأصلة في النفوس ، عجز الرجال عن اخضاعها ، واعيوا من كبح جماحها ، وهؤلاء فرسانها تضطرم نفوســهم حقداً ، وتعتلج نقمة حتى لتضيق بها صدورهم تضـيق منها جواشـنهم ودروعهم ، وانها لتكثر من القتل ــ ثأراً ــ في اعزّ نفوسها وأبنائها بأيد تكاد من الحسـرة والألم ان تحجم عن الطاعة والاذعان ، واذا ما فاضت دماء أبنائها من استعار الحرب واشتجار الرماح ، تذكرت ما حل بهم من القتل والدمار ففاضت دموعها ندماً وألماً وحسـرة ، فهذه الرماح المشتجرة ، والسيوف الماضية ، كانت السبب في تقطيع اواصر الرحم ، ووشائج القربى • واراقة الدماء •

وبعد هذا الوصف الحي المؤثر لما حصل بين هذه القبائل العربيــة المتناحرة التي تنتمي الى محتد واحد ، ينتقل البحتري الى الاشادة بفضـل المتوكل في القضاء على هذه الفتنة ، واخماد اوارها المستعر ، فيقول : لولا تدخل الخليفة في هذا النزاع لحل في هذه القبائل الدمار والقتل والفناء ، ولكن عمله هذا ــ بشفاعة الفتح ــ قد أعاد اليها حياتها ، وسكّن منها نائرتها، وان عهده الى الفتح القيام بهذه الشفاعة التي قضت على الاوتار والضغائن

لصنيع عظيم سيذكره ابناء هذه القبائل على مدى الازمان ، فقد تهيأ له ان يلمّ شعثهم ، ويؤلف شتاتهم ، بعد ان اوغلوا في العداء ، وتشربوا بالأحقاد ، فاذا بغاويها ترفع عن بصره غشاوة الثأر ، فيبصر صوى الهدى واعلام الرشاد ، واذا بمغاليها يقصّر من غلوائه ، ويخفّف من اندفاعه ، واذا بالرماح تركز ، والسيوف تغمد ، فتقرّ القلوب الواجفة ، وتسهد العيون الساهرة ، واذا بالسلام يفشو ، والهدوء يستتب ، والأمان ينتشر ، وقد جاءت – بعد ان ثابت الى رشدها ، وكفت عن شجارها – تعلن ثناءها الذي كأنـــه قطع الرياض المطلولة ، وبدت ازاءه باوجه يلفعها الخجل ؛ لما اجترحته من الذنوب ، وقامت به من العصيان ، وليس لها من عذر غير ان حلم حلمائها قد تسفه بما جناه خلعاؤها ومفسدوها ، وربّ مشفقة حانية على ولدها تحاذر عليه من لقاء الجموع في حومة الوغى ، وتشابك المتطاحنين في معمعة الجلاد ، أعيدت الطمأنينة الى قلبها المروع ، والسكينة الى نفسها الهلوع بما قام به من اصلاح ذات البين ، وافشاء السلام بين هذه القبائل المتناحرة :

منى النفس في أسماء لو تستطيعها ... بها وجدها من غـــادة وولوعهـا
وقد راعني منها الصدود ، وانمـا ... تصد لشيب في عذاري يروعهـــا

* * *

تشكى الوجا والليل ملتبس الدجى ... غريرية الانساب مرت بقيعهـــا
ولست بزوّار الملوك على الوجـــا ... لئن لم تجل أغراضها ونسوعها[1]
تؤم القصور البيض من أرض بابل ... بحيث تلاقي « غردها » « وبديعها »
اذا أشرف « البرج المطل » رمينه ... بأبصار خوص قد أرثت قطوعهـا
يضيء لها قصد السرى لمعـــانه ... اذا اسودّ من ظلماء ليل هزيعهـا
تزور أمـــير المؤمنـــين ، ودونه ... سهوب البلاد : رحبهـا ووسيعهـا
اذا ما هبطنـــا بلدة كر أهلهـا ... أحاديث احسان نداه يذيعهـــا

---

(١) الأغراض : جمـع غـَرْض : وهـو للرحل كالحزام للسرج ٠
النسوع : جمع نسع : سير ينسج عريضاً تشد به الرحال ٠ الوجا : الحفا ٠

حمى حوزة الاسلام فارتدع العدى وقـد علموا ألا يرام منيعهـا

* * *

أسيت لاخـوالي ربيعة اذ عفت مصانعها منها ، وأقوت ربوعهـا
بكرهي ان بانت خلاء ديارهـا ووحشا مغانيها ، وشتى جميعهـا
وأمست تساقى الموت من بعدما غدت شروبا تساقى الراح رفهاً شروعها
اذا افترقوا عـن وقعة جمعتهم لاخرى دمـاء ما يطلّ نجيعهـا
تذمّ الفتاة الرود شيمة بعلهـا اذا بات دون الثأر وهو ضجيعها
حميّة شـغب جاهليّ وعـزّة كليبية أعيـا الرجال خضوعهـا
وفرسان هيجاء تجيش صدورهـا بأحقادها حتى تضيق دروعهـا
تقتل من وتر أعز نفوسهـا عليها بأيدٍ ما تكاد تطيعهـا
اذا احتربت يوما ففاضت دماؤهـا تذكرت القربى ففاضت دموعهـا
شواجـر أرماح تقطـع بينهـم شواجر أرحـام ملوم قطوعهـا

* * *

فلولا أمـير المؤمنين وطـوله لعادت جيوب والدماء ردوعهـا
ولا صطلمت جرثومة تغلبيـة بها استبقيت أغصانها وفروعهـا
رفعت بضبعي تغلب ابنـة وائل وقد يئست أن يستقل صريعهـا
فكنت أمـين الله مولى حياتهـا ومولاك فتح يومذاك شفيعهـا
لعمري لقد شرفته بصنيعـة اليهم ، ونعمى ظل فيهم يشيعها
تألفهـم من بعدما شردت بهـم حفائظ أخلاقٍ بطيء رجوعها
فأبصـر غاويها المحجة فاهتـدى وأقصر غاليها ، وداني شسوعهـا
وأمضى قضاء بينهـا فتحـاجزت ومخفوضها راضٍ به ورفيعها
فقد ركزت سمر الرماح، واغمدت رقاق الظبا : منجفوها وصنيعها
فقرت قلوب كان جماً وجيبهـا ونامت عيون كان نزراً هجوعهـا

* * *

اتتك وقد ثابت اليهـا حلومهـا وباعدها عمـا كرهت نزوعهـا

ومشفقة تخشى الحمام على ابنها لاول هيجاء تلاقى جموعها
تعيد وتبدى في ثناء كأنه سبائك روض الحَزْن جاد ربيعها
ربطت بصلح القوم نافر جأشها فقرت حشاها واطمأنت ضلوعها
بقيت ، فكم أبقيت بالعفو محسنا على تغلب حتى استمر ظليعها[1]

ولا احسبني بحاجة للتنبيه الى ما انطوت عليه القصيدة من حبكة النسج ، ودقة الوصف وروعة البيان ، وجزالة اللفظ ، بل وصدق الشعور ، وحرارة العاطفة ، حتى ليخيل الينا أن أحداً لم يسبق البحتري في اجادة تصوير ما حدث بين الاخوان من التناحر والتصارع والشقاق !

شغب قبيلة ربيعة :

ومن الحوادث الداخلية ايضاً اضطراب قبيلة ربيعة وشغبها الامر الذي حدا بالخليفة الى ان يبعث جيشا للقضاء على ذلك . ومن الغريب ان التواريخ لم تشر الى هذا الحادث ـ كما لم تشر الى الحادث السابق ـ ولولا شعر البحتري لجهلنا هذا الأمر ، ولما وقفنا على شيء منه .

والبحتري يطلب الى هذه القبيلة التي وصفها بالاساءة والجناية ان تقدم فروض الشكر والاعتراف بالجميل الى الذي غفر لها هذه الاساءة والجناية . فان خروج هذه القبيلة وترويعها المناطق المجاورة كان السبب في غضب الخليفة ، والمحفز له في ما قام به تجاهها ، واذا كانت عينه ساهرة وراعية لمن هو في أقاصي البلاد ، فكيف يغفل عمن يكون بالقرب منه ؟ ومن أجل هذا فقد بعث جيشاً لجباً في اثر المسيئين ، ضاقت به ـ لكثرته ـ رحاب الارض ، ولاح فرسانه كالصقور على جياد كالكواسر ، وما كادوا يرون رهج الكتائب المتصاعد حتى طلبوا الأمان ، ولكن بعد فوات الاوان ، وكيف يطلبون ذلك ، وهم بين وهج الحديد ، وتشاجر الأرماح ؟ ان اليوم الذي مرّ عليهم كان يوماً عصيباً مريعاً حتى لكأنه ـ من شدة وطأة الجيش عليهم ، وما

---

(١) الديوان : ١٢٩٦/٢ ـ ١٣٠١ .

كانوا يلاقونه من العنت والفزع - زمن من الازمان ، وحقبة من الحقب ، فانتصر جيش الخليفة ، واندحر الخارجون ، وحين راموا الفرار لم يجدوا لهم مخرجاً ينفذون منه ، ولا وزراً يلجأون اليه ، فلم يكن لهم الا التسليم والاذعان ، فأخذوا وكبلوا بالأصفاد والحديد ، وجيء بهم الى الحاضرة .

والبحتري بعد هذا الوصف لحمية المتوكل وغضبه وقضائه على هذا التمرد يعود فيلتمس منه ان يمن على هؤلاء الأسرى بفك قيودهم ، والصفح عن زلتهم ، ويذكره بانه قد فعل مثل ذلك وقبل ذلك بقبيلة عربية أخرى هي قبيلة تغلب ، ثم يمضي الشاعر ليخفف من حدة تأثر الخليفة - فيشير الى تشابك الأنساب والأرحام بين القبائل العربية ، ومنها هذه القبيلة التي تربطها بالخليفة وشيجة القربى ، وصلة الرحم . وبعد ان شعر البحتري بانه قد نجح في تليين جانب الخليفة ، وترقيق قلبه على الأسرى ، أخذ يثني على افضاله وفضائله ، وانه - اي الشاعر - أخذ يفضل على الآخرين من افضال الخليفة عليه ، وانه قد اعداه بالكرم حتى أفقره ، وهذا ما يذكرنا بقول احدهم مثل هذا المعنى[1] ، واذا صدق البحتري في قوله هذا ، فان ذلك خير دليل على نفي تهمة البخل التي الصقت به :

أربيعة الفرس ! اشكري يد منعم ... وهب الاساءة للمسيء الجاني
روعتم جاراته ، فبعثتم ... منه حمية آنف غيران
لم تكرعن قاصي الرعية عينه ... فينام عن وتر القريب الداني

(١) جاء في اخبار البحتري ص٨٢ ما نصه : وسمع ابو الغوث يحيى ابن علي ينشد قول ابن الخياط المدني (في المهدي) :

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت ، واعداني فاتلفت ما عندي

فقال : لأبي ما لا يقصر عن هذا ، وهو قوله :

من شاكر عني الخليفة في الذي (وذكر الابيات الاربعة الاخيرة) .

وأكبر الظن ان البحتري قد استحضر في ذهنه صورة بيتي ابن الخياط حيث أنشأ ابياته هذه .

ضاقت بأسعد أرضها لما رمى ساحاتها بالرجل والفرسان
بفوارس مثل الصقور وضمّر مجدولة ككواسر العقبان
لما رأوا رهج الكتائب ساطعا قالوا : الامان ، ولات حين أمان
يئلون من حرّ الحديد وخلفهم شعل الظبا وشواجر الخرصان
يوم من الايام طال عليهم فكأنه زمن من الازمان
راموا النجاة وكيف تنجو عصبة مطلوبة بالله والسلطان
جاءتك أسرى في الحديد اذلّة مشدودة الايدي الى الاذقان
فافكك جوامعهم بمنّك انها سمرت على أيدي ندىّ وطعان
لك في بني غنم بن تغلب نعمة فهلمّ أخرى في بني شيبان
من شاكر عني الخليفة في الذي أولاه من طَوْل ومن احسان
حتى لقد أفضلت من أفضاله ورأيت نهج الجود حين أراني
ملأت يداه يدي ، وشرّد جوده بخلي ، فأفقرني كما أغناني
ووثقت بالخلف الجميل معجّلاً منه فأعطيت الذي أعطاني (١)

سفر المتوكل الى الموصل :

يشير المتوكل في احدى مدائحه للمتوكل الى سفر الخليفة الى مدينة الموصل على رأس جيش لجب ، يبدو انه كان ينوي فيه غزو بلاد الروم ، وهذه الرحلة او الغزوة لم تشر اليها المصادر المختلفة ، ما عدا البحتري (٢).

والقصيدة لم يمهد لها بالغزل على طريقة الشاعر التقليدية ، وانما افتتحها بالقول : بان أمور الدين قد جمعت بعد تفرّقها وشتاتها بالخليفة

---

(١) الديوان : ٢٢٥٢/٤ ـ ٢٢٥٥ .

(٢) جاء في دائرة المعارف الاسلامية ٣٦٦/٣ تعليقاً على ما ذكره البحتري في ديوانه من اسماء للاشخاص والحوادث في عصره ما نصه : « ولذلك فان ديوانه مادة خصبة لتاريخ هذا العصر ، وان كان لا يضيف شيئاً من التفاصيل لحوادثه ، وحسبه انه ذكر الاسماء الكاملة للأشخاص وذكر حوادث أغفلها المؤرخون » .

المتوكل ، الموفق والميسّر لكل صالحة من الأعمال ، والمحبّب والمؤمّل في الصالحين من الناس ، واذا أراد تنفيذ ما يعزم عليه فليس يمنعه من ذلك عاذل أو مثبّط • وخرج بجيوشه مبكراً قاصداً الايقاع بالروم ، في يوم مشهور معلوم ، ولعل هذه اشارة الى ان السفر كان في وقت معيّن ، ويبدو انه كان في أيام العيد بدليل البيت السابع في هذه القصيدة ، وأمل الشاعر ألا تقف زحوف هذه الجيوش حتى تصل الى الخليج (اي البوسفور) ، ولعله تحرّى في هذا بعث العزيمة في نفس الخليفة ، وازجائه الى التوغل في اعماق الدولة الرومانية ، ثم يمضي الشاعر فيدعو للخليفة بادامة الأعياد واستمرارها ، ومجازاته بنعيم الفردوس وخلودها ، لما عليه من التبتل والتنسّك والعبادة ، والسير على هدى الرسول وسننه ، والتمسك بكتاب الله وأحكامه • وشخص هذه صفاته حقيق بأن يرث الخلافة عن النبيّ ، وان الخلافة لجديرة به دون سواه ، لانه خير من يحمي حوزتها ، ويذود عن حماها ، فالشاعر لم يفصح لنا ماذا كانت نتيجة هذا السفر او الغزوة الى بلاد الشام • واكبر الظن انها لم تعد الموصل ، وان هذه الجيوش لم تشترك في حرب أو صدام مع أحد من الأعداء ، وان ما أمله الشاعر في هذه الحملة لم يلق صدى لدى الخليفة !

والبحتري الذي عرف بتعصبه لبلده قد اتخذ من هذا السفر ذريعة لاغراء المتوكل في التوجه الى الشام ، فهو يعلن عن شعوره الذي لا يخلو من الرغبة الملحة في زيارة الخليفة لبلده ، فهو يقول : انه لو كان يحسد أو ينافس أحداً ، لكان أهل الموصل أول المحسودين والمنافسين بهذه الزيارة • ويبدو ان هذا السفر كان في أيام الربيع ، والبحتري الذي الح الى منافسته وحسده أهل الموصل بهذه الزيارة ما لبث ان أعلن بصراحة عن الوقت الذي سوف يحظى به بلده بمثل هذه الزيارة •

ومن غير شك ان هذه الاشارات ما لبثت ان تكررت بعد ذلك في شعره

حين عزم المتوكل على اتخاذ دمشق عاصمة له بدلاً من سامراء .

والحق ان هذه القصيدة وان انطوت على كثير من الاشارات حول هذا السفر ، فانها لم تجلُ لنا جلاء واضحاً عن اهداف هذا السفر وعن الغاية منه . ولكنها من جهة اخرى تكشف لنا عن أمر أغفلته المراجع القديمة المختلفة كما أسفنا :

جمعت أمور الدّين بعد تزيّل — بالقائم المستخلف المتوكّل
بموفق للصالحات ميسّر — ومحبّب في الصالحين مؤمّل
ملك اذا أمضى عزيمة أمره — لم يثن عزمته اعتراض العذّل
بكرت جيادك والفوارس فوقها — بالمشرفيّة والوشيج الذّبّل
غرّاً محجلة تحاول وقعة — بالروم في يوم أغرّ محجّل
وأظنّ أنك لا تردّ وجوهها — حتى تنيخ على الخليج بكلكل
دامت لك الاعياد مسرورا بها — فى العز منك وفي البقاء الاطول

* * *

عرفتنا سنن النبي وهديه — وقضيت فينا بالكتاب المنزل
حقا ورثت عن النبي ، وانما — ورث الهدى مستخلف عن مرسل
عاذت بحقويك الخلافة ، انها — قِسْم لأفضل هاشم فالأفضل
وتمتعت في ظل عزك فاغتدت — في خير منزلة وأحصن معقل
فاعمر جوانبها بجدّ صاعد — والبس بشاشتها بحظ مقبل
لو كنت أحسد أو انافس معشراً — لحسدت او نافست أهل الموصل
غشي الربيع ديارهم وغشيتها — وكلاهما ذو بارق متهلّل
فمتى تخيمُ بالشآم فيكتسى — بلدى نباتاً من نداك المسبل(١)

انتقال المتوكل الى دمشق :

« حاول غير واحد من خلفاء بني العباس الذين اتخذوا سامراء عاصمة

---

(١) الديوان : ٣/١٦٢٦ ـ ١٦٢٨ .

لهم الانتقال عنها الى مكان آخر ، في ظروف مختلفة ، وازمان متباعدة ، ولو اردنا أن تتلمس الاسباب التي دعت اولئك الخلفاء الى التفكير في الانتقال عن هذه المدينة لما وجدنا غير سبب كبير تنطوي تحته أسباب فرعية أخرى : هذا السبب الأكبر هو نفس السبب الذي أدى الى ابتناء المدينة ، واتخاذها مقراً للحكم بدلاً من العاصمة الأصلية بغداد ، ونعني به استفحال أمر الاتراك واستشراء خطرهم على الخلفاء .

وقد مرّ بنا ان من اسباب ابتناء سامراء زيادة جنود المعتصم من الاتراك ، وضيق بغداد بهم ، واشمئزاز أهلها من أعمالهم وحماقاتهم ، مما حدا بالمعتصم الانتقال بهم الى مدينة جديدة بعيدة عن بغداد وأهلها .

واستمرت علاقة الأتراك بالخلفاء حسنة ، ولا سيما في عهد الخليفتين : المعتصم والواثق . بيد ان هذه العلاقة الحسنة ما لبثت أن توترت في عهد الخليفة المتوكل الذي حاول - بجد - أن يقاوم هذا العنصر الجديد ، ويقضي على عتوّه وجبروته وعلى رأس هذا العنصر المتغطرس (ايتاخ) التركي الذي كان مسؤولاً عن الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة . واستطاع المتوكل ان يدبر لهذا القائد مكيدة يبعده بها عن سامراء ، ومن ثمّ يأمر بالفتك والتخلص منه ، غير ان القضاء على قائد الاتراك هذا لم يكن - على ما يبدو - كافياً للتخلص من نفوذهم وشرورهم : لذلك نجد المتوكل قد عمد الى وسيلة أخرى للنيل من الاتراك، فعزم على الانتقال الى عاصمة أخرى في قطر آخر غير العراق ، علّه يجد فيها من العنصر العربي ما يغنيه عن العنصر التركي ، فاختار لهذا الأمر مدينة دمشق ، وكتب الى عامله هناك : باتخاذ القصور واعداد المنازل ، واصلاح الطريق ، واقامة المرافد ، ثم شخص اليها من سامراء في سنة ٢٤٣ هـ ودخلها في سنة ٢٤٤هـ .

ولكنه لم يمكث فيها الا فترة وجيزة اضطر بعدها ان يعود الى عاصمته القديمة سامراء !

ويذكر المؤرخون أسباباً عديدة لترك المتوكل دمشق والأوبة الى سامراء ، فقد قيل : انه استوبأ البعد ، وذلك ان الهواء بها بارد ندي ّ والماء ثقيل ، والريح تهب فيها مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل ، وهي كثيرة البراغيث ، وغلت فيها الاسعار ، وحال الثلج بين السابلة والميرة • على ان هناك سبباً آخر أشارت اليه المراجع القديمة لعله كان السبب الحقيقي لترك المتوكل دمشق والرجوع الى العراق • فقد ذكر ان الجنود الأتراك حاولوا ان يدبروا مكيدة لاغتيال المتوكل في دمشق ، قال اليعقوبي : وبلغه ـ المتوكل ـ عن بعض الموالي من الاتراك امر كرهه فشخص عن دمشق الى العراق • وقال المسعودي : وقد كان الاتراك قد رأوا انهم يقتلون المتوكل بدمشق ، فلم يمكنهم فيه حيلة بسبب بغا الكبير •

وتذكر بعض المراجع سبباً آخر دعا المتوكل الى الانتقال عن سامراء الى دمشق ذلك انه كان محروراً ، فوصف له برد هوائها ، وطيب مناخها ، وقال اليعقوبي : وعزم المتوكل على المسير الى دمشق ووصف له برد هوائها وكان محروراً فكتب الى عامله محمد بن احمد بن مدبر بأمره باتخاذ القصور واعداد المنازل •

وربما كان من اسباب تفكير المتوكل في الانتقال عن سامراء الى دمشق ، عصبية البحتري للقطر الذي ينتمي اليه[1] •

هذه ـ في رأينا ـ هي الاسباب الجوهرية في انتقال المتوكل الى دمشق ، وفي ايابه منها بعد مكوثه مدة قليلة الى عاصمته الاولى سامراء •

لقد سجّل البحتري تسجيلاً لطيفاً دقيقاً هذه الرحلة ، او المحاولة لاتخاذ المتوكل دمشق عاصمة له • وجهد ما وسعه الجهد ان يحبّب دمشق الى الخليفة ، واتخذ لذلك وسيلتين : الاولى ، وهي النيل من العراق عن

---

(١) منقول من كتابنا « سامراء في ادب القرن الثالث الهجري ص ٣٣٥ ـ ٣٣٧ » •

طريق هجائه له وبخاصة ما يتصل بمناخه الذي وصفه بانه نكد وحار وما الى ذلك ، والثانية : الاشادة بدمشق واطراء مناخها بكل ما أوتى من قدرة بيانية ، ومكنة أدبية ، كما سنرى ذلك بعد قليل .

وللبحتري أكثر من قصيدة في وصف هذا السفر او النقلة ، وقد أشرنا فيما سلف الى تلميح الشاعر برغبته في اناخة ركاب الخليفة في دمشق عند سفره الى الموصل . ولكن البحتري ما لبث ان جعل هذا التلميح تصريحاً ودعوة ملحة في عدد من القصائد أنشأها ـ على ما يبدو ـ بعد تلك القصيدة .

ويخيل الينا ان اول قصيدة أشار فيها الى سفر المتوكل الى دمشق هي رائيته التي هنأه فيها بالفطر .

ولكن أين أنشأ البحتري هذه القصيدة ، او بالحرى في ايّ مكان أنشدها المتوكل ؟ هل في سامراء او في دمشق ؟ أغلب الظن أنه انشأها وأنشدها في سامراء ، بدليل قوله في أحد أبياتها :

هنيئاً لأهل الشام (انك سائر) اليهم مسير القطر يتبعه القطر

فهو يشير الى ان الخليفة سائر اليهم ، في حين يقول ايضاً فيها :

لعمرى لقد زرت (المصلّى) بجحفل يرفرف في اثناء راياته النصر

فأين هذا المصلى الذي زاره الخليفة . من الواضح انه زار المصلى اولاً ثم سار الى اهل دمشق ، واذا صحّ هذا ، فمعنى ذلك انه أدّى الصلاة في مسجد سامراء ثم بعد ذلك توجّه الى دمشق .

والحق ان قصيدة البحتري هذه تعدّ صدى لرائيته التي أنشدها المتوكل في عيد الفطر ، والتي ذكر فيها ما ذكره هنا من الاوصاف المختلفة حتى ليمكن القول بان القصيدتين متشابهتان الى حد كبير ـ معنى ولفظاً[1] .

والبحتري لم يفتتح قصيدته هذه بالغزل ، وانما بدأها بالمدح مباشرة ،

---

(١) أنظر ص ١٧٢ .

دون تمهيد فعطاء الممدوح يفوق عطاء الأنواء ، وفخره لا يماثله فخر ، وهو في منزلة ليس بوسع احد ان يساميه فيها او يدانيه ، وان الدنيا حسنت وزهت بفضل عدله ورعايته ، وبشرى تزفّ لأهل الشام ؟ لانه قاصدهم وسائر نحوهم ، وسينالون من فيض معروفه ما يكفيهم ويغمرهم ، وقد مضى شهر رمضان الذي صامه محملاً بالحمد ، ولو كان باستطاعته ان يتكلم لأثنى عليه ، بما أولاه من عناية وتقديس ورعاية ، وهذا ما يذكرنا بقوله في رائيته السابقة مما يقرب من هذا المعنى :

فلو ان مشتاقاً تكلّف غيرما في وسعه لمشى اليك المنبر

وقدمّ في هذا الشهر ما ينبغي عليه تقديمه من الفروض والتقوى والورع والأعمال الصالحة ، ما سيكون له خير ذخر وزاد في الدار الأخرى ! وزار المصلّى على رأس جيش لجب مظفّر كأنه جبال من الحديد ، تحملها الناس في ساحات الوغى والجلاد ، وسار بمواكب ، تدل على عزّ الملك ، وتنبيء عن عظيم السلطان ، ولكنه متواضع متخشّع لا تلمح فيه زهواً ولا كبرياء ، وقد اشتمل برداء الرسول ، وتعممّ بعمته ، وتقلّد سيفه وهي علامات الخلافة في ذلك العهد ، وتزيا بوقاره ، وتهدّى بهديه ، ثم صعد المنبر فملأه ضياء واشراقاً ، وألقى خطبة ألانت القلوب القاسية ، كأنها مبثوث الزهر ، ومنثور اللؤلؤ ، وكان فيها مجارياً آباءه السابقين : كالمنصور والسجاد والحبر .

وهذه المعاني سبق له ان ذكرها في قصيدة سابقة ، وبالامكان الرجوع اليها للوقوف على ما بينهما من الموافقة والمشابهة :

أبرّ على الأنواء نائلك الغمر	وبنت بفخر ما يشاكله فخر
وانت أمين الله في الموضع الذي	أبى الله أن يسمو الى قدره قدر
تحسنت الدنيا بعدلك فاغتدت	وآفاقها بيض ، وأكنافها خضر
هنيئاً لأهل الشام انك سائر	اليهم مسير القطر يتبعه القطر

تفيض كما فاض الغمام عليهم ... وتطلع فيهم مثلما يطلع البدر
مضى الشهر محموداً ، ولو قال مخبر ! ... لأثنى بما أوليت أيامه الشهر
عصمت بتقوى الله والورع الذي ... أتيت ، فلا لغو لديك ولا هجر
وقدمت سعيا صالحا لك ذخره ... وكل الذي قدمت من صالح ذخر
لعمري ! لقد زرت المصلى بجحفل ... يرفرف في أثناء راياته النصر
جبال حديد تحتها الناس في الوغى ... وفيها الضراب الهبر والعدد الدثر
وسرت بملك قاهر وخلافة ... وما بك زهو بين ذين ولا كبـر
عليك ثياب المصطفى ووقاره ... وانت به أولى اذا حصحص الامر
عمامته وسيفه ورداؤه ... وسيماه والهدى المشاكل والنجر
ولما صعدت المنبر اهتز واكتسى ... ضياء واشراقا كما سطع الفجـر
فقمت مقاما يعلم الله انه ... مقام امام ترك طاعته كفر
وذكرتنا حتى ألنت قلوبنا ... بموعظة فصل يلين لها الصخر
بهرت عقول السامعين بخطبة ... هي الزهر المبثوث واللؤلؤ النثر
فما ترك المنصور نصرك عندها ... ولا خانك السجاد فيها ولا الحبر (١)

بين العراق ودمشق :ـ

وينطلق البحتري في تدبيج القصيد الذي يغرى به المتوكل بالسفر ويحبب اليه دمشق ، ولا يفوته في خلال ذلك من التصدي للعراق والنيل منه ، امعاناً في اغراء المتوكل وازجائه الى تفضيل بلده على سواه ، فهـذه احدى قصائده التي يبدو منها انه أنشأها في اثناء سفر الخليفة ، وقد خصص نصفها لطريقته التقليدية ، واعنى بها الغزل ـ وقد نحا فيها منحى السهولة والليونة ، كما أختار وزناً قصيراً لها ، وكأني به أراد بها ان تكون أهزوجة أو أنشودة يرتلها في ركاب الخليفة ، ويبث فيها سروره وفرحه بهـذا السفر • فبعد التقدمة التقليدية ينتقل الشاعر الى هجاء العراق الذي آواه

---

(١) الديوان : ٢/٩٩١ ـ ٩٩٤ •

وأكرم مثواه ، ولكنها العصبية ، فهو يعلن انه قد رحل عن العراق ، ومن نكد قيظه ، واتجه صوب دمشق ، البلد الجميل ، حيث الليل الخصر والزمن النضر •

فهذا السفر يجدد اللهو واللذات ، لما فيه من أيام حسنة جديدة ، وقد خار الله للخليفة فيه سداداً ورشداً ، ولا ينسى البحتري ان يمتدح الخليفة بالقدرة والتمكن والحياطة للدين والاجتهاد فيه ، كل ذلك ليحثه على مواصلة السير نحو دمشق :

مخلف في الذي وعد   سيل وصلاً فلم يجد
فهو بالحسن مستبدّ   وبالدَّلّ منفرد
قد رحلنا عن العرا   ق ، وعن قيظها النكد
حبذا العيش في دمشـ   ـق اذا ليلها برد
حيث يستقبل الزما   ن ، ويستحس البلد
سفر جددت لنا الـ   ـلهو أيامه الجدد
عزم الله للخليـ   ـفة فيه على الرشد
ملك تعجز البريّة   عن حل ما عقد
يا امام الهدى الذي احـ   ـتاط للدين واجتهد
سر بسعد السعود في   صحبة الواحد الصمد
وابق في العزّ والعلـ   ـو لنا آخر الأبد[1]

صيف دمشق وشتاء العراق :

وتوالى أغاريد الشاعر وأهازيجه حاثاً فيها المتوكل على إغذاء المسير ، ومواصلة السفر ، وقد عمد أن لا يطيل فيها كما عهدناه في مدائحه الأخرى ، كما قصد أن تكون سهلة لينة لتكون أعلق بالأذهان ، واسهل دوراناً على اللسان ، كما بثّ فيها عواطفه المتأججة ، وأعلن عصبيته الطاغية نحو بلده

(١) الديوان ٢/٧٠٧ ـ ٧٠٨ •

الشام ، وندد ما وسعه بالعراق ووصمه بوخامة الجو وسوء المناخ ، فجعفر وهو المتوكل قد جعل الله له حياطة الدين ، والقضاء على المنافقين ، ومن أجل هذا فطاعته فرض على الناس والخروج على طاعته كفر وجحود ونكران ، ومن لم يكن نصحه له من سويداء قلبه خالصاً نقياً فليس له نصيب في دينه ، ولعله يريد بهذا نصح الخليفة في الانتقال من عاصمته الجديدة الى دمشق[1] ، وبعد أن يدعو له بالسلامة وطول البقاء ينتقل الى الغرض الأساس وهو الاشادة بمدينة دمشق ، فها هي قد استحالت جنة زاهية زاهرة ، ذات جو رائق غضّ الندى ، وماء رقراق ، عذب المذاق ، والزمن طلق بين أفيائها الظليلة ، والعيش رغد في اكنافها المرعة الخصيبة ، وهي تنظر بلهفة نحو قاصدها ، وترنو بشوق الى قربه ولقائه ، وكيف لا يتخذها مقراً له على غيرها ، وصيفها في برودته ولطافة جوه كشتاء العراق ، ومعنى هذا ان صيف العراق لا يحتمل ولا يطاق الامر الذي لا معدى للخليفة من التفكير به والتصميم على اتخاذ بلده الشام مستقراً له :

قد جعل الله الى جعفر ... حياطة الدين ، وقمع النفاق
طاعته فرض وعصيانه ... من أعظم الكفر وأعلى الشقاق
من لم يبحك النصح من قلبه ... فما له في دينه من خلاق
فاسلم لنا يسلم لنا عزنا ... وابق ! فان الخير ما عشت باق
ان دمشقا أصبحت جنة ... مخضرّة الروض غداة البراق
هواؤها الفضفاض غض الندى ... وماؤها السلسال عذب المذاق
والدهر طلق بين أفيائها ... والعيش فيها ذو حواش رقاق

---

(١) من الجدير بالذكر ان يزيد المهلبي أحد الشعراء المقربين من المتوكل قال حين عزم المتوكل على الانتقال الى دمشق :

اظنّ الشام تشمت بالعراق ... اذا عزم الامام على انطلاق
فان تدع العراق وساكنيها ... فقد تبلى المليحة بالطلاق

انظر : سامراء في ادب القرن الثالث الهجرى .

ناظـــرة نحـوك مشـــتاقة منك الى القرب ووشك التلاق
وكيف لا تؤثرهـــا بالهـوى وصيفها مثل شتاء العـــراق[١]

مزايا دمشق :

ويسترسل البحتري في أناشيده العذبة يدبّجها برائع نفظه ، ويوشحها ببدائع فنه ، وينغّمها بعذوبة موسيقاه ، وكيف لا يحشد فيها كل ما اوتي من طاقة فنية ومكنة أدبية ، وهو يرى ثمرة جهوده قد أينعت ودانت أكلها ، فها هو قد نجح في حمل الخليفة على ترك عاصمته الاصلية والتوجه الى بلده ليتخذه مقراً له بدلاً منها :

وهو ما ينفك يبدىء ويعيد في اطراء الشام تحبيباً للخليفة وتأكيداً لما كان يقوله له عنها ، وها هو الخليفة ينزل « داريّا » وهي قرية من قرى الغوطة تقع على بعد نحو ثمانية كيلومترات الى الجنوب الغربي من دمشق ، ينزل المتوكل هذه القرية فراراً من وخامة جو دمشق في تلك الآونة[٢] . ويرى الشاعر ذلك فيمضي في الثناء على داريّا وليلها البارد ، وتستميله صنعة البديع فاذا بـــه يجانس بين برودة ليل داريّا ، وبين برودة مـاء « بردى » . فالعيش الهانىء اذن لا يكون الا في اكناف داريّا ذات الجـو الرائق، وبين مياه نهر بردى الخضرة حين تمزج بالراح والشراب. والشاعر لا يغفل عن تطعيم هذه الاناشيد بالثناء على الخليفة والاشادة بأحقية خلافته ، وفيض فضائله ، ونجاح اسفاره ، وها هي دمشق قد جلت محاسنها ، وأبدت مفاتنها ، ناطقة بحقيقة اطراء الشاعر لها ، الذي كثيراً ما ردده على مسامع الخليفة فهي اليوم ـ بزينته وجمالها ـ خير شاهد على ما كان يعد المتوكل به ، فهي المدينة التي تملأ العيون محاسن مجاليها ، وطلاقة جوها ، ورائق زمانها ، فهذه السحب تتوزع على قنن جبالها مساء ، فاذا ما كان الصـــباح

---

(١) الديوان ٣/١٥١٤ ـ ١٥٦٥ .

(٢) انظر : الديوان ٢/٧٠٩ الحواشي .

رأيت النبت منتشراً في أقطار صحرائها ، وانت لا تبصر فيها الا غيثاً منهمراً ، وخضرة يانعة ، وطيراً غرداً ، حتى لتحسب أن ليس للصيف وحرارتـه وجود ، وكأنما الحياة كلها ربيع في ربيع .

وبعد هذا الوصف الرائق الجميل ، المحبب الى النفوس يختتم الشاعر أغرودته بالثناء على الخليفة والدعاء له بدوام الحياة والبقاء :

العيش في ظـل داريّا اذا بردا   والراح نمزجها بالماء من بردى
قل للامـام الذي عمت فواضـله   شرقا وغربا فما تحصى لها عـددا
الله ولاك عن علـم خلافتـه   والله أعطاك ما لم يعطه أحـدا
وما بعثت عتاق الخيل في سفر   الا تعرفت فيه اليمن والرشدا
أما دمشق فقد أبدت محاسنها   وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا اردت ملأت العين من بلد   مستحسن ، وزمان يشبه البلـدا
يمسي السـحاب على أجبالها فرقا   ويصبح النبت في صـحرائها بددا
كأنمـا القيظ ولى بعد جيئتـه   او الربيع دنا من بعد ما بعدا
يا أكثر الناس احسانا وأعرضهم   سيباً ، وأطولهم في المكرمات يدا
ما نسأل الله الا أن تدوم لك الـ   ـنعماء فينا ، وأن تبقى لنا أبدا[(١)]

غيرة العراق من دمشق :

ويبدو ان البحتري رمى آخر سهام كنانته المستعرة الأوار التي شنها على العراق ، وكان سهمه هذه الابيات التي أنشأها بعد دخول المتوكل دمشق سنة ٢٤٤ هـ[(٢)] ، وعزمه على اتخاذها حاضرة لخلافته ، فقد أفتتحها بالقول : بانه يصبو الى طيب العراق وحسنها لولا ما فيها من حرارة لافحة ، تحمى هجيرها ، وتعكر صفو فصولها ، والعراق العشيقة الأولى والخليلة المحبّة ، وان زاحمتها دمشق وأغارتها ، وانه جاب اقطار الدنيا شرقاً وغرباً فلم يجد

---

(١) الديوان ٢/٧٠٩ ـ ٧١٠ .
(٢) انظر : تاريخ الطبري ٩/٢٠٩ ، الكامل في التاريخ ٧/٨٥ .

كالشام محل اقامة ، يجد فيها المرء ما يشتهي من صحة ولهو ولذّة وسرور، ويظهر ان الحاح البحتري في التحدث عن طيب هواء الشام ، وبرد مناخها في كل ما أنشأه في هذا الصدد ، يعيد الى الاذهان القول بان من اسباب تفكير المتوكل في الانتقال الى دمشق هو انه كان محروراً[1] .

وهي ، اي الشام ، ـ لحبه لها ـ مقدسة عنده ، وقد أحالت غيوث الربيع الهاطلة دورها الى رياض غن ، وغدر للارواء ، ولا أدل على حفاوتها بزيارة الخليفة واحتفالها بقدومه من هذه البشرى التي تبادلها قطراها ، وهذا الحسن الذي تضاعف في أرجائها وقد توجّه اليها بعزمة تنبىء عن سداد رأي ، وحصافة فكر بما بدأ به وبما سيؤول اليه الأمر . وكانت سفرته بل قدومه دمشق في ابّان عيد الربيع ، وهو النيروز ، وانه ليأمل ان تتوالى الاعوام ، وتتصل وهو في ربوع هذه المدينة التي تقدست أيامها وشهورها لنزول الخليفة فيها ، ويختتم هذه الانشودة داعياً للخليفة بالبقاء ، لان في بقائه بقاء المكرمات ، وفي حياته دوام العلاء والفخار :

نصبّ الى طيب العراق وحسنها ... ويمنع منها قيظها وحرورها
هي الارض نهواها اذا طاب فصلها ... ونهرب منها حين يحمى هجيرها
عشيقتنا الاولى ، وخلتنا التي ... تحب وان أضحت دمشق تغيرها
عنيت بشرق الارض قدما وغربها ... أجوّب في آفاقها وأسيرها
فلم أر مثل الشام دار اقامة ... لراح تغاديها وكأس تديرها
مصحة أبدان ونزهة أعين ... ولهو نفوس دائم وسرورها
مقدسة جاد الربيع بلادها ... ففي كل دار روضة وغديرها
تباشر قطراها وأضعف حسنها ... بأن أمير المؤمنين يزورها
توجهت مصحوبا اليها بعزمة ... مضى بسداد بدءها وأخيرها
وفي سنة قد طالعتك سعودها ... وقابلك النيروز وهو بشيرها

---

(١) أنظر ص ٢٠٨ .

مقدسة أيامها وشهورها   فصلها بأعوام توالى ، ولا تزل
فانت ضياء المكرمات ونورها[1]   وعش أبدا للمكرمات وللعلا

اياب المتوكل من دمشق :

على الرغم من كل ما بذله الشاعر من لباقة أدبية وحذلقة شعرية ، وعلى الرغم من تفانيه في الذود عن بلده ، واطرائه وتحبيبه ، ومن تحامله على العراق وتجنيّه عليه ؛ فانه لم ينجح في اقناع المتوكل في الثواء بدمشق أكثر من شهرين وأيام ، حيث عزم الخليفة على ترك المدينة والأوبة الى عاصمته الاولى سامراء لاسباب عديدة[2] .

ويبدو ان اول اشارة لمّح بها الى تغيّر المتوكل ، وزهده في دمشق هو ما ذكره خلال قصيدته الآتية التي أنشأها وهو في دمشق !

والشاعر حين رأى نفرة الخليفة من المدينة الجديدة ، وعزمه على القفول الى عاصمته الاولى ، أخذ لهذا الأمر أهبته ، ونكص عما كان قد اندفع اليه ، فهو الآن في موقف يحتم عليه ان يعكس الآية ، وينبغي ان يكيل التقريظ والثناء للمدينة التي كان الى عهد قريب يهجوها ويندد بها ، وما ذلك الاّ مراعاة للظرف الطارىء ، والحالة الجديدة وهذا ما كان بالفعل منه .

والبحتري مهّد للقصيدة بستة أبيات ذكر فيها ما انتابه من حزن وبثّ لفقدانه احدى جواريه في دمشق ، ثم انتقل الى ذم المدينة والدعاء عليها بالمحل والقحط ، وأبدى غبطته وحبوره بزهد الخليفة فيها وفي أهلها ، وعرّج بعد ذلك الى الثناء على الخليفة الذي وصفه بالحزم والسداد في الامور ، مشيراً الى الغزوة التي قام بها بغا الكبير من قبل الخليفة لبلاد الروم ، وذلك في شهر ربيع الآخر من هذه السنة ، والتي كان من آثارها فتح مدينة صُمُلَّة[3] .

---

(1) الديوان ٢/٩٤٣ ـ ٩٤٤ .

(2) أنظر : ص ٢٠٨ .

(3) انظر : تاريخ الطبري ٩/٢١٠ ، والكامل ٧/٨٥ .

ووصف الشاعر الجيش الذي كان بمعية بغا هـذا ، فذكر انه كان جيشاً كبيراً كثير العدّة والعدد :

فلا سقيت غيثـا دمشق ولا غدت ... عليها غوادي مزنة لعهادهـا
وقد سرني أن الخليفة جعفرا ... غدا زاهدا في أهلها وبلادها
امام اذا أمضى الامور تتابعت ... على سنن من قصدها وسدادها
وما زالت الاعداء تعلم انـه ... يجاهدها في الله حق جهادهـا
ولما طغت في دارها الروم واعتدت ... سفاها رماها جعفـر بحصادها
أعد لها فرسان جيش عرمرم ... عداد حصى البطحاء دون عدادهـا
كتائب نصر الله أمضى سلاحهـا ... وعاجل تقوى الله أكثر زادها
فلا تكثر الروم التشكي فانـه ... يراوحها بالخيل ان لم يغادها
ولم ار مثل الخيل أجلى لغمرة ... اذا اختلفت في كرّها وطرادها[1]

عدوله عن بغداد الى سامراء :

وينصرف المتوكل عن دمشق قافلاً الى سامراء بعد مكثه فيها مـدة قليلة ، وقد سلك في رجوعه طريق الفرات ، ثم عدل الى الأنبار ، ومنها عدل الى طريق الحرْف اليها ، فدخلها يوم الاثنين لسبع بقين من جمادي الآخرة سنة ٢٤٤هـ[2] وعلى هذا فالقصيدة التالية اذن من منظومات هذه السنة ، لاكما وهم الشارح حين أرخها في سنة ٢٤٣هـ[3] . ويبدو ان البحتري كان في رفقة ركب الخليفة العائد ، وهذا ما يدل عليه قوله :

وما زال توخيد المطايا وطيها ... بنا البعد من حَزْن الملا وسهوله

فبعـد ان طوت ركاب الخليفة الفيافي الوسيعة وما فيها من هضاب وسهول ، لاح لهم حمى العراق ، وانجلت الحجب عن مائه ، ونخيلـه ، التي كثيراً ما بعث الحمام المختلف اليها ذكريات الأحبة بهديله ، وجـدد

---

(١) الديوان ٢/٧١٥ ـ ٧١٦ .
(٢) انظر : تاريخ الطبري ٩/٢١٠ .
(٣) انظر : الديوان ٣/١٦٣٣ الحاشية وص ١٦٣٤ حاشية (١٦) .

الاشواق بترجيعه لأغاريده .

ومن هنا بدأ البحتري يكيل الثناء للعراق ومدنه ، بعد ان ندّد به اكثر من مرة كما اسلفنا . وبهذه الأوبة سرت الحياة في نفوس الأحبة ، ومشت الفرحة بين القلوب المتباعدة ، وهذا يعني ما كان يكابده الكثير ممن رافق الخليفة في سفرته هذه . وبفضل الخليفة وانعامه عاد للعيش غضارته ، وللحياة رفاهيتها ، فهو امام اجتباه الله من عباده ، واصطفاه دونهم ، لأنه رآه اولاهم بحق واهداهم لاتباع سبيله ، وهو خليفته في ارضه وابن عم نبيه ، كما انه واسع المعروف ، غزير النوال وقد قدم من الغرب (الشام) في جيش لجب يتخلف الحصى عن عدده ، فأسفر وجه الشرق (العراق) مشـرقاً بطلعته الوضاءة ، وقد تحفزت بغداد لاستقباله ، واتخذت زينتها لاحتضانه ، ولكنها ما كادت تعلم بعدوله عن زيارتها حتى اشرأبت لذلك واستشرفت . ولعل في هذا اشارة الى ان الخليفة كان ينوي المرور ببغداد في أثناء رجوعه ، ولكنه عدل عن ذلك لسبب قد لا يكون كما ذكره البحتري ، الذي يرى ان عدوله كان بسبب اشتياقه الى قصر الجعفري المحدث الذي فيما نظن كان في سامراء قبل ان يبتني قصراً بهذا الاسم في مدينته المتوكلية في سنة ٢٤٥هـ[١] . وفي هذا القصر أحبته الالى الذين يجد في لقائهم أمنيته المنشـودة ومطلبه الاول ، ولعل في هذا دلالة على ان المتوكل لم يصـطحب معه كل حاشيته وجواريه .

والبحتري الذي ما انفك يندد بجو العراق حين أقام المتوكل بدمشق ، ويجسّم وخامته وحرارته ، عاد في قصيدته هذه الى الاشادة بذلك المناخ ، فاذا ليله ينماز بالرقة ، وضحاه بالخصر ، وأصيله بالاعتدال .

لقد دعاه الهوى من عاصمته الاولى سامراء ، فاذا به يؤوب إليها أوبة

---

(١) أنظر : كتابنا « سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

الليث الى عرينة ، وكان رحيله عنها قد أحالهـا الى بلد موحش ، لا أثر للانس فيه ولا للحياة ، ولكنها ما كادت تسمع بقدومه حتى عاد اليها حسنها ونضارتها ، ومشت في اوصالها الحياة ، وسرت في أرجائها الأفراح . ويظهر ان ابنه محمداً المنتصر كان قد بقي في سامراء ولم يصاحب أباه في رحلتـه هذه ، ومن أجل هذا فقد هنأ الشاعر هذا الابن بقدوم أبيه اليه[1] . ثم يختتم القصيدة بالثنـاء على ولاة العهود ويصفهم بالحلم والتقى والفضـل فيقول :

وما زال توخيد المطايا وطيها — بنا البعد من حَزْن الملا وسهوله
الى ان بدا صحن العراق وكشفت — سجوف الدجى عن مائه ونخيلـه
يظل الحمـام الورق في جنبـاته — يذكرنـا أحبابنـا بهديلـه
فأحببت محبا رؤيـة من حبيبـه — وسرت خليلا أوبة من خليله
بنعمى أمير المؤمنين وفضـله — غدا العيش غضا بعد طول ذبوله
امام رآه الله اولى عبـاده — بحق ، وأهداهم لقصد سبيله
خليفتـه في أرضه ووليه الـ — ـرضى لديه ، وابن عم رسوله
أتى من بلاد الغرب في عدد النقا — نقا الرمل من فرسانه وخيوله

---

(١) مما يدل على بقاء المنتصر في سامراء في أثناء سفر أبيه المتوكل ، البيتان اللذان رويا له وهما :

الى الله اشـكو عبرة تتحيَّر — ولو قد حدا الحادي لظلت تحدَّر
فيا حسرتا أن كنت في سر من رأى — مقيماً وبالشام الخليفة جعفر

(أنظر : سامراء في القرن الثالث الهجري ص ٢٧) .

ومن الجدير بالذكر ان شارح الديوان يفسّر كلمة « محمد » في بيت البحتري بقوله : « محمد : أبو عبيـدالله (كذا) المعتز بن المتوكل » . الديوان ١٦٣٥/٣ هامش ٢٣ » . والصواب ان المراد بمحمد هنا المنتصر لا المعتز ، فالمعتز اسمه الزبير ، كما ان كنيته أبو عبدالله لا عبيدالله .

والبيتان اللذان سقناهما للمنتصر دليل قاطع على ان المراد بمحمد هنا المنتصر لا المعتز !

فاسفر وجه الشرق حتى كأنما ... تبلّج فيه البدر بعد أفوله
وقد لبست بغداد أحسن زيها ... لاقباله ، واستشرفت لعدوله
ويثنيه عنها شوقه ونزاعه ... الى عرض صحن الجعفري وطوله
الى منزل فيه أحباؤه الاولى ... لقاؤهم أقصى مناه وسوله
محل يطيب العيش رقة ليله ... وبرد ضحاه ، واعتدال أصيله
لعمري لقد آب الخليفة جعفر ... وفي كل نفس حاجة من قفوله
دعاه الهوى من سر من راء فانكفا ... اليها انكفاء الليث تلقاء غيله
على انها قد كان بدل طيبها ... ورُحّلَ عنها أنسها برحيله
وافراطها في القبح عند خروجه ... كافراطها في الحسن عند دخوله
ليهن ابنه خير البنين محمداً ... قدوم أب عالي المحل جليله
وان ولاة العهد في الحلم والتقى ... وفي الفضل من أمثاله وشكوله[1]

احتفاء سامراء بقدوم المتوكل :

وينشيء البحتري قصيدة أخرى يعيد فيها الكثير مما ذكره في قصيدته السابقة ، فهذه سامراء قد زهت بقدوم المتوكل اليها ، وعاد اليها حسنها وجمالها بعد ا ن كانت قد اكفهرت واظلمت في ابان رحيله عنها ، وبعد اطراء الخليفة ونعته بالاوصاف المكررة المعادة ، ينتقل الى الدفاع عن الخلافة واستحقاق العباسيين لها دون منافسيهم . والبحتري يشير هنا الى الأمويين ويتهمهم بمناواة العباسيين واضمارهم الشرّ لهم ، ويشير كذلك الى ان من يبدي العداوة للعباسيين يجري وراء أمل خائب ، وهدف ضائع ، وان السيوف المرهفة ، والرماح المثقفة خير علاج لمن تسوّل له نفسه شقّ عصا الطاعة والخروج على الخلافة . ولا ندري ما المناسبة في هجاء الأمويين والتعريض بهم بعد مرور هذه السنوات الطويلة من حكم العباسيين ، وبعد اضمحلال قوتهم ، وخضد شوكتهم ، حتى لم يعد لهم من يطالب بالخلافة منذ أمد غير

---

(١) الديوان ٣/١٦٣٣ ـ ١٦٣٥ .

قصير ؟ فهل يعني ذكرهم هنا انهم حاولوا القيام بحركة ضد المتوكل في اثناء قيامه بالشام ؟ ان المراجع التاريخية ـ فيما نظن ـ لم تشر الى شيء من هذا :

زهت سر من را بالخليفة جعفر وعاد اليها حسنها وجمالها
صفا جوها لما أتاها وكشفت ضبابتها عنها ، وهبت شمالها
وكانت قد اغبّرت رباها واظلمت جوانب قطريها ، وبان اختلالها
اذا غبت عن ارض ويممت غيرها فقد غاب عنها شمسها وهلالها
وانتم بني العباس عم محمد يمين قريش اذ سواكم شمالها
وقد سرني أن الخلافة فيكم مخيمة ما ان يخاف انتقالها
لكم ارثها والحق منها ولم يكن لغيركم الا اسمها وانتحالها
وان بني حرب ومروان أصبحوا بدار هوان قد عراكم نكالها
يغضون أبصارا مغيظاً ضميرها ويبدون الحاظا مبينا كلالها
وان الذي يهدي عداوته لكم لمرتكض في عثرة ما يقالها
متى ما ثنوا أعناقهم نحو فتنة يكن بالسيوف الماضيات اعتدالها
ودون التي منّى الاعادى نفوسهم منـاياهم في العالمين نكالها
مثقفة سمر لدان صدورها وهندية بيض حديث صقالها(١)

وهكذا انقلب البحتري يمتدح العراق وسامراء خاصة بعد ان كال لهما ما كال من الذم والهجاء في غضون رحلة المتوكل الى دمشق كما ذكرنا .

عفوه عن أهل حمص :

وللشاعر مدحة يشير فيها الى صفح المتوكل عن أهل حمص وعفوه عما قاموا به من شق عصا الطاعة على الخلافة .

والجدير بالذكر ان شارح الديوان يرجع تاريخ هذه المدحة الى سنة ٢٤٤ هـ ، واذا علمنا ان خروج أهل حمص على الخلافة او الاصح على عاملهم كان في خلال سنة ٢٤١ هـ ، فان هذه المدحة تكون على الارجح من

(١) نفسه ٣/١٦٢٩ ـ ١٦٣٢ .

منظومات هذه السنة ، او بعدها بقليل ، لكي يحلو للشاعر ان يتغنى بهذه الأُثْرة والاشادة بها ، وهي قريبة الوقوع ، اذْ من الغريب أو غير المألوف ان يتأخر نظم هذه القصيدة الى هذا التاريخ ، اي بعد مرور ثلاث سنوات على وقوع الحادث ، خاصة وان الشاعر كان على صلة وثقى بالمتوكل في اثناء هذه الفترة •

ويمكن ترجيح التأريخ الذي حدده لها الشارح ، اذا احتمل أن اهل حمص قد عادوا الى شقّ عصا الطاعة مرة أخرى خلال سنة ٢٤٤هـ ، وهو أمر لم تتحدث عنه المراجع !

وللبحتري قصيدتان في عفو المتوكل عن أهل حمص ، مدح فيهما الفتح بن خاقان لتوسطه لدى الخليفة في أمرهم • وهما في رأينا أمتن من قصيدته هذه أسلوباً ، وأعلى بلاغة ، وأقوى لفظاً ، واحكم نسجاً ، وقد أرخت احداهما في سنة ٢٤١ هـ ، وأرخت الأخرى في سنة ٢٤٤ هـ ، ولا دليل على التأريخ الثاني !

ويلاحظ ان قصيدة البحتري هذه ـ التي لا دليل على تاريخها المزعوم ـ لم تشتمل على مقدمة تمهيدية غزلية كما هي العادة الجارية في مدائحه للمتوكل ، ويبدو انها ـ كما يخيل الينا ـ لا تخلو من الخرم في اولها • فالشاعر يبدأ بالثناء على سياسة المتوكل الحكيمة العادلة ، وينعته بترسمه في ذلك سنن الرسول (ص) الذي ترى فيه سيماؤه ومخايله ، وقد تعمّم بعمامته التي كانت تنطق بنجابته وعتقه ، ثم ينتقل الى أهل حمص فيشيد بعمل الخليفة في الصفح عنهم بعد ان قاموا ما قاموا به من اجتراح الذنوب ، وشقّ عصا الطاعة ، ويظهر ان المتوكل قد سار اليهم بنفسه ـ اذا صحّ ما زعمه الشاعر في بيتيه : السادس والسابع ، فأراهم بجيشه اللجب ، قدرته الحربية ، وأراهم ـ بعفوه عنهم ـ حبه للسلام ، ولو شاء لجعلهم

---

(١) أنظر : ص ٧٦ ، ٧٨ •

طعاماً لشفار السيوف ، وأسنّة الرماح ، وان منّه عليهم بالحياة وانعامه عليهم بالعفو جعلهم مكلّين باحسانه ، معترفين بفضله ، وان رجلاً هذه سيرته لحقيق أن تضع الامة فيه ثقتها ، وتلجأ اليه كلما حزب أمر وادلهم خطب :

اما والذي أعطاك فضلا وبسطة على كل حي واصطفاك على الخلق
لقد سستنا بالعدل والبذل منعما وعدت علينا بالاناة وبالرفق
وانا نرى سيما النبي محمد وسنته في وجهك الضاحك الطلق
وقد علمت منك العمامة أنها تلاث على تلك النجابة والعتق
تداركت بالاحسان حمص وأهلها وقد قارفوا فعل الاساءة والخرق
طلعت لهم وقت الشروق فعاينوا سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق
وما عاينوا شمسين قبلهما التقى ضياؤهما وفقا من الغرب والشرق
أريتهم اذ ذاك قدرة قادر وعفو محب للسلامة مستبق
ولو شئت طاحوا بالسيوف وبالقنا وباللهذميات المذربة الزرق
مننت عليهم بالحياة فأصبحوا مواليك فازوا منك بالمن والعتق
وان ولاء المعتقين من الردى يفوق ولاء المعتقين من الرق
بقيت أمير المؤمنين لامة سلكت بها نهج السبيل الى الحق
بوجهك تستعدي على الدهر كلما أساء كما كانت بجدك تستسقى(١)

المتوكل والخراج :

حاول المتوكل القيام باصلاح زراعي يتصل بجباية خراج الارض التي كانت تفرض على المزارعين في كل سنة ، وفي وقت كان الزرع فيه ما يزال أخضر ، ولتوضيح هذه المسألة يجمل بنا أن نسوق نبذة مختصرة عنها نقلاً من كتاب : تاريخ التمدن الاسلامي الذي جاء فيه : « واقتدى بالواثق خلفه المتوكل ، فأرفق بأهل الخراج بتأخيره ميقات اقتضائه شهرين . وسبب ذلك ان الفرس قبل الاسلام كانوا يبدأون بجباية الخراج في النوروز ، وهو يقع

(١) الديوان : ٣/١٥٤٦ ـ ١٥٤٧ .

عندهم في الخامس من حزيران (يونيو) وكانوا يكبسون في كل مائة وعشرين سنة شهراً بحيث يرجع النوروز الى الخامس من حزيران • فاذا مضت (١٢٠) سنة أسقطوا شهراً فيجعلون الخمس من حزيران الخامس من أيار (مايو) لا يعيدون النوروز الى الخامس من حزيران • فلما فتح المسلمون العراق وفارس ظل الحساب في جباية الخراج على ما كان عليه قبل الاسلام حتى تمت المائة والعشرون ، وكان ذلك في ولاية خالد بن عبدالله القسري على العراق ، فأراد الفرس ان يسقطوا شهراً على جاري عادتهم فنهاهم خالد وقال (هذا من النسيء الذي نهى الله عنه) ، واستشار الخليفة هشام بن عبدالملك في ذلك فوافقه على ابطال الكبس • فظل الحساب الجاري متقدماً شهراً على الحساب الحقيقي الذي تنضج فيه الغلات ، وظل الفرس يحاولون العود الى الكبس فلم يتم لهم ، ولما كانت خلافة الرشيد طلبوا الى يحيى بن خالد ان يتوسط لدى الخليفة بشأن ذلك ، فأراد يحيى ان يجيب طلبتهم ، فتقول اعداؤه في ميله الى الزرداشتية فعدل عن عزمه ، وما زال ذلك الفرق يتعاظم بتوالي الأعوام حتى صار في أيام المتوكل يقع في نيسان (ابريل) والزرع أخضر • واتفق ان المتوكل مر ببستان فرأى الزرع أخضر ، فقال لرفيق له : (ما لي أرى الدواوين تطلب الخراج والزرع لم ينضج) فقص عليه السبب ، فأمر ان يضاف الى تلك السنة ما كان تأخر ، فاذا هو شهران وبضعة أيام حتى يصير النوروز في الوقت اللازم • فأصدر أمره بذلك سنة (٢٤٣) هـ ففرح الناس لانه رفع عنهم من خراج تلك السنة نحو الخمس »[١] •

بيد ان الطبري أشار الى ان عمل المتوكل هذا كان في سنة ٢٤٥هـ ،

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٢/١٢٠ لجرجي زيدان • وانه لامر غريب ان يجهل الخليفة امر الخراج وفرضه على الناس ، ولم يفطن اليه الا عن طريق الصدفة ، وأكبر الظن ان المتوكل كان عارفا بذلك ، وانه لم يحدث ما حدث عن طريق المفاجأة •

وذلك حيث يقول في حوادث هذه السنة « وكن نيروز المتوكل الذي أرفق أهل الخراج ، بتأخيره اياه عنهم في يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول ، ولسبع عشرة ليلة خلت من حزيران وثمان وعشرين من ارديوهشت ماه فقال البحتري الطائي :

ان يوم النيروز عاد الى العهـ ـد الذي كان سنّه اردشير »[1]

وجاء في أخبار البحتري خبر حدث به البحتري نفسه انه ادخل من قبل الفتح على المتوكل وكان مصطبحاً في أحد أيام النيروز هذا فأنشده قصيدته التي اولها :

لك في المجد اول وأخير

فوهب له الف دينار ، وصينية فيها خمسمائة مثقال من مشام كافور كانت بين يديه[2] .

ولا شك في ان المتوكل قد شعر بأهمية عمله هذا مما حدا به ان يصطبح احتفاء به ، وان يستمع الى قصيدة البحتري التي أشاد فيها بالخليفة وبعمله ، فأثابه عليها بما أثابه .

اما القصيدة فتقع في تسعة عشر بيتاً بدأها بالثناء على المتوكل والاشادة بمجده العريق ، ومساعيه الكثيرة ، وانه ابن عم النبيّ الكريم ، وذو عطاء مدرار يزيل المحل اذا حلّ ، ووجه وضّاء يجلو الدجى اذا أطبق ، وقد أحبته القلوب ، وأكبرته الصدور منذ كان وليداً ، واكتنى باسمه كل من الرشيد والمنصور ، لعلمهما الماضي به وبأهميته ، وهو تخريج لا يخلو من الحذلقة والمهارة كما ترى ! ويعود فيقول : ان النبيّ ليرضى بما يتولاه الخليفة من أعمال ، وما يترسمه من خطط ، وانه حاز ميراثه بحق مبين ، وهو سيفه وعمامته وخاتمه وبرده وعصاه وسريره ، فساس الدنيا بالعدل

---

(١) الطبري ٢١٨/٩ ، الكامل : ٨٩/٧ .

(٢) أخبار البحتري ص ٩٥ _ ٩٦ .

والقسطاس متوخياً الرشاد والحق وعمل الصالحات ، وبعد كل هذه المقدمة، يتوصل الشاعر الى الغرض المطلوب وهو الاشادة بعمل الخليفة في تأخير النيروز الذي سبق الكلام عليه ، فهذا النيروز ـ وهو عيد فارسي ، ويعني اليوم الجديد(١) ـ آل الى عهده الاول الذي سنّه الملك الفارسي اردشير ، وان الفضل في اعادته الى حالته الاولى يرجع الى المتوكل حيث جعله مفتتحاً للخراج الذي أزال عن كواهل الناس أعباء ثقيله ناءت بها ، فلم يكن لهم الا الدعاء له والثناء على عمله !

ويبدو ان الشاعر ـ كثيراً ما كان يسلك في قصيدته اكثر من غرض واحد ، فهو بعد الثناء على الخليفة والاشادة بعمله هذا اشتغل بناء المتوكل لأحد قصوره العظيمة ، ولعله الجعفري الذي ابتناه في سنة ٢٤٥ ، فوصفه وان كان وصفاً سريعاً مقتضباً ، بانه من القصور الحسنة التي لها موقع كبير في نفس المتوكل ، وقد رقّ الهواء في جوانبه ، وساحت المياه ثرّة غزيرة في أفنيته ، ثم اختتم مدحته باعادة ما سبق ان ذكره فيه من صفات الكرم والنصرة ، وتمنى له العمر المديد والبقاء الحميد :

لك في المجـد اول وأخـير ... ومسـاع صـغيرهن كبـير
يا بن عم النبي لازلت للدنـ ... ـيا ثمال من راحتيك غزير
اي محـل عرا فكفك غيث ... أو ظـلام دجا فوجهك نور
ومقتك القلوب لمـا تراه تـ ... ـك وليدا ، واكبرتك الصدور
واكتسى باسمك الرشيد لعلم ... بك ماض ، وجدك المنصور
يتـولى النبـي مـا تتولا ... ه ، ويرضى من سيرة ما تسير
حـزت ميراثه بحق مبـين ... كل حـق سواه افك وزور
فلك السيف والعمامة والخا ... تم ، والبرد والعصا والسرير

(١) أنظر : نهاية الارب للنويري ١/١٨٥ ـ ١٨٦ ، وأخبار البحتري ص ٩٥ حاشية (١) ، والديوان ٢/٧٣٤ حاشية (٣٢) .

ان يوم النيروز عاد الى العهـ ـد الذي كان سنه اردشير
انت حولتـه الى الحالة الاو لى ، وقـد كان حائرا يستدير
وأفتتحت الخـراج فيـه فللأ مـة في ذاك مـرفق مذكـور
منهـم الحمد والثناء ومنك السـ ـعد فيهـم والنائل المشكـور
وأرى قصرك استبدَّ مـع الحـ ـسن بفضلٍ ما أُعطيته القصـور
رقَّ فيـه الدواء واطـردَ الـ ـماء فساحت في صَفتيه البحـور
طالعتـك السعود فيـه وتمت لك فينا النعمى ودام السـرور[1]

ادراك المعتز :

في ليلة الاثنين لثمان بقين من ذي القعدة سنة خمس واربعين ومائتين بلغ المعتز بالله بن المتوكل الحلم[2] ، فأقام المتوكل بهذه المناسبة حفلة كبيرة وجلس لاستقبال المهنئين ، وكان في جملة من شارك فيها من الشعراء شاعرنا البحتري فقد ذكر الصولي انه « لما بلغ المعتز مبلغ الرجال جلس المتوكل للتهنئة ، وحضر الناس على طبقاتهم ، ندخل البحتري فأنشده :

ردى على المشتـاق بعض رقاده فلما وصل الى قوله :
تمت لك النعمـاء فيه ممتعـا بعلـو همتـه وورى زناده

(١) الديوان ٢/٩٠١ ــ ٩٠٣ ٠
(٢) أنظر : وفيات الاعيان لابن خلكان ٣/٤٦٩ ، والديوان ٢/٧٠٢ الحاشية ٠
والجدير بالذكر ان شارح الديوان يشير في الحاشية الى حفلة اعذار (طهور) المعتز التي وصفها كل من الشابشتي في الديارات ص ١٥٠ ــ ١٥٦ ، والثعالبي في ثمار القلوب ص ١٦٦ ، كما يشير الى ان البحتري كان في جملة من حضر حفلة ذلك الاعذار مستندا في ذلك الى كتاب مطـالع البدور ٠ والصواب : ان هناك فرقا بين اعذار المعتز وبين ادراكه الحلم ، فاعذاره كان قبل هذا التاريخ ، أي قبل سنة ٢٤٥هـ على الاغلب ، اذ من غـير المعقول أن يتأخر اعذاره الى ان يبلغ مبلغ الرجال ، ويبدو ان الشارح قد خلط بين الاعذار والادراك ، فوقع في ما وقع فيه من اللبس والتخليط ٠

وبقيت حتى تستضيء برأيه وترى الكهول الشيب من اولاده

فقال المتوكل : أعد الابيات ، فأعادها ، فقال : آمين ! وقال الناس : آمين ، وأمر للبحتري بألف دينار »[1] .

لقد انشأ البحتري بهذه المناسبة قصيدة أشاد فيها بالمتوكل وكرر الاوصاف التي بثها في تضاعيف مدائحه السابقة ، فالسحب بارعادها وابراقها وانهمار مياهها لا يمكنها ان تدانيه في فيض عطائه وغزارة نائله ، وهو يحاكي في أعماله وصفاته آباءه العظام واجداده الكرام ، لا يتهاون في مكابدة الاعداء ، ولا يتوانى عن الافضال والاعطاء ، ثم انتقل الى تهنئة المتوكل بادراك ابنه وبلوغه مبلغ الرجال ، فهذه مخايله تنبيء عن رشاده وحلمه ، وتدل على وقاره وسداده ، وان مولده مقارب لميلاد خلافة أبيه ، وهذا يعني ان تاريخ ولادة المعتز كان في غضون سنة ٢٣١هـ ، كما ذهبت الى ذلك بعض المصادر ، كما ان استخلاف أبيه كان في سنة ٢٣٢هـ ، واذا صح هذا فان عمر المعتز حين ادرك أربع عشرة سنة ، وأختتم قصيدته هذه بالدعاء للخليفة وطول العمر والتمتع بما أنعم الله عليه بادراك ابنه وبلوغه مبلغ الرجال :

قد قلت للغيم الركام ولج في ابراقه ، وألح في ارعاده
لا تعرضن لجعفر متشبهاً بندى يديه فلست من أنداده
الله شرفه ، وأعلى ذكره ورآه غيث عباده وبلاده
ملك حكى الخلفاء من آبائه وتقيل العظماء من أجداده
يزداد ابقاء على اعدائه أبداً وافضالا على حساده

* * *

يا كالىء الاسلام في غفلاته ومقيم نهجى حجه وجهاده
تهنيك في المعتز بشرى بينت فينا فضيلة هديه ورشاده

---

(١) أخبار البحتري ص ٩٤ ـ ٩٥

قد أدرك الحلم الذي أبدى لنا — عن حلمه ووقاره وسداده
ومبارك ميلاد ملكك مخبر — بقريب عهد كان من ميلاده
تمت لك النعماء فيه ممتعاً — بعلو همته ووری زناده
وبقيت حتى تستضيء برأيه — وترى الكهول الشيب من اولاده[1]

حفلة صيد :

ويخرج المتوكل في نزهة على ظهر احدى السفن العظيمة التي تسمى « بالزَوّ » الى منطقة مشتهرة بكثرة الطيور وهي القاطول[2] ، ويدعى البحتري الى مرافقة الخليفة في نزهته أو حفلته هذه التي وصفها لنا وصفا جميلا في قصيدته الآتية ، فبعد المقدمة الغزلية ينتقل الشاعر الى وصف ما جرى في هذه الحفلة من أمور ، فيتساءل قائلا : هل الحياة سوى كأس مفعمة بالراح ، تدور على الندامى بين أنغام العود ، والحان الناي ، ولكن انغام أي عود ، وألحان أي ناي ؟ انها الانغام الشجية التي تنطلق من اوتار عود بنان ، اشهر عازفي عصره ، والالحان الناغمة التي تنبعث من أعماق ناي زنام أعظم زامري وقته ، ويبدو ان البحتري قد جهر لاول مرة في قصيدته هذه بذكر الخمر التي كانت تدور في هذه الحفلة ، ولكنه ذكر لا يخلو من الاقتضاب بل التلميح !

ويبدو ان المتوكل ـ على ما كان عليه من العكوف على الملذات ـ لم يكن راغبا في ذكر ما كان يجري في مجالسه وحفلاته الخاصة من أمور ، ولعل هذا هو السبب في اغفال الشاعر هذه الناحية ، فهو لم يتطرف اليها من قريب ولا من بعيد ، وانما استعاض عنها بالاشادة بتقوى الخليفة وعدله وسهره على الرعية ، وبنسبته الى الرسول وتقبّله لكثير من عاداته وصفاته .

---

(١) الديوان ٢/٧٠٢ ـ ٧٠٣ .
(٢) للتوسع في هذا المجال يحسن الرجوع الى كتابنا « سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٢ ، ٣٠٦ وما بعدها .

فاليوم ـ الذي قضاه الشاعر على ظهر هذه السفينة التي كانت كالقصر العظيم والتي كانت تسير بفتيان انتشروا على ظهرها من بين قائم وقاعد ـ يوم مشهود بطيبه وحسنه تمتع فيه بالغناء والمدام ، وكانت البزاة المدربة تنقضّ على فرائسها من الطير ، فتعود بها وهي مخضبة الاظفار ، مدماة المناسر ، وانه لم ير نهرا كالقاطول الذي جرى فيه الصيد ـ يزخر بمياهه ، ويطغى بعبابه ولججه ، ولا جبلا كهذه السفينة ـ الزَوّ ـ تقف مرة ، وتسير أخرى • ويظهر انها كانت من الضخامة بحيث أوهمت بعضهم بانها جبل(١) ، وبعد هذا الوصف السريع المقتضب لحفلة الصيد هذه ينتقل البحتري الى الثناء على الخليفة الذي يصفه بالبياض وباجتماع المحاسن ، وطلاقة المحيا ، وفيض الكرم ، والذود عن الرعيّة ، وحياطة الدين ، والذّبّ عن الاسلام الى غير ذلك من النعوت ، ويبدو ان البحتري قد عمد الى الاكثار من هذه الصفات ليغطى على ما قلت منه من الاشارة الى المدام التي دارت في هذه الحفلة :

هل العيش الاّ ماء كرم مصفّق — يرقرقه في الكأس ماء غمام
وعود بنان حين ساعد شجوه — على نغم الألحان نايُ زنام ؟(٢)
أبى يومنا بالزَوّ الا تحسناً — لنا بسماع طيب ومدام
غنينا على قصر يسير بفتية — قعود على أرجائه وقيام
تظلّ البزاة البيض تخطف حولنا — جآجيء طير في السماء سوام

(١) أنظر : الديوان ٣/٢٠٠٠ الحاشية ، وأنظر ص ٢٠٠٢ حاشية (٨) •

(٢) قال الثعالبي في ثمار القلوب ص ١٥٥ ما نصه : « كان بنان وزنام مطربي المتوكل ، وكان كل منهما منقطع القرين في طبقته ، فاذا اجتمعا على الضرب والزمر أحسنا وفتنا وأعجبا وعجبا ، وكان المتوكل لا يشرب الا على سماعهما » • وبقي زنام الزامر الى أيام المعتز حيث ضعف وارعش وازمنه النقرس ، أنظر : الديارات ص ١٠٩ الطبعة الثانية •

تحدّر بالدراج من كل شاهق   مخضبّـــة أظفــارهن دوام
فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه   تدفق بحر بالسماحة طـام
ولا جبلا كالزّوّ يوقف تارة   وينقــاد اما قدته بزمـــام[١]
لقد جمع الله المحاسن كلهـــا   لأبيض من آل النبيّ همـــام
نطيف بطلق الوجه لا متجهم   علينا ، ولا نزر العطاء جهام
يحبيـــه عنـــد الرعيـــة أنه   يُدافع عـــن أطرافها ويحامي
لقد لجأ الاسلام من سيف جعفر   الى صـــارم في النائبات حســـام
نصلي واتمام الصـــلاة اعتقادنا   بأنك عند الله خـــير امـــام
حلفت بمن أدعوه رباً ومن له   صلاتي ونسكي خالصا وصيامي
لقد حطت دين الله خير حياطـــة   وقمت بأمر الله خير قيـــام[٢]

حريق في قصر المتوكل :

وقع يوما حريق في أحد قصور المتوكل الذي كان في حوزة ابنـه وولي عهده المعتز ، ويبدو ان الحريق كان ضخما هائلا مما جعل الشاعر يحاول التخفيف من اثر وقعه في نفس المتوكل . ولم يفصح لنا البحتري عن اسم هذا القصر كما لم يتناول بالتفصيل ما حل به ، فهو يبدأ أبياته بشكر الله على ما انعم به عليه من احسان وأحاطه به من معروف ، وكيف لا تكون نعمة سابغة ، واحسانا شاملا ، وقد حفظ الله صاحب القصر من المكروه ، وأبعد عنه نازلة مخيفة ، ولـكن بامكانه تعويض ما التهمـه الحريق ، وذهب به الحدثان ، فهذه الارض ملكه ، وهؤلاء الناس عبيده وما قيمة هذا الحريق ـ بجنب ما للخليفة من أملاك وعمائر ـ حتى نسهر له قلقين ونبقى مضطربين ، ومع كل ذلك فلست ألوم من يجد لذلك ،

---

(١) جاء في القاموس المحيط للفيروزابادي ٣٣٩/٤ ان « الزّوّ .. سفينة عملها المتوكل لا جبل ، ووهم الجوهري ، وانما غرّه قول البحتري :
ولا جبلا كالزّوّ يوقف تارة   وينقاد امّا قدته بزمام »
(٢) الديوان ٢٠٠١/٣ ـ ٢٠٠٣ .

فالانسان في كل أحواله انسان ، يتأثر ويتألم لما يحلّ بالآخرين ، وينزل بهم من مكاره وحوادث . والشاعر الذي يجهد ان يسرّى عن الخليفة ، ويخفف من اثر الحادث لديه ، ما يلبث ان يسوق حكمة تنبيء عن ان ما يحل بالانسان من مكروه لا ينبغي ان ينظر اليه من زاوية الخسران فحسب ، فهذه المكاره ربما كانت سببا في جلب المنافع ، وعلّة في ترادف الفوائد ، وهذا الأمر ينبغي ألا يقلل من قيمة وليّ العهد ، ولا ينال منه ، طالما كان هناك من يعوّض خسرانه ويرأب صدعه ، بل ان ما حل من الحريق الهائل والنيران المسعرة ، ما هو الاّ دليل ساطع وبرهان قاطع على ان في هذا الحريق اشارة الى تملّك الدنيا ، وفي هذه النيران أمارات على العز والسلطان ، وهو تعليل فيه من اللباقة والحذلقة الشيء الكثير :

منّ من الله مشكور واحسان ... ونعمة كفرها ظلم وعدوان

بالقصر لا بمليك القصر ، نازلة ... أضحى لها وهو طلق الوجه جذلان

يبني ويعمر ما يبنيه من أمم ... فالأرض دار له والناس عبدان

ما كان قدر حريق أن نبيت له ... وكلنا قلق الاحشاء حرّان

بل ما ألوم شفيعاً أن يداخله ... وجد لذلك والانسان انسان

وربما جلب المكروه عافية ... ترجى وأردف بعد السوء احسان

لا تنتقص لوليّ العهد أبهة ... ولا يكن منه للأيام اذعان

عند الخليفة مما فاته خلف ... بالمال مال وبالبنيان بنيان

تفاءل الناس واشتدت ظنونهم ... والفأل فيه لبعض الامر تبيان

وأيقنوا أن تنوير الحريق هو الـ ... ـدنيا يملكها والنار سلطان[1]

مدينة المتوكل :

« من أعمال المتوكل العمرانية بناؤه مدينة له شمال سامراء ، مدينة

---

(١) الديوان ٤/٢٢٥٦ وأنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

والده المعتصم ، وقد اختلفت المصادر القديمة في اسم هذه المدينة ، فقيل : « الماحوزة » و « الماخورة » و « الجعفرية » و « المتوكلية » .

وأما بدء البناء في هذه المدينة فكان في سنة ٢٤٥هـ حيث أمر المتوكل المهندسين أن يختاروا موضعا لها ، فوقع اختيارهم على موضع يقال له الماحوزة ، وهو الموضع الذي قيل : ان المعتصم حاول ان يبني مدينة فيه . فأمر المتوكل بحفر نهر يتوسط مدينته الجديدة ، وألقى في حفر هذا النهر اثنى عشر الف عامل ، ومدّ الشارع الاعظم من دار أشناس التي بالكرخ والتي صارت أخيرا الى الفتح بن خاقان ـ الى قصور مدينته هذه ، وجعل دون قصوره ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه ، وأقطع ولاة عهوده وابناءه وقواده وسائر الناس ، فشيدت القصور وبنيت الدور ، وكان المتوكل يدور بنفسه فمن رآه قد جد في البناء أجازه وأعطاه . فجدّ الناس في ذلك وارتفع البناء في أقل من سنة . وبنى المتوكل فيها مسجداً جعل له مئذنة (ملوية) على غرار مئذنة مسجده الجامع في سامراء ، ثم انتقل اليها بعد ان تكامل بنؤها في أول يوم من المحرم سنة ست وأربعين ومائتين . ونقل اليها دواوين ملكه حتى أثر ذلك في سامراء تأثيرا سيئا ولكنه لم يمكث في مدينته الجديدة هذه الا بضعة أشهر حتى قتل من قبل الاتراك في قصره المعروف بالجعفري[١] ، وذلك في سنة سبع واربعين ومائتين .

وحين ولي ابنه المنتصر الخلافة بعده ، أمر بالانتقال الى سامراء ، كما أمر الناس بهجر المتوكلية ونقض قصورها ، وحمل الانقاض الى سامراء ، فخربت المتوكلية وتقوضت وأصبحت قصورها أطلالا ، وعمائرها آكاماً توحش الناظر اليها ، وتبعث فيه الحزن والاسى »[٢] .

---

(١) سيأتي الكلام عليه فيما بعد .

(٢) سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

وللبحتري في وصف المتوكلية قصيدتان تعدان من عيون شعره .

الاولى ميمية تقع في (٣٥) خمسة وثلاثين بيتاً ، اشتمل القسم الغزلي منها على ثلاثة عشر بيتا ، وهو غزل يذوب رقة ، ويسيل عذوبة ، اكثر فيه من التقسيم ، ثم انتقل بعد التمهيد الى تعداد أوصاف المتوكل التي جاء الكثير منها فيما سبق من مدائحه ، فخلافته أمن وعدل ، وحلمه وسع الناس ، وكرمه غريب لفيضه وغزارته حتى ليهين رقاب المال ويذلها ، وهو اذا ما وهب واعطى لا ترى في قسمات وجهه سوى أمارات الرضا ودلائل الارتياح ، وهو كفيٌ ان شاء المفاخرة والمساماة ، وجليل ان رام غيره مفاخرته ومباهاته ، وقد غمر الناس بفضائله ونعمه وعطاياه ، وورث مكارم آبائه وأسلافه : كالسقاية والمصلّى والكعبة وما الى ذلك من المشاعر المشهورة ، ويمضي البحتري بعد تعداد هذه الاوصاف والمحامد الى تفضيل المتوكل على ما سلف من الخلفاء ، فأولئك الخلفاء لو شاءوا ان يجاروه في حلبات الرأي والعزيمة لما وسعهم ان يعلقوا به ، فانه يفوتهم جوداً ، ويزكو عليهم عوداً ، يبذهم مضاء وشجاعة .

ثم يلمح الى خلافة العباسيين فيدافع عنها بطريقة لا تخلو من الغموض والابهام ، أو قل من الاشارة والرمز ، فيقول : ان من يخرج على امرهم يعد من العصاة والخارجين عن طاعة الله ، ومن ينكر حقهم في الخلافة لا يجد سوى النكال والخذلان ، بل ان الشاعر ليجرد من يتأخر عن تقديم ولاية العباسيين من الاسلام ، وان تظاهر بأداء الصلاة والصيام ؟ ولكن من هم هؤلاء الذين حمل عليهم البحتري هذه الحملة في مخالفة العباسيين ونكران حقهم ، وعدم تقديم ولايتهم ؟ أهم العلويون أم الامويون أم أناس آخرون ؟ ان الشاعر كما قلنا لم يفصح عن هوية هؤلاء الناس .

وانتم أيها العباسيون ، حميتم الثغور والتخوم بسيوفكم المسلولة ، ورماحكم المشروعة ، وخضتم الغمرات والمعامع على ما في ذلك من المكاره

والاهوال . وبعد هذا يتمنى اولى نعمته السلامة والدوام ، وينتقل الى وصف مدينته المتوكلية التي يراها قد تعالى حسنها ، وتكامل بناؤها ، بما انطوت عليه من القصور اللامعة التي تلوح للناظر كالكواكب الهادية بنورها للسارين ، في ظلام الليل ، وهو تشبيه ردده الشاعر أكثر من مرّة في أوصافه لهذه القصور ، وان هذه المدينة كانت قائمة في مكان فسيح موشى بأفانين الزهور والورود ، وما يكاد يلوح برق الربيع له حتى يغمره بمياهه الغزيرة ، ويخطر عليه بانسامه العليلة ، واذا الارض مكسوة بحلة قشيبة من ضروب النبت ذي الازاهير الفرادى والتؤام ، وانها لتبدو ضاحكة مفترة للضحى حينا ، ومغمورة بهواطل السحب حيناً آخر ، ولو لم يتيسر لها ان تسقى بريّق الغيث لكفاها الممدوح ذلك :

عذيرى فيك من لاح اذا ما ... شكوت الحب حرقني ملاما
ألام على هواك وليس عدلا ... اذا أحببت مثلك أن ألاما
لقد حرمت من وصلي حلالا ... وقد حللت من هجري حراما
اعيدي فيّ نظرة مستثيب ... توخّى الأجر او كره الأثاما
ترى كبداً محرّقة ، وعيناً ... مؤرّقة ، وقلباً مستهاما
خلافة جعفر عدل وأمن ... وحلم لم يزل يسع الأناما
غريب المكرمات ترى لديه ... رقاب المال تهتضم اهتضاما
غنيّ ان يفاخر او يسامي ... جليل ان يفاخر او يسامى
نعدّ لك السقاية والمصلّى ... واركان البنيّة والمقاما
وما الخلفاء لو جاروك يوما ... بمعتلقيك رأباً واعتزاما
ألست أعمهم جوداً وازكا ... هم عوداً ، وأمضاهم حساما ؟
مخالف امركم لله عاص ... ومنكر حقكم لاقٍ أثاما
أمين الله دمت لنا سليماً ... ومنيت السلامة والدواما
أرى المتوكلية قد تعالت ... محاسنها ، وأكملت التماما

قصـــور كالكواكب لامعـــات يكدن يضئن للساري الظلاما
وبرّ مثل برْد الوشي فيـه جنى الحوذان ينشر والخزامى
اذا برق الربيع لـــه كستـه غوادي المزن والريح الرخامى[1]
تضاحكها الضحى طورا وطـــورا عليها الغيث ينسجم انســجاما
ولو لم يستهلّ بها غمـــام بريّقه لكنت لهـــا غماما[2]

اما القصيدة الثانية ، فهي عينية وتقـــع في (٢٥) خمسة وعشرين بيتا ، استغرق القسم الغزلي منها سبعة أبيات ، وهو لا يقل روعة ورقة عن مثيله في القصيدة السابقة ، كما اشتملت على دفاع عن الخـــلافة العباسية ، ووصف للمتوكل لا يختلف في محتواه كما ذكره في قصيدته السابقة أيضا ، هذا الى انها احتوت على أبيات تشير الى جفاء الخليفة له •

فبعد الغزل ينتقل الى الدفاع عن الخلافة العباسية وأحقّيتها للعباسيين مشيراً الى انهم من سلالة العباس عم النبيّ الذي دعاه عمر الى ان يستسقى للمسلمين من أهل الرمادة في عام (١٧هـ) ، بعد ان حلّ فيهم المحـــل والقحط ، فاستجيبت دعواه وسقى القوم ، وأخصبت الارض ، فاتخـــذ الشاعر من هذا دليلا على فضيلة العباس الاب الاعلى للعباسيين ، ويقول : انه يرى الخلافة وهي اعظم رتبة في الملة الاسلامية ، حق لهم ، ووراثة لا ينزعها احد منهم ، وان الله حين اعطاها لهم فانما أعطاها عن علم بهم ، ومن ذا الذي بمقدوره ان يطاولهم ويساجلهم ، وفضيلة سقاية العباس للمسلمين مشهورة معروفة •

والبحتري في هذه الابيات أكثر صراحة في اندفاعه للدفاع عـــن خلافة العباسيين عما سبق في القصيدة الماضية ، بل ربما كان اكثر حماسة واندفاعا مما أثر عنه في أيّة قصيدة أخرى !

---

(١) الرخامى : الريح اللينة •
(٢) الديوان ٣/٢٠٠٨ ـ ٢٠١٢ •

والخليفة ملك رضاه من رضا الله ، وسخطه موت الأعادي ، وحتفهم المتوقع ، وهو الى ذلك متحلٍ بالكرم ، متجمّل بالورع ، وانت ايها الملك الذي اسبغت نعمك على الناس وأرويت بفيض جودك غلّة العطاشى ، ليهنيك في مدينتك المتوكلية التي حسن صيفها ، وطاب ربيعها ، وهي واسعة مشرقة ، رقيقة النسيم ، دمثة التربة ، وذات أكناف فسيحة ، زاد من حسنها ما امتد لها من برّ ، واترع من بحر ، وهذا الوصف نفسه مرّ في القصيدة السابقة ، وكان من سرور الناس بها ان هيء لهم فيها مسجد جامع ، أدوا فيه فريضة صلاة الجمعة[1] ، ويشير الشاعر على الخليفة أن يضرب المسكوكات باسم هذه المدينة تخليدا لها ، واعتزازا بها ، وينهي قصيدته بخمسة أبيات يشير فيها الى اطراح المتوكل له ، ويأمل ان يعطف عليه ، فيسمح له بالمثول بين يديه ليدافع عن نفسه وليستمع الى ما يقوله في ذلك ، يدفعه الى هذا حسن ظنه بالمتوكل الذي ما زال يعده موئله عند الملمات ، ومفزعه لدى الخطوب ، ثم يتساءل عن سبب انكاره الصديق الذي اغرى به الاعداء فشمتوا به وفرحوا .

وواضح ان منزلة البحتري كانت عظيمة لدى المتوكل حتى تجرّأ ان يطلق عليه كلمة (الصديق) ، وان اطراح الخليفة له وابعاده عن مجلسه جعله هدفا لظلم من لم يكن بوسعه ان يفعل به قبل هذا الجفاء ، ثم يختتم ابياته بقوله : ان لم يكن هناك من ذنب اجترحه فثقته بعدله الواسع ، أو ان كان له ذنب اقترفه فأمله في عفوه الذي يسع كل ذنب .

ونحن لا ندري السبب الحقيقي في جفاء المتوكل للبحتري ، ويظهر ان جفاءه له كان في نفس الوقت الذي اطرحه فيه الفتح من قبل ، وان

---

(١) جاء في تاريخ الطبري ٩/٢٢١ ما ياتي : « وصلّى المتوكل فيها (أي في سنة ٢٤٦هـ) صلاة الفطر بالجعفرية ، وصلى عبدالصمد بن موسى في مسجد جامعها ، ولم يصلّ بسامراء احد » .

أبياته هذه فيها شيء كثير مما عاتب فيه الفتح :

شوق اليك تفيض منه الادمع	وجوى عليك تضيق منه الأضلع
وهوى تجدّده الليالي كلما	قدمت وترجعه السنون فيرجع
أصفيك أقصى الود غير مقلل	ان كان أقصى الود عندك ينفع
وأراك أحسن من أراه وان بدا	منك الصدود ، وبان وصلك أجمع
يعتادني طربي اليك فيغتلي	وجدي ، ويدعوني هواك فأتبع
كلف بحبك مولعٌ ويسرّني	أني امرؤ كلف بحبك مولع
شرفاً بني العباس ان أباكم	عمّ النبيّ وعيصه المتفرّع
ان الفضيلة للذي استسقى به	عمر وشفّع اذ غدا يستشفع
وارى الخلافة وهي أعظم رتبة	حقا لكم ، ووراثة ما تنزع
أعطاكموها الله عن علم بكم	والله يعطى من يشاء ويمنع
من ذا يساجلكم وحوض محمد	بسقاية العباس فيكم يشفع
يا أيها الملك الذي سقت الورى	من راحتيه غمامة ما تقلع
يهنيك في المتوكلية انها	حسن المصيف بها ، وطاب المربع
فيحاء مشرقة يرقّ نسيمها	ميث تدرّجها الرياح واجرع
وفسيحة الأكناف ضاعف حسنها	برّ لها مفضىً وبحر مترع
قد سرّ فيها الاولياء اذا التقوا	بفناء منبرها الجديد فجمعوا
فارفع بدار الضرب باقي ذكرها	ان الرفيع محلّةً من ترفع
هل يجلبنّ اليّ عطفك موقف	ثبت لديك أقول فيه وتسمع
ما زال لي من حسن رأيك موئل	آوي اليه من الخطوب ومفزع
فعلام أنكرت الصديق وأقبلت	نحوي ركاب الكاشحين تطلّع
وأقام يطمع في تهضّم جانبي	من لم يكن من قبل فيه يطمع
الا يكن ذنب فعدلك واسع	أو كان لي ذنب فعفوك اوسع (١)

---

(١) الديوان ٢/١٣١٠ ـ ١٣١٣ .

الجعفـــري :

« وهو من أعظم قصور المتوكل وأجلها ، بناه في موضع الماحوزة سنة خمس واربعين ومائتين للهجرة ، وبلغت النفقة عليه ألفى الف دينار . وهذا القصر هو الذي قال فيه أبو العيناء يخاطب المتوكل حين سأله عنه « ان الناس بنوا الدور في الدنيا ، وانت بنيت الدنيا في دارك » وفيه قتل المتوكل سنة سبع واربعين ومائتين للهجرة »[1] .

وقد جاء ذكر هذا القصر أكثر من مرة في شعر البحتري ، وهـذه احدى قصائده المعروفة فيه ، فقد أشار الى اتمام الخليفة « جعفر » المتوكل لهذا القصر ، الذي نعته بانه خير دار أنشئت في خير موضع يتراءى للبادين والحاضرين ، في مكان مشرف ذي أرض طيبة ، دائمة الاخضرار ، كثيرة الاضاءة ، وان لم ينسكب عليها الحيا ، أو يطل عليها البدر ، وان موضعه هذا ليقع في مهب الريح الشمال، ويشارف في سموه وعلوه السحب الهاطلة المدرارة ، وان حسن تقدير المتوكل واختياره لهذه الدار وسخاءه وبذله الكثير في سبيلها ، فاق غيره ممن سبقه من الملوك الذين قعد بهم الضـن

---

(١) سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٦٠ ، جاء في كتاب « شاعرية الوليد » لحمدي علي ص ٢٤٥ ما نصه : « والجعفري هو القصر الذي بناه المتوكل سنة ٢٤٥ للهجرة في سر من رأى في مكان يسمى الماحوزة على نهر القاطول ، ... وهو الآن مندثر ، ولم يبق منه غير الجهة الامامية ، بقيت تشهد على الروعة التي كانت لهذا القصر ، ولقد تمتعت بزيارته في شتاء سنة ١٩٣٩ » .

والمؤلف على ما يبدو قد تمتع بمشاهدة آثار « بيت الخليفة » التي ما زال بعضها قائما الى اليوم ، فظن ما شاهده بقايا القصر الجعفري ، وهو وهم ؛ لان مكان القصر المذكور ليس في هذه البقعة ، وانما هو الى الشمال منها . كما ان القصر المذكور لم يبن على نهر القاطول وانما كان على ضفة نهر دجلة اليمنى ، وقول البحتري :

وتسير دجلة تحته ففناؤه ⁝ من لجة غمر وروض أخضر

دليل على ذلك .

والشح عن مثلها ، وان ما كان عليه من علوّ الهمة التي استصغرت ما كان يحسب كبيرا ، واستقلت ما كان يعدّ كثيرا ، كل ذلك كان السبب في انجاز هذه الدار واتمامها وفي هذا اشارة الى جسامة المبالغ التي انفقت على بناء هذا القصر وملحقاته . ثم يمضي الشاعر فيصف علوّ هذه الدار وضخامتها فيقول : ان شموخ البنيان المرتفع في أعالي الفضاء يبدو وكأنه ذرى جبلي رضوى وصنبر ، وان ليزري على ما للملوك من الهمم العظيمة ، ويحطّ مما بناه كسرى وقيصر ، وان علوّه الذاهب في أجواز السماء ليبدو للعيون الناظرة ، وكأنه بياض كوكب المشتري ، وهذا يشير الى ان القصور العباسية في سامراء كانت ذات لون أبيض عموماً ، كما كانت جوانبه من الضخامة والاتساع بحيث ملأت الفضاء ، وامتدت شرفاته حتى عانقت السحب الممطرة ، ولعل هذا ما يذكرنا « بناطحات السحاب » في عصرنا هذا ، وانه واقع على مقربة من نهر دجلة التي ترفده بمياهها الثرّة ، فتحيل فناءه الى لجج غامرة ، ورياض غن ، وان الرياح لتلاعب ما انتشر من الشجر في أرجائه ، فتثني أغصانها ، وتحنى أعطافها في ماء جار منبجس .

وانه ليدعو لمنشئه ومؤسسه بعد انجازه وتمامه ان يعيش فيه بحبور وبهجة لانه القصر الذي منحه من قلبه الحب المحض ، وخصّه من نفسه بالود الصافي ، حتى أسماه باسمه ، مما كسبه علوّاً وفضلا وفخراً ، وقد احتفلت الدنيا « بتدشين » المتوكل لقصره هذا ، فالغبار سكن وهدأ ، والغمام بل الارض بوابله ، والدنيا تجملت بأحلى حللها ، وبدت طلقة بمحياها ، وها هو الخليفة بجيشه فينزل في أسعد منزل ، ويتمتع بأجمل مشهد :

ان الظباء غداة سفح محجّر هيجن حرّ جوىّ وفرط تذكّر
من كل ساجي الطرف أغيد أجيدٍ ومهفهف الكشحين أحوى أحور

* * *

قد تمّ حسن الجعفري ولم يكن ليتمّ الا بالخليفة جعفر
ملك تبوأ خير دار اقامة في خير مبدى للانام ومحضر
في رأس مشرفة حصاها لؤلؤ وترابها مسك يشاب بعنبر
مخضرّة والغيث ليس بساكب ومضيئة ، والليل ليس بمقمر
ظهرت بمنخرق الشمال، وجاورت ظلل الغمام الصيّب المستكثر
فرفعت بنياناً كأن مناره أعلام رضوى او شواهق صنبر
أزرى على همم الملوك وغض من بنيان كسرى في الزمان وقيصر
عالٍ على لحظ العيون كأنما ينظرن منه الى بياض المشتري
بانيه باني المكرمات ، وربّه ربّ الاخاشب والصفا والمنبر
ملأت جوانبه الفضاء ، وعانقت شرفاته قطع السحاب الممطر
وتسير دجلة تحته ، ففناؤه من لجّة غمر ، وروض أخضر
شجر تلاعبه الرياح فتنثني أعطافه في سائح متفجّر
فاسلم أمير المؤمنين مسربلاً سربال منصور اليدين مظفّر
واستأنف العمر الجديد ببهجة الـ ـقصر الجديد وحسنه المتخيّر
واسم شققت له من اسمك فاكتسى شرف العلوّ به وفضل المفخر
خفت الغبار وقد علوت تريده وسرى الغمام بوابل متفجر
وتحلت الدنيا بأحسن حليها وغدت بوجه ضاحك مستبشر
قد جئته فنزلت أيمن منزلٍ ورأيته فرأيت أحسن منظر
فاعمره بالعمر الطويل ونعمة تبقى بشاشتها بقاء الاعصر(١)

الجعفري أيضـا :

وهذه أبيات أخرى للبحتري في وصف القصر المذكور بدأها بذكر هطول الامطار الغزيرة المتوالية ليلا ونهاراً ثم انتقل الى القول بان بهجة النعيم أخذت تتردد بين قصري الصبيح والجعفري ، ثم نعت القصر الثاني

---

(١) الديوان ١٠٣٩/٢ ـ ١٠٤٢ .

بانه عجيب البناء ، أنيس النزول ، جميل المنظر ، تكتنفه رياض مزهرة تصبو النفوس اليها ، وتلتذ بمحاسنها وأريجها ، وهذا القصر دار ملك مجتباة لامام المسلمين وهو الخليفة الذي حاز تراث الرسول والذي أخذ الناس بسيرة عادلة مستقيمة وهو يدعو بعد نعته اياه بانه امام الهدى وصاحب الحق في الخلافة ، وسليل الرشيد والمهدي ـ بالعمر الطويل ، والعيش الرضيّ ، والدهر الجميل الحبيب :

باكرتنا بواكر الوسميّ ثم راحت وأقبلت بالوليّ
وأرى الغيث ليس ينفك يهمي في غداة مخضلة وعشيّ

في البناء العجيب والمنزل الآ نس والمنظر الجميل البهيّ
ورياض تصبو النفوس اليها وتحيا بوردهنّ الجنيّ
دار ملك مختارة لامام أحرزت كفُّه تراث النبيّ
وهب الله للرعية منه سيرة الفاضل النقيّ الزكيّ
فهي محبوّة باحسانه الصا في عليها وحكمه المرضيّ
يا امام الهدى ويا صاحب الحـ ـق ويا بن الرشيد والمهديّ
ليدم دهرك المحبب في النا س بعمرٍ باق وعيش رضيّ (١)

وجاء وصف هذا القصر أيضا في قصيدة أخرى من قصائده التي رفعها الى المتوكل مشيداً بتأخير النيروز (٢) .

« وظاهر ان الشاعر قد رسم صورة واضحة لهذا القصر العظيم ، بيد انه لم يتغلغل في داخله ، ليصور ما كان فيه من ضروب الفنون ، وانما اكتفى بالوصف الظاهري له ، شأنه في أكثر اوصافه !

ويبدو ان البحتري لم يلتزم بوحدة الوصف ـ اذا صح التعبير ـ

---

(١) نفسه ٤/٢٤٥١ ـ ٢٤٥٢ .
(٢) أنظر : ص ٢٢٨ .

وانما كان يطعم وصفه بشيء من المديح للخليفة ، الامر الذي يفقد الوصف ـ كما نظن ـ بعض اتساقه وروعته .

وقد كرر الشاعر في المثال الاول أكثر من مرة ، القول بان هذا القصر كان شامخا ذاهبا في اجواز الفضاء ، ولكن البحتري ـ مع كل ذلك ـ كان متمكنا من الوصف ، موفقاً في اجتباء اللفظ ، بارعاً في الخيال ، ماهرا في التصوير »[1] .

الصبيح :

وهو أحد قصور المتوكل الجميلة أيضا أنفق على بنائه خمسة آلاف الف درهم ، ويبدو ان المراجع المختلفة لم تتحدث عن هذا القصر كثيرا ، وانما اكتفت بالاشارة الخاطفة اليه ، بيد ان البحتري الذي كان شاعر البلاط والذي كان مقيماً في ربوع هذه الحاضرة لم يكن ليغفل عن ذكر أمثال هذه المظاهر العمرانية التي كان لولي نعمته المتوكل شغف عظيم فيها ، لا يقعده عن تنفيذها جسيم الاموال ، ولا يثنيه عن اتمامها مشقة الاعمال[2] .

وللبحتري فضيلة ينفرد بها عن باقي الشعراء المعاصرين له الذين كانوا يترددون على سامراء وخلفائها ، تتميز هذه الفضيلة بذكره لكثير من المظاهر العمرانية التي لم تشر اليها المصادر الاخرى ، ولم يتطرق اليها الشعراء في عهده ، ولولا ذكره لها في شعره لجهل أمرها جهلا تاما ، ومن جملة ما أغفلته المراجع من هذه المظاهر العمرانية هذا القصر الذي جاء وصفه له في احدى قصائده المرفوعة الى المتوكل فالشاعر يشير ـ بعد التمهيد الغزلي ـ الى صفاء الزمان واعتداله ، والى غضارة الحياة

---

(١) سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

(٢) للوقوف على ولع المتوكل في البناء أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

وطيبها ، وان الهواء قد صـفا ، وتصفيق الخمر قد لذّ ، وان استمام هذا القصر « الصبيح » كان في أحمد الاوقات وخيرها ، وقد أصبح داراً تتخذ للأنس كما تتخذ للسكنى والاقامة وكان بازائه قصر آخر على وزنه يسمى « المليح » كاد ـ لو استطاع الكلام ـ ان يحييه مسلّماً ، وقد تزيّنا القصران بالحلل الوشيية وتجمّلا ببرود البهجة ، وبدوا ضاحكين باسمين ، فهما في تقابلهمـا وتزينهما وابتسامهما كالعشيقين ، لو كان بوسعهما اللقاء لراحا في عناق متصل والتزام محتدم ، وان الريح الهابّة بين جنبي هذا القصر العظيم لتكبو مما تلاقيه من الوهن والفتور والملل ، ولم يكن هذا القصر في مكان جدب ممحل ، بل كان يرفده جدول ذو عباب يبدو في صفائه وامتداده كالحسام الابيض المجلّو ، وان هذا الماء اذا ما انصب في فناء البركة الواسعة الخضراء استحال لونه الى قطعة بيضاء صافية من الرخام ، حتى لينخدع البصر فيما يراه منه ، فيحسبه ماء بحر وهو ماء سحاب ، وان الدواليب المنصوبة لا يديرها من الحيوان سوى النعام ، وان هذا القصر وهو خير القصور يستحقه على رغم الاعادي وكرههم له ـ خير الناس وامامهم ، وقد جاور قصر الجعفري القصر العظيم الذي مرّ بنا ذكره • كما مال اليه قصر آخر اسمه الشبداز ، وفي هذا دليل على ان هذه القصور ـ اذا صحّ قول البحتري ـ كانت متجاورة متقاربة !

وطبيعي ان امثال هذه المباني وما احتوته من برك وجداول وزينات لتعد بحق أموراً تستدعي الوقوف عندهـا طويلا ، والتأمل فيما انطوت عليه من الفخامة والروعة والجلال •

فهذه الحلل ـ المباني ـ التي اتخذت منازل للملك شامخة ساطعة في الوانها ، فكأنها النجوم المتلألئة في الظلام الحالك والليل البهيم ، وانها لتسد على الشاعر مسالك الادراك ، وتحول بينه وبين الحقيقة ، فيفزع

الى اوهامه وظنونه يستنطقهما ويستعديهما على تصور ما يراه ، فاذا به يحسب ما يشاهده ضرباً مما يحسبه في الاماني ، ونوعا مما يراه في الاحلام ، فهذه الحلل لم تكن زينة للحياة الدنيا فحسب ، بل هي الى جانب ذلك منازل للتقوى والعبادة ، ولهذا فانشاؤها والتفنن فيها مما يوجب الله فيه على الناس شكر صاحبها ، كما يجزيه عليها ثوابا وأجرا ، ومن أجل هذا فقد بعثت في النفوس الخشوع والاخبات ودفعتها تزلفاً من الجنان التي أعدّها الله للصالحين من عباده - الى النزوع عن اجتراح الذنوب وارتكاب المعاصي ، وهي كذلك مفخرة يباهي بها المسلمون من يكاثرونهم في أمثالها وأشباهها من الامم الاخرى ، وبعد ان يصل الشاعر الى اعقاب غرضه ينهي قصيدته بمباركة الله لهذا الخليفة على ما حباه من مجد معلّى ، وأولاه من مآثر كريمة :

قد صفا جانب الهواء ولذت — رقة الماء في مزاج المدام
واستتم الصبح في خير وقت — فهو مغنى أنس ودار مقام
ناظر وجهة المليح فلو ينـ — ـطق حيّاه معلناً بالسلام
ألبسا بهجة وقابل ذا ذا — ك ، فمن ضاحك ومن بسّام
كالمحبين لو أطاقا التقاء — أفرطا في العناق والالتزام
تنفذ الريح جريها بين قطريـ — ـه فتكبو من ونية وسآم
مستمدّ بجدول من عباب الـ — ـماء كالابيض الصقيل الحسام
فاذا ما توسّط البركة الخضـ — ـراء ألقت عليه صبغ الرخام
فتراه كأنه ماء بحر — يخدع العين وهو ماء غمام
والدواليب اذْ يدرن ولا نا — ضح يسقى بهن غير النعام
بدعٌ أنشئت لاولى عباد الـ — ـله بالرّكن والصّفا والمقام
انّ خير القصور أصبح موهو — باً بكسره العدى لخير الأنام
جاور الجعفريّ وانحاز شبدا — ز اليه كالرّاغب المعتام

حلل من منازل الملك كالأنـ ـجم يلمعن في سواد الظلام
مفحمات تعيي الصفات فما تد رك الا بالظن والأوهام
فكأنا نحسبها في الأماني او نراها في طارق الأحلام
غرف من بناء دين ودنيا يوجب الله فيه أجر الأنام
شوقتنا الى الجنان فزدنا في اجتناب الذنوب والآثام
وبها تشرف الأوائل ملكاً وتباهي مكاثري الاسلام
بارك الله للخليفة في المجـ ـد المعلى والمأثرات الكرام[1]

البركة :

لم يفت خلفاء بني العباس في سامراء ان يلحقوا بقصورهم ما هو ضروري لزيادة جمالها ، وقضاء ساعات اللهو فيها ، فأنشأوا لذلك البرك الفسيحة الجميلة ، وربما جعلوا لكل قصر بركة خاصة ، وقد ذكر اليعقوبي ان المعتصم حين اختط سامراء « بنى العمارات قصورا » وصير في كل بستان قصرا فيه مجالس وبرك وميادين .

وكان لهذه البرك مداخل للمياه ، كما كان لها مخارج لتصريفها ، وكثيرا ما كانت تحف بالرياض الغن ، والاشجار الوارفة ، كما كانت تزود بالدكات الكبيرة والمصطبات الاصطناعية الفسيحة ؛ ليتسنى لجلساء الخليفة وندمائه الجلوس عليها ، وتفننوا في تزيين هذه البرك بالصور البديعة ، والتماثيل الجميلة فجعلوا فرش بعضها مكللة بالجوهر ، كما غشوا ظاهرها وباطنها بصفائح الفضة ، ولم يكتفوا بنوع واحد من البرك ، بل حاول بعضهم ان يتخذ له بركة مسقوفة يتمتع بها في أوقات النهار ، وأخرى مكشوفة يتخذها للاستمتاع في ساعات الليل ، من ذلك بركتا بيت الخليفة الليلية والنهارية اللتان أنشأهما المتوكل ، وكانت تسمى

(١) الديوان ٣/٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٧ يحسن الرجوع الى كتابنا « سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٥٤ ـ ٢٥٨ للوقوف على أمور أخرى تتصل بهذا القصر .

احداهما بالزندان أو الهيثة او هاوية السباع[1] .

أما الدراسات الحديثة المستقاة من اعمال الحفر والتنقيب ، فقد زودتنا بكثير من المعلومات عن أبعاد هذه البرك ومساحاتها ، وعن أشكالها ومواضعها ، فأشارت تلك الدراسات الى ان البركة الحسناء التي وصفها البحتري تتكون من منخفض اصطناعي مربع الشكل ، يبلغ طول كل من اضلاعه زهاء مائتي متر ، وعمقه عن مستوى الارض المجاورة ثلاثة أمتار تقريبا . في حين كانت بركة القصر الجعفري في المتوكلية مستطيلة الشكل يبلغ طولها نحواً من مائة وعشرين مترا ، وعرضها زهاء ثمانين مترا[2] .

وشارك الشعر في الاشادة بهذه البرك ، ووصف ما كانت عليه من السعة والعمق ، واللطافة والحسن ، وقد أشار أبو الفرج الاصفهاني الى ان لابي العبر الهاشمي أشعارا حميدة في المتوكل يصف فيها قصره وبرج الحمام والبركة كثيرة المحال ، مفرطة السقوط ، مما حدا به الى اطراحها

---

(١) جاء في كتاب « شاعرية الوليد » ص ٢٧٧ عند الكلام على البركة التي وصفها البحتري ما نصه : « البركة ... بناها المتوكل على الله العباسي في مدينة سامراء شمال الملوية قريبة من قصر (السباع) ، ولم تزل آثارها باقية الى اليوم ، بركتها التي أصبحت الآن على شكل تل يحيط بالبركة » ولنا على هذا النص ملاحظتان : الاولى : ان البركة التي أشار اليها المؤلف والواقعة الى شمال الملوية ليست هي البركة الحسناء التي وصفها البحتري ، وانها على اكثر الاحتمال البركة المكشوفة التي ما تزال معالمها ظاهرة للعيان الى اليوم ، والثانية ، انه ليس هناك — فيما نظن — قصر يسمى بقصر السباع ، وانما هناك بركة تسمى بهاوية السباع ، أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٨٩ .

اما البركة الحسناء فواقعة على مسافة نحو ستة كيلومترات من مدينة سامراء الحالية شرقا في الموضع المعروف محليا بالمشرحات . أنظر : ري سامراء للدكتور أحمد سوسة ١/ ٢٤ .

(٢) أنظر سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص٢٨٨ ، ٢٩٠ .

واغفال ذكرها في كتابه .

ومن وصف هذه البرك وأشاد بها علي بن الجهم ، فقد رويت له أبيات يصف بها البركة المحتفرة في القصر الهاروني ، قصر الواثق المشهور[1] .

ويبدو انه على الرغم من وفرة البرك وكثرتها فان البركة الحسناء التي جاءت في قصيدة البحتري كانت أعظمها وأشهرها ، حتى كان يطلق عليها – لشهرتها – اسم البركة فحسب ، غير ان بعض المراجع القديمة كانت تسميها بركة الجعفري[2] ، وهي تسمية مخطوءة – اذا صحّ ان مكان البركة الحسناء كما اثبته الدكتور سوسة – يقع في الموضع المعروف محليا بالمشرحات على نحو بعد ستة كيلومترات الى الشرق من سامراء الحالية[3] .

فكأن هذا الاسم قد أصبح علماً عليها . فقد روى عن البحتري انه قال : دخلت على المتوكل وهو جالس على (البركة) والمطر يقع فيها فيعمل حجىً ، فقال : قل في هذا شيئاً[4] .

وروى الاصفهاني في أغانيه ان عثعث المغني قال : « دخلت يوماً على المتوكل وهو مصطبح وابن المارقي يغنيه في قوله :

أقاتلني بالجيد والقد والخدّ وباللون في وجه أرقّ من الورد

وهو على البركة جالس ، وقد طرب واستعاد الصوت مراراً ، وأقبل عليه ، فجلست ساعة ثم قمت (لحاجة) فصنعت هزجاً في شعر البحتري

---

(١) أنظر : المصدر السابق ص ٢٩٢ .

(٢) أنظر : زهر الآداب للحصري ١٩٧/١ وجاء فيه « ويتعلق بهذا الباب قول البحتري يصف بركة الجعفري وهو قصر ابتناه المتوكل في سر من رأى » .

(٣) أنظر : ري سامراء ٢٤/١ .

(٤) أخبار البحتري للصولي ص ٩١ .

الذي يصف فيه « البركة »

اذا النجوم تراءت في جوانبها ليلا حسبت سماء رُكبت فيها »[1]

فهاتان الروايتان تدلان دلالة واضحة على ان لفظة « البركة » قد أصبحت علماً على البركة التي وصفها البحتري في شعره ، والرواية الثانية قاطعة الدلالة على ذلك ، حيث يقول عثعث « نصنعت هزجاً في شعر البحتري الذي يصف فيه « البركة » :

اذا النجوم تراءت في جوانبها ... ومعلوم ان الابيات التي غنى فيها هي من قصيدة البحتري المشهورة في البركة المذكورة .

ويبدو انهم لا يستخدمون لفظة (البركة) اذا ارادوا التحدث عن بركة أخرى غير « بركة البحتري » ، فقد روي عن البحتري انه قال : « كنا عند المتوكل على الله يوماً ، وبين يديه عبادة المخنث فأمر به فألقي في « بعض البرك » في أيام الشتاء ... » .

وواضح من هذه الحكاية ان البركة التي القى فيها عبادة المخنث ، لم تكن بركة البحتري والا لقال « البركة »[2] .

وللبحتري في بركة المتوكل هذه أرجوزة وقصيدة ، فقد روى عن البحتري قوله : « دخلت على المتوكل وهو جالس على (البركة) والمطر يقع فيها فيعمل حجى ، فقال : قل في هذا شيئا ، ولم أكن صاحب بديه ، فاعتزلت فقلت أبياتي :

ذات ارتجاز بحنين الرعد

فوافق انشاده الباكورة من ماء الورد الحديث ، فقال : انظروا ما في الخزائن من ماء الورد العتيق ، فادفعوه الى البحتري ، فدفعوا منه شيئاً كثيراً بعته بمال ... »[3] .

---

(١) الاغاني ١٣/٢٩ .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ٦/٤٣٠ .

(٣) أخبار البحتري ص ٩١ .

أما الابيات التي أنشأها الشاعر فهي :

ذات ارتجاز بحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع لغير وجد لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتثرت مثل انتثار العقد
فراحت الارض بعش رغد من وشي أنوار الربى في برد
كأنما غدرانها في الوهد يلعبن من حبابها بالنرد[1]

وواضح ان البحتري اصرف الى وصف السحابة وشكلها والريح التي تسبقها عادة ، والجهة التي قدمت منها ، كما وصف هطولها على الارض وانتعاشها بها حتى بدت مزدانة بزهورها وانوارها كالبرد الموشي ، وانه لم يخصص من أبياته لوصف ما طلب منه سوى البيت الاخير . وهذا ما دفع الصولي الى التعليق على هذه الابيات بقوله : « ولئن كان البحتري أحسن في أبياته ، فما أتى بما أمر به وأراده منه ؛ لانه أراد منه وصف الحجى ، واحدتها حجاة ، وهي كالقباب الصغار ، فاقتصر على وصف السحابة والمطر ولم يصفها ، وهو يفعل مثل هذا بعينه : وصف شيء مع طبعه وتقدمه ، فيأخذ عفو طبعه ، ولا يتعب فكره »[2] . وان أصاب الصولي في تعليقه على انصراف الشاعر عن وصف ما طلب منه ، فانه غير محق في حكمه على اوصاف الشاعر عموماً ، فالبحتري لم يفعل مثل هذا بعينه ـ كما يقول الصولي ، وشعره الوصفي على اختلاف ضروبه واتجاهاته خير دليل على بطلان هذا الزعم .

أما قصيدته في وصف البركة فهي هائيته الشهيرة في دنيا الادب العربي ، وتقع في (٤٠) أربعين بيتاً ، عشرة الابيات الاولى منها في الغزل

(١) الديوان ١/٥٦٧ ـ ٥٦٨ .

(٢) أخبار البحتري ص ٩١ .

التقليدي وعشرة الابيات الاخيرة في مدح المتوكل ، وما بقي منها كان في وصف البركة المذكورة • فبعد المقدمة الغزلية ينتقل الشاعر فجأة الى الوصف ، ويشير كالمتسائل عمن رأى جمال هذه البركة ، وقد نظرت الغواني الى مقصاصيرها المنشأة في جوانبها ، وانها – أي البركة – لرتبتها العالية ، ومنزلتها الكبيرة ، تخل نفسها لا مثيل لها ، وانهـا الاولى في عظمتها وأهميتها ، وان البحر يأتي في المرتبة الثانية بعدها ، بل ما لدجلة الكائنة على مقربة منها تنافسها في الحسن تارة ، وتباهيها تارة أخرى ، أما علمت بانها محاطة برعاية خير الناس ، ومنشأة من قبله •

وانها لتخل – من دقة الصنعة ، ومهارة الفن – من عمل الجن ، جن سليمان الذين تفننوا في ابداعها ، وتلطفوا في دقاق معانيها ، حتى لو مكّن لبلقيس ان تمرّ بها لحسبتها الصرح الممرّد الذي بناه لها الملك سليمان ، فكشفت عن ساقها عند دخولها فيه لحسبانها اياه لجّة •

وان المياه الدافقة الى جوف هذه البركة لتبدو في سرعتها واندفاعها كالخيول المنطلقة من حبل السباق ، وانها لتخال وهي جارية في القنوات اشبه بسبائك الفضة السائلة في قوالبها ، واذا ما خطرت أنسام الصبا على صفحة هذه البركة عملت فيها حبكا شبيهة بمـا يتراءى على الدروع المجلوّة من طرائق ، وانها لتضاحك الشمس حين تطلّ عليها ، وتباكي الغيث حين يتساقط فيها ، واذا ما جنّ الليل وانعكست أضواء النجوم على صفحتها خلت ما تكوّن من ذلك سماء مركبة فيها ، وانها من فرط عمقها ، وتباعد أقطارها لا يكاد ما بداخلها من السمك المحصور ان يبلغ غايتهـا ومنتهاها ، وانه ليرى في عومه – وقد تفتحت زعانفه – كالطير المنفوضـة خوافيها في أعالي الجو ، فاذا ما رام الهبوط الى أسافلها لقى متسعاً رحيباً له ، واذا شاء الصعود الى أعاليها وجد بهواً كبيراً أيضاً •

وانه لينظر نظرة انحناء والتواء الى صورة الدلفين – وهو نوع من

الحيتان ـ الذي ـ كما يبدو ـ وضع في داخل البركة يزيد من حركة السمك واضطرابه ، وان غزارة مائها لتنوب عن السحب في ريّ ما قصى من بساتينها ، وانها لتحاكي في اندناقها يد الخليفة حين تندفع في اسباغ النعم والعطايا .

ومما زاد في زينتها انهـا سميت باسم منشئها ، كما انهـا اكتنفت بالرياض الغن ذات الزهور والورود التي تحكى في الوانها وشياتها الوان الطواويس وشياتها ، وأنشئت لها دكتان عظيمتان متقابلتان ، ويظهر انهما خصصتا لجلوس حاشية الخليفة للتمتع بمنظر هذه البركة وما فيها .

وبعد ان انتهى الشاعر من وصف البركة انتقل الى الثناء على صاحبها وبانيها وهو الخليفة ، فأشار الى خلافته التي استحقها والتي اختالت هي الاخرى به ؛ لانها وجدت فيه مستحقها وصاحبها ، كما اثنى على كرم أصله ، وعراقة محتده والى رعايته الامة ، وحياطته لها ، باشاعة العدل فيها ، وافاضة العطايا عليها :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها ... والآنسات اذا لاحت مغانيهـا
يحسبها انها من فضل رتبتهـا ... تعدّ واحدة ، والبحر ثانيهـا
ما بال دجلة كالغيرى تنافسـها ... في الحسن طوراً ، وأطواراً تباهيها
أما رأت كالىء الاسلام يكلأهـا ... من أن تعاب ، وباني المجد يبنيها
كأن جـن سليمان الذين ولوا ... ابداعهـا فأدقـوا في معانيهـا
فلو تمرّ بهـا بلقيس عن عرض ... قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيهـا
تنحط فيها وفود المـاء معجلة ... كالخيل خارجة من حبل مجريهـا
كأنمـا الفضـة البيضاء سائلة ... من السبائك تجرى في مجاريهـا
اذا علتها الصبا أبدت لها حبكـاً ... مثل الجواشن مصقولاً حواشيها
فرونق الشمس أحياناً يضاحكهـا ... وريّق الغيث أحياناً يباكيهـا
اذا النجوم تراءت في جوانبهـا ... ليلاً حسبت سماء ركبت فيهـا

لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لبعد ما بين قاصيها ودانيها
يعمن فيه بأوساط مجنحة ... كالطير تنفض في جو خوافيها
لهن صحن رحيب في أسافلها ... اذا انحططن وبهو في أعاليها
صور الى صورة الدلفين يؤنسها ... منه انزواء بعينيه يوازيها
كأنها حين لجت في تدفقها ... يد الخليفة لما سال واديها
وزادها رتبة من بعد رتبتها ... أن اسمه حين يدعى من أساميها
محفوفة برياض لا تزال ترى ... ريش الطواويس يحكيه ويحكيها
ودكتين كمثل الشعريين غدت ... احداهما بازا الأخرى تساميها
اذا مساعي أمير المؤمنين بدت ... للواصفين فلا وصف يدانيها
ان الخلافة لما اهتز منبرها ... بجعفر أعطيت أقصى أمانيها
اذا تجلت له الدنيا بحليتها ... رأت محاسنها الدنيا مساويها
ما ضيعّ الله في بدو ولا حضر ... رعيّة أنت بالاحسان راعيها
ما زلت بحراً لعافينا فكيف وقد ... قابلتنا ولك الدنيا بما فيها
أعطاكها الله عن حق راك له ... أهلاً ، وأنت بحق الله تعطيها[1]

« ومن الواضح ان البحتري قد نجح في وصفه لهذه البركة ، فقد وفق في الملاءمة بين الالفاظ والمعاني ، كما أبدع في تشبيهاته التي بثها في ثنايا القصيدة ، ولم يكن اختياره للقافية بأقل مهارة من اجتبائه للالفاظ والصور البيانية الأخرى !

ومن غير شك ان وصف حركة المياه المتدفقة الى داخل البركة وتشبيهها بحركة الخيول المنطلقة من حبل السباق ، وتشبيه تلك المياه ـ جارية صافية في قنوات البركة ـ بسبائك الفضة المنسابة في مجاريها ، لا يخلو من روعة الحركة ، وجمال التصوير ، كما لا يخلو من المهارة والبراعة وصفه لما يطرأ على ماء البركة حين يتعرض للريح أو تتساقط عليه أشعة الشمس ، أو قطرات

---

(١) الديوان ٤/٢٤١٤ ـ ٢٤٢١ .

المطر ، او حين تطل عليه النجوم في الليل ! ولعل ما في تشبيهه للسمك المحصور في هذه البركة من الطرافة ، وما في تصويره لحركاته التي كان يقوم بها في ارجائها من البراعة ، خير ما يبوئه مركزاً فريداً بين الشعراء ، ويخيل الينا ان أحداً من الشعراء لم يسبقه في هذا المجال ، ومن أجل هذا كله يخيل الينا كذلك ، ان البحتري يعدّ الممهد الاول لهذا الضرب من الفن الوصفي »[1] .

والواقع ان هذه القصيدة تعد من غرر قصيد البحتري ، وكان ابن المعتز على حق حين قال : « لو لم يكن للبحتري من الشعر الا قصيدته السينية في وصف ايوان كسرى ، فليس للعرب سينية مثلها ، وقصيدته في وصف البركة :

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها ... لكان اشعر الناس في زمانه .. »[2]

الدكتان :

وللبحتري قصيدة أخرى يشير فيها الى الدكتين المنشأتين على البركة الحسناء ، ويلمح الى قصر لعله قصر الحير الذي كان مشيداً بالقرب من البركة .

ومن الطريف ان شارح الديوان يعلق على هذه القصيدة بقوله : « اما الدكتان فقد وصفهما البحتري في القصيدة **٩١٥** التي وصف فيها بركة قصر الجعفري فقال : البيت **(٣٠)** :

ودكتين كمثل الشعريين غدت   احداهما بازا الأخرى تساميها »

وواضح ان في هذا الكلام تخليطاً ، اذ ان الدكتين اللتين ذكرهما البحتري في البيت المتقدم كانتا منشأتين على البركة الحسناء ، الواقعة على بعد نحو

---

(١) سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٩٤ .
(٢) أخبار البحتري ص ٧٢ ـ ٧٣ .

ستة كيلو مترات شرق سامراء الحالية ، كما ذكر ذلك الشارح نقلاً عن ريّ سامراء (الديوان ٢٤١٤/٤ الحاشية) .

أما القصر الجعفري فيقع في المدينة المتوكلية الواقعة على نحو عشرين كيلو متراً شمال سامراء ، وقد أشار الشارح الى هذا القصر بقوله : « الجعفري ! قصر بناه المتوكل قرب سامراء بموضع يسمى الماحوزة ، واستحدث عنده مدينة وانتقل اليها ... (الديوان ١٠٣٩/٢ الحاشية) . كما أشار الى المتوكلية بقوله : « المتوكلية : مدينة بناها المتوكل على الله قرب سامرا ، بنى فيها قصراً ، سماه الجعفري أيضاً .. (الديوان ٢٠١١/٣ الحاشية رقم ٢٩) .

ويبدو من هذه التعليقات ان الشارح يجهل ـ في الحقيقة ـ مكان الجعفري ومكان البركة الحسناء ، ولو لم يكن جاهلاً بذلك لما وقع فيما وقع فيه من وهم وتخليط ، على الرغم من ان كتاب « ريّ سامراء » للدكتور سوسة الذي يشتمل على كثير من الخرائط كان مصدره الأساس في هذا الشأن .

والقصيدة تتألف من ستة عشر بيتاً ، ستة الأبيات الاولى منها في الغزل، وما تبقى منها في ذكر الدكتين ، ومدح المتوكل ، فالشاعر يشير الى الرياض الكثيرة المنتشرة بين هاتين الدكتين والتي وشحت بضروب من النرجس الغض ، وصنوف من الآس والزعفران وان هناك قصراً مباركاً ، سامق البنيان ، شامخ العلوّ ، تقصر العيون من الوصول الى ذراه ومنتهاه ، ويبدو انه كان يتخذ للعبادة بدليل قول البحتري ان الخليفة نال في بنائه تكرمة الله ، وفضل عطائه واحسانه . وبعد هذه اللمحة الخاطفة للدكتين والقصر ينتقل الى مدح المتوكل فيتمنى ان يبقيه الله لاتمام أيامه الحسنة وزمانه الطيب ، وهذا ما ردده الشاعر اكثر من مرة في ثنايا مدائحه له ، كما اكرّر انتسابه الى النبيّ الكريم ، والى فرح الخلافة به ، وغبطة الرعية بعدله

وأيامه ، والى ان الله علم بمكانته ومقامه في الذود عن الدين والرعاية للدنيا ، فأعطاه ما أعطاه من جاه وسلطان :

وأرى الدكتين بينهما أفـ ـواف روض كالوشي في ألوانه
في ضروب من حسن نرجسه الغضّ ومن آسه ، ومن زعفرانه
ذاك قصر مبارك تقصر الأعـ ـين دون الرفيع عن بنيانه
فيه نال الامام تكرمة اللـ ـه وفضل العطاء من احسانه
نسأل الله أن يتمم فينا حسن أيامه وطيب زمانه
يا بن عمّ النبيّ واللابس الفخـ ـر من نوره ومن برهانه
أضعفت بهجة الخلافة وارتـ ـد شباب الدنيا الى عنفوانه
ورآك العباد من نعم اللـ ـه عليهم وطَوْله وامتنانه
علم الله كيف انت فأعطا ك المحلّ الجليل من سلطانه
جعل الدين في ضمانك والدنـ ـيا ، فعش سالما لنا في ضمانه(١)

حديقة الحيوانات :

« لم يأل خلفاء بني العباس جهداً في انشاء الحدائق والبساتين ، وفي اتخاذ الرياض والجنائن في عاصمتهم الجديدة سامراء . اذ ما كاد المعتصم ينتهي من تخطيط المدينة واقطاع القطائع حتى أمر بحمل الغروس المختلفة من سائر البلدان والامصار ، وكان لوفرة المياه ، وجودة التربة ، وملائمة المناخ أكبر الاثر في انجاح هذه الغروس من النخيل والبقول والرياحين ، فكثرت لذلك الجنائن والبساتين ، وانتشرت الاوراد والازهار . وتلا المعتصم في الحكم أبناؤه وأحفاده الذين كانوا شغوفين بالعمارة ، وكان يستتبع ذلك بطبيعة الحال الاهتمام بالرياض والحدائق التي لابد منها ليستكمل البناء جماله وروعته ، فكان لكل قصر من قصور الخلفاء ووزرائهم وقوادهم رياض غن ، وبساتين فيح امتدت من المطيرة الواقعة في جنوب

(١) الديوان : ٤/٢١٧٠ .

سامراء الى الدور الكائنة في شمالها . فكانوا يلجأون اليها في أوقات الاستجمام وساعات اللهو .

ولعل أكبر الحدائق التي أنشئت في سامراء هي « حير الوحوش » للمتوكل . وتقع هذه الحديقة خارج مدينة سامراء ، وهي مسوّرة بسور من الطين يحيط بها من جميع جهاتها ، وتحتل مساحة واسعة تبلغ حوالي ثلاثة وخمسين كيلومترا . وما تزال آثار سور هذه الحديقة شاخصة الى اليوم . وكانت تضمّ عددا كبيرا من الحيوانات المختلفة . وقد أشار اليعقوبي الى هذه الحديقة وسياجها وما كان فيها من أنواع الحيوان ، فقال : « وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمعت الى اقطاعات لقوم هدم الحائط وبنى خلفه حائطا غيره ، وخلف الحائط الوحش من الظباء والحمير والوحش والايايل والارانب والنعام ، وعليها حائط يدور في صحراء واسعة » . وكانت هذه الحديقة تضم الى جانب ذلك البركة الحسناء التي وردت في شعر البحتري ، كما كان فيها وبالقرب من البركة قصر جميل ما تزال آثاره شاخصة ، كان معدّاً لنزهة الخليفة وراحته »(١) .

وللبحتري مدحة في المتوكل أشار فيها الى حيوانات هذه الحديقة الكبيرة ، وتقع في (٢٥) خمسة وعشرين بيتاً ، استهلها بالغزل الرقيق العذب ثم انتقل بلطف وتمكن الى امتداح المتوكل ، واذا صحّ قوله في البيت الذي انتقل فيه الى غرضه فيكون قد قصد الخليفة من بلده !

والبحتري في قصيدته هذه يلحّ كثيرا في اسباغ الصفات الدينية العظيمة على المتوكل فهو الامام الذي له شرف يعدّ في سلف الدنيا وباقيها ، وهو خليفة الله الذي يرفع بأعطياته ونعمه الامجاد ، فليس هناك من فضيلة الاّ به ، ولا من رعية الاّ اذا كان راعيها ، وان ملكه في اتساعه وعظمته

---

(١) سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

كملك النبيّ سليمان الذي سخر الله له الريح عاصفة ، كما سخّر الجن • وان مما يدل على قربه من الله وزلفته عنده ، ما قام به من الدعاء لاستسقاء المسلمين حين حلّ فيهم القحط والمحل ، ويبدو ان البحتري تفرّد بذكر هذا الخبر ، اذ لم تشر اليه ـ فيما نحسب ـ المراجع الاخرى !

وأشار البحتري أيضا الى طاعة الحيوانات التي كانت في الحديقة التي أنشأها لها ، فقال : ان هذه الحيوانات جاءت طيّعة وهي من بين ظبي أحوى اللون ، وظبية مكحولة العينين وقد بلغت الألفين ، فكانت طوع يديه ، تسير ان أراد ، وتقف ان شاء ، وهي مسددة النظر اليه ، شاخصة نحوه ، يراعينه ويستلهمن من محيّاه الذي تزينه جلالة يكثر رائيها التسبيح والتمجيد ، وقد قطع بتلك الحيوانات نهر القاطول ثم انتشرت في عرصة الحير الفسيحة الارجاء ، وان نهر نيزك الذي كان يمد الحديقة والبركة بالمياه أحد موارد تلك الحيوانات ، وان ساحة التل التي كانت في الموضع نفسه احدى مغانيها ، وان ما فيه من جلالة ، كان السبب في طاعة الوحش والعاصين في أقاصي البيد والمهامه ، وان هاتين صفتان انفرد بهما دون الملوك ، ولكنهما لم تدفعاه الى الكبرياء ولا التيه •

واستكثرت ظعنى عنها ، فقلت لها : ... الى الخليفة أمضى العيس ممضيها
الى امام لـه ما كان من شرف ... يعدّ في سالف الدنيا وباقيها
خليفة الله ما للمجد منصرف ... الاّ الى أنعم أصبحت توليها
فلا فضيلة الاّ انت لابسها ... ولا رعية الاّ انت راعيها
ملك كملك سليمان الذي خضعت ... لـه البريّة ، قاصيها ودانيها
وزلفة لك عند الله تظهرها ... لنا ببرهان ما تأتي وتبديها
لما تعبّد محل الارض واحتبست ... عنا السحائب حتى ما نرجيها
وقمت مستسقياً للمسلمين جرت ... غرّ الغمام ، وحلت من عزاليها

فـــلا غمامـة الا انهلّ وابلهـــا ولا قرارة الا ســـال واديهـــا
وطاعة الوحش اذ جاءتك من خرق أحوى ، وأدمانة كحل مآقيهـــا
كالكاعب الرود يخفى في ترائبهـا ردع العبير ، ويبدو في تراقيهـــا
الفان جاءت على قدر مسارعة الى قبول الذي حاولته فيهـــا
ان سرت سارت وان وقفتها وقفت صوراً اليك بالحاظ تواليهـــا
يرعن منك الى وجه يرين لـــه جلالة يكثر التسبيح رائيهـــا
حتى قطعت بهـا القاطول وافترقت بالحير في عرصة فيح نواحيهـــا
فنهر نيزك ورد من مواردها وساحة التلّ مغنى من مغانيهـــا
لولا الذي عرفتـه فيك يومئـــذ لما أطاعك وسط البيد عاصيهـــا
فضلان حزتهما دون الملـــوك ولم تظهر بنيلهما كبراً ولا تيها(١)

من أجل القصور :

ان شغف المتوكل بتشييد القصور وابتنـــاء العمائر ، كلفه أموالا طائلة فكان من جراء ذلك يعمد الى كل وسيلة ممكنة لتوفيرها وتحصيلها .

ويبدو ان للخصومة التي كانت قائمة بين رجال البلاط أثرها البعيد في التنكيل والصاق التهم بعضهم البعض ، وبخاصة فيما يتعلق باحتجان الاموال واختزانها .

وتحدثنا كتب التاريخ ان نجـــاح بن سلمة الذي كان على ديوان التوقيع ، وتتبع العمال في عهد المتوكل والذي كان يقرّبه ، وربما ينادمه ـ قد زيّن له توفير ما يحتاجه من أموال لتشييد قصوره ، واتهم اثنين من المنقطعين الى وزير المتوكل عبدالله بن يحيى بن خاقان ، وهما : الحسن ابن مخلد ، وموسى بن عبدالملك ، بالخيانة والتقصير ، وطلب دفعهما اليه ليناظرهما ويستخرج منهما أموالا ضخمة ، فسرّ المتوكل بذلك وأدناه وشاربه في تلك الليلة . بيد ان تدبيره هذا قد باء بالفشل ؛ اذ كان الوزير

---

(١) الديوان ٢٤٠٩/٤ ـ ٢٤١٣ .

أكثر دهاء منه ، وأشدّ تيقظاً ، حيث استطاع ان يحمل ابن سلمة على كتابة رقعة الى الخليفة يتنصّل فيها عما قاله في الليلة التي شاربه فيها ، في حين اوعز الى مقربيه ان يكتبا في نجاح وأصحابه بمبالغ كبيرة ، واوصل الرقعتين الى المتوكل ، فأمر بدفعه الى احدهما فضربه وعذّبه حتى مات وكان ذلك في سنة ٢٤٥هـ ، وصودرت امواله واموال ابنه وقصورهما وفرشهما ، ومستغلاتهما بسامراء[١] .

والبحتري بحكم كونه شاعر البلاط ، والمسجلّ لاعمال الخليفة ، قد تناول في شعره هذا الحادث ، فهجا ابن سلمة الذي وصمه بالمين والخيانة والسعاية والغش :

دواعي الحين سقن الى نجاح ... ركوب البغي للأجل المتاح
ولو نصحاً أراد لكان فيه ... عبيدالله أسبق من نجاح
فحاق برأسه ما كان ينوي ... وحلّ بأهله سوء الصباح
مدلّ بالسعاية والتبدّي ... بها قتل الامام بلا جُناح
وأكذب من مسيلمة بن صعب ... وأفضح في العشيرة من سجاح
بدت لخليفة الرحمن منه ... مزاين خائن نطف وقاح[٢]
فكان يريد نصحاً وهو مصب ... على غش كأطراف الرماح
فأبسل بالذي كسبت يداه ... وعمّ الناس ذلك بالصلاح
فلا عدم الامام صواب رأي ... نفى الجرباء عن عطن الصحاح
وأبقاه الاله بقاء نوح ... لتشييد المكارم والسّماح[٣]

---

(١) انظر : تاريخ الطبري ٢١٤/٩ ـ ٢١٨ ، الكامل في التاريخ ٨٨/٧ ـ ٨٩ ، تاريخ اليعقوبي ٢٢٤/٣ طبعة النجف وفيه ان ذلك كان في سنة ٢٤٦هـ .

(٢) النطف : النجس ، المريب .

(٣) الديوان : ٤٦٣/١ ـ ٤٦٤ .

مدحتان بلا مناسبة :

وللبحتري مدحتان أخريان في المتوكل ، ويبدو انه أنشأهما فيه دون ان تكون هناك مناسبة ، ولعله من أجل هذا أكثر من الغزل فيهما حتى كاد يقرب من نصف كل منهما أو يزيد ، كما انه نحا في الغزل منحى فيه من الاحتفال بالصنعة ومتطلباتها الشيء الكثير ، وقلّ فيه الابداع الذي لمحناه في مطالع مدائحه السابقة .

فالمدحة الاولى من خمسة عشر بيتاً ، استغرق الغزل منها سبعة أبيات ، وقد اكثر فيها من التقسيم كما جانس وطابق في كثير منها ، ولعل طالع القصيدة خير مثال على احتفاله بالصنعة وتكلفه التجنيس بين لفظتي الاعطاف والعطف في الصدر ، وبين الاطراف والطرف في العجز ، واما التطابق فيبدو واضحاً جلياً في بقية الابيات .

وبعد المقدمة التقليدية ينتقل الشاعر الى المدح فيسرد الاوصاف والنعوت التي سبق له ان كررها في ثنايا مدائحه في الخليفة ، فهو خير من يكفي النوائب ، ويتصدى لها ، وهو كهف المسلمين ، والحامي ذمارهم ، وهو الكريم المعطاء ، الذي يحنّ الى المعروف حنين المستهام الى من يهواه ، وانه لا يجد راحة الاّ اذا أنجز موعوده ، واذا ما تعرض الشاعر لوصف أخلاقه اعترضته أفعاله العظيمة التي تعلو على الوصف وتزيد ، وينهي المدحة بطلب جدواه الذي حدده بألف :

ومهتزة الاعطاف نازحة العطف ... منعمة الاطراف ، فاترة الطرف[1]
اذا بعدت أبلت وان قربت شفت ... فهجرانها يبلي ، ولقيانها يشفي
دنواً فقد تيمت بالبعد والنوى ... ووصلاً فقد عنيت بالصد والصدف
لعمر أمير المؤمنين لقد كفى ... نوائب دهر ، مثله مثلها يكفي

(١) الاعطاف : جمع العِطف : الجانب . العَطْف : الميل . الاطراف من البدن . اليدان والرجلان والرأس الطَرْف : العين .

غدا وهو كهف المسلمين وردءهم — فأكرم به من رده قوم ومن كهف

يحن الى المعروف حتى ينيله — كما حنَّ الف مستهام الى الف

متى ما أصف أخلاقك الغر تعترض — غرائب أفعال تزيد على الوصف

واما أعدْ نفسي عليك رغيبة — من النيل أصبح في أمان من الخلف

وما ألف الفٍ من جداك كثيرة — فكيف أخاف الفوت عندك في الف (١)

اما المدحة الثانية فتتألف من (٢٣) ثلاثة وعشرين بيتاً ، يقع القسم الغزلي منها في خمسة عشر بيتاً ، وهو غزل بادي الكلفة ، ينحطّ كثيراً عن مشهور غزله ، يشير فيه الى تقدّمه في السن ، واطراح الغواني له ، ثم يعرّج بعد ذلك على الممدوح الذي ينعته بالكرم والجود ، وبانه جواد بني العباس وزينهم ، ويشير لاول مرة الى لمعان التاج فوق رأسه ، كما ينهي القصيدة بالتمدح بعدله ، وابعاده الشبهات عن حمى الاسلام ، ولعله يريد بذلك احياءه السنة وابطاله القول بخلق القرآن . والقصيدة عموماً لا ترتفع الى مصاف مدائحه الجيدة في المتوكل :

سلام ــ وان قلّ السلام ــ مضاعفاً — على ذاك من لهو وشكل مشكّل

علينا بحمد الله لله نعمة — تروح وتغدو من يد المتوكّل

اذا نحن جدنا له الشكر جُدِّدت — له نعم أخرى ببذل معجّل

جواد بني العباس قد تعلمونه — وزين بني العباس في كل محفل

له عند تجديد السؤال طلاقة — محقّقة بالغيب ظنّ المؤمّل

كأن وميض التاج فوق جبينه — على قمر بالشعريين مكلّل

أماط حمى الاسلام من كل شبهة — وقام بعدْل واضح غير مشكل (٢)

رثاء أمّ المتوكل :

أمّ المتوكل اسمها « شجاع » ، وكانت امرأة صالحة ، كثيرة المعروف

---

(١) الديوان ٣/١٣٦٩ ــ ١٣٧٠ .

(٢) نفسه ٣/١٩٢٢ ــ ١٩٢٣ .

تخرج في السرّ على يد كاتبها أحمد بن الخصيب ، كما كانت تتعهد الانفاق على بعض العيون في مكة وبخاصة في اوقات الازمات ، من ذلك انفاقها على « مشاش » حين غارت في سنة ٢٤٥هـ ، فارتفع من جراء ذلك ثمن الماء حتى بلغ سعر القربة منه ثمانين درهماً .

وكانت تدعى « السيدة » في عهد أبنها المتوكل ، وتوفيت بالجعفرية (المتوكلية) لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة ٢٤٧هـ ، وصلى عليها المنتصر بن المتوكل ، ودفنت عند المسجد الجامع[1] .

وللبحتري مرثية في أم المتوكل هذه تقع في عشرين بيتاً ، يعزي فيها الخليفة ، ويعدّد بعض مآثر المرثية وفضائلها ، وما انتاب الناس من حزن عليها ، ويشير فيها الى اللقب الذي كانت تعرف به وهو « السيدة » ، كما يشير الى ما أثر عن المتوكل حين وفاتها من نظمه بيت شعر فيها وهو قوله :

تذكرت لما فرّق الدهر بيننا　　فعزّيت نفسي بالنبيّ محمد

والبحتري لم يفته ان يتخذ من هذه المناسبة ذريعة للثناء على المتوكل ، والاشادة بفضائله ، وذوده عن حوزة الاسلام ، وايصائه بالصبر والجلد ، واقتداء الناس كلهم « لنعله » اذا ما أصابه مكروه ، وهو كما ترى اغراق في التزلف ، وافراط في التملّق ، ثم أخذ يخفف عنه المصيبة بتذكيره ان مصير كل حيّ رهن بقدر محتوم ، حتى الانبياء والرسل .

والمرثية ـ كما يخيل الينا ـ ليست ذات مستوى يرتفع بها الى غرر قصائده فهي تفتقر الى الحرارة ، وصدق الشعور ، كما يغلب عليها طابع التكلف ، ولكنها مع ذلك لا تخلو من التقسيم الذي كان الشاعر كثير الاحتفال به عموماً :

---

(١) أنظر : الطبري ٢١٣/٩ ، ٢٣٤ ، مزوج الذهب ٣٦/٤ ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٣٢٣/٢ وجاء فيه ان وفاتها كانت سنة ٢٤٦هـ .

غروب دمع من الأجفان تنهمل ... وحرقة بغليل الحزن تشتعل
وليس يطفىء نار الحزن اذ وقدت ... على الجوانح الاّ انواكف الخضل
ان لجّ حزن ، فلا بدع ولا عجب ... او قلّ صبر ، فلا لوم ولا عذل
لله ایّ يد بان الحمام بها ... منا ، وأيّة نفس غالها الاجل
سيّدة الناس حقاً بعد سيدهم ... ومن لها المأثرات السبّق الأُول
جرى لها قدر حتم ، فحلّ بها ... مكروهه ، وقضاء موشك عجل
فكل عين لها من عبرة درر ... وكلّ قلب له من حسرة شغل
عمّ البكاء عليها والمصاب بها ... كما يعمّ سحاب الديمة الهطل
فالشرق والغرب مغموران من أسف ... باق لفقدانها والسهل والجبل
قل للامام الذي آلاؤه جمل ... وبشره أمل وسخطه وجل
لك البقاء على الايام يقتبل ... والعمر يمتدّ بالنعمى ويتصل
والناس كلهم في كل حادثة ... فداء نعلك أن يغتالك الزلل
صبراً ومعرفة بالله صادقة ... والصبر أجمل ثوب حين يبتذل
عزيت نفسك عنها بالنبيّ وما ... في الخلد بعد النبيّ المصطفى أمل (١)

في مجالس المتوكل :

مرّ بنا ان البحتري كان من المقربين لدى المتوكل والمختصين به ؛ فكان يجالسه وينادمه ، حتى كانت له نوبة خاصة به ، فكان يحضر المجالس التي تهيأ للخليفة ، والتي كانت لا تخلو من الغلمان الذين يعهد اليهم القيام بادارة شؤون هذه المجالس ، وكانوا على شيء كثير من الوسامة والملاحة .

وعلى الرغم من ان البحتري لم يصوّر لنا في شعره شيئاً ذا بال عن مجالس الأنس التي كان يحضرها ـ وربما كان السبب في ذلك رغبة الخليفة في اخفاء جانبه اللاهي عن الرعية ـ فانه ألمح في أبيات أربعة الى احد تلك المجالس ولعله مجلس الخليفة المتوكل ، فقال :

(١) الديوان ١٨٨٧/٣ ـ ١٨٨٨ .

قلوب شجتهن الخدود الملائح وساقٍ بدا كالصبح والليل جانح
يدير كؤوساً من عقار كأنها من النور في أيدي السقاة مصابح
فللراح ما تجرى عليه دماؤهم وللشوق ما ضمت عليه الجوانح
وندمان صدق في جوار خليفة غدا بين كفيه الندى والصفائح(١)

وكان الخلفاء الى جانب لهوهم واستمتاعهم ومشاركتهم الندماء في كثير من الامور التي تجري في تلك المجالس - يراقبون جلساءهم وحاشيتهم ، ويحاسبونهم على ما يبدر منهم تجاه اولئك الغلمان من تحرّش أو مداعبة ، فكانوا يظهرون من الحرص والغيرة على غلمانهم وجواريهم ما يحمل ندماءهم - خشية النقمة عليهم والاطراح لهم - على الحيطة والحذر في كلامهم ونظراتهم وحركاتهم ٠

فهذا البحتري يتحدث عما وقع له في احد مجالس الخليفة المتوكل فيقول : « من لابس الخلفاء وخدمهم ، احتاج الى احتراس شديد ؛ كان يقوم على رأس المتوكل خدم وغلمان روقة ، وكان فيهم غلام يشبه ابنا لي كان اول ولد رزقته ، وكان حسن الوجه ، فكنت أشبهه به ، والمحه كثيرا فتدمع لذلك عيني ، فلحظني المتوكل يوما وقد نظرت اليه وتغرغرت عيني ٠٠ وشرب المتوكل بعد هذا بمدة طويلة ، وطلبني في غير نوبتي ، فجئت وانا ثمل لا فضل فيّ ، فقال : اسقوا البحتري رطلين في قدح ! فأومأت الى الفتح مستغيثاً به ، نشفع لي اليه ، وقال : سكران لا ذنب له ، طلب في غير نوبته ، نعفيه من هذا ، قال : فاسقوه رطلا ، فأومأت اليه بأنه لا فضل فيّ ، نعاوده ، فقال له وانا أسمع : ان أردت أن يشرب فقل لبدر حتى يجيء فيسقيه ! فلما سمعت ذلك فقدت عقلي ، وذهب عليّ أمري ، وشربت الرطل ، وقام المتوكل ، فصرت بعد ذلك الى الفتح

---

(١) الديوان ١/٤٨١ وأنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٣٠٩ ٠

مستجيراً به . وعرّفته حقيقة أمري ، فقال : الرأي ألاّ تعيد في هذا شيئاً ، فما زلت والله أخاف ذلك الى ان فارق الدنيا »[1] .

والخبر اذا صح شاهد على ما ينبغي لمجالسي الخلفاء من التحلّي بالحيطة والحذر في أثناء منادمتهم ومجالستهم لهم ، كما ينطوي على أمور أخرى : منها ان للبحتري ولداً وسيما ، ولكن من هو هذا الولد ؟ ليس في الخبر ما يشير الى شيء من هذا . فللبحتري ولدان : احدهما ، يحيى المكنى بأبي الغوث ، والآخر ، كان معاصراً للاصطخري[2] . واذا صح الخبر فيكون زواج البحتري قد تمّ قبل ان تتقدم به السن ، خلافاً لما يراه بعض دارسيه[3] . فقول البحتري « وشرب المتوكل بعد هذا بمدة طويلة » دليل على انه كان له ولد قبل ان يجوز العقد الرابع من عمره ، كما ان قوله في أعقاب الخبر : « فما زلت والله أخاف ذلك الى ان فارق الدنيا » دليل آخر على قدم زواجه .

ومنها : ان للبحتري نوبة ، وانه كان يستدعى أحيانا في غير نوبته ، ومنها : ان البحتري لم يكن يصطحب معه أسرته في اثناء اقامته في ربوع هذه المدينة ، فقوله : « وكان فيهم غلام يشبه ابنا لي كان اول ولد رزقته ، وكان حسن الوجه ، فكنت اشبّهه به ، والمحه كثيراً فتدمع لذلك عيني » دليل على تذكر ابنه الذي لم يكن مقيماً معه .

وروى الخطيب البغدادي حكاية شبيهة بالحكاية السابقة وقعت للبحتري في احد مجالس المتوكل أيضا ، فقال : حدثنا محمد بن علي بن السماك ، أخبرنا العباس بن أحمد بن أبي نواس الكاتب ، أخبرنا أبو علي الطوماري ، قال : حدثني أبو العباس طومار قال : كنت أنادم المتوكل فكنت عنده يوماً ، ومعنا البحتري ، وكان بين يديه غلام حسن الوجه يقال

---

(١) أخبار البحتري ص ٨٩ ـ ٩٠ .
(٢) نفسه ص ٩٠ هامش ٥ .
(٣) حياة البحتري وفنه ص ١١٨ .

له « راح » فقال المتوكل للفتح : يا فتح ان البحتري يعشق راحاً ، فنظر اليه الفتح وأدمن النظر فلم يره ينظر اليه . فقال له الفتح : يا أمير المؤمنين أرى البحتري في شغل عنه فقال : ذاك دليلي عليه ، ثم قال للمتوكل : يا راح خذ رطل بللور فاملأه شراباً وادفعه اليه ففعل . فلما دفعه اليه بهت البحتري ينظر اليه ، فقال المتوكل للفتح كيف ترى ؟ ثم قال : يا بحتري قل في راح بيت شعر ، ولا تصرح باسمه ، فقال :

(حار) بالود فتى أمسى رهيناً بك مدنف

اسم من أهواه في شعري مقلوب مصحف »[1]

وعلى الرغم من ورود هذه الحكاية في تاريخ بغداد والنجوم الزاهرة فان شيئاً من الشك يساورنا في صحتها ؛ فالبحتري لم يكن من ذوى البداهة ، كما اعترف هو نفسه بذلك[2] كما لم تشر المصادر الاخرى الى تكليفه بامثال هذه الامور التي فيها قلب للكلمات وتصحيف لها . وما نظن ان البحتري كان يميل الى امثال هذه الامور ، ولعل الحكاية لا تخلو من التلفيق والوضع ! هذا الى ان الحكاية مع شبهها بالحكاية السابقة لم يشر فيها الى غضب الخليفة الذي كان قد أفزع الشاعر وأرهبه حتى كان يتوقع ان يفتك به في يوم من الايام ولم يهدأ باله الا بعد مقتل المتوكل . ولعل من الغريب ان يطلب الخليفة من الشاعر ان يقول في « راح » هذا دون ان يصرح باسمه ، وهو يعلم انه يهواه ويميل اليه .

وطلب المتوكل الى البحتري مرة أن يقول شعراً فيه وفي الفتح ، يذكر فيه محبته له وانه لا يود ان يفقده أو يتأخر عنه ، فابتدأ الشاعر قائلا :

---

(١) تاريخ بغداد ٤٤٩/١٣ ، وأنظر الديوان ٢٦١٠/٤ ، ورويت الكلمة الاولى من البيت الاولى (جاز) ، وكذلك وردت الكلمة مع البيتين واختصار للقصة في النجوم الزاهرة ٩٧/٣ .

(٢) أنظر : ص ٢٥٠ .

سيدي انت كيف اخلفت وعدي ... وتثاقلت عن وفاء بعهدي
لا أرتني الايام فقدك يا فتـ ... ـح ولا عرّفتك – ما عشت – فقدي
أعظم الرزء ان تقدّم قبلي ... ومن الرزء أن تؤخر بعدي
حسداً ان تكون الفاً لغيري ... اذ تفرّدت بالهوى فيك وحدي

غير ان البحتري عقب على هذه الابيات بانه عملها في غلام كان يكلف به ، فلما طلب اليه المتوكل ما طلب ، تنحى فقال الابيات وأراه انه عملها من وقته[1] . وهذا دليل آخر على ان شاعرنا لم يكن من المرتجلين أو ذوي البداهة الحاضرة في قول الشعر !

مقتل المتوكل :

ويستمر البحتري على أحسن ما يكون في علاقته بالمتوكل وصلته بالبلاط العباسي ، ويصبح له مركز مرموق ، ومنزلة كبيرة ، ولكن هذه المكانة أصيبت بهزة عنيفة انهارت معها أساطين بناء الشاعر الضخم ، وكانت تلك الهزة العنيفة منبعثة من نكبة الخليفة والخلافة في آن واحد . لقد قتل المتوكل بسيوف الاتراك بمواطأة ابنه المنتصر قتلة كان لها الأثر البعيد في تضعضع كيان الخلافة الذي كان من آثاره اضمحلالها ثم سقوطها فيما بعد .

ولو اردنا ان نتلمس الاسباب الحقيقية لاغتيال الخليفة لوجدناها تنحل الى الامور الآتية :

١ – نفرة القواد الاتراك ومن في معيتهم من الجنود من المتوكل ، فهم قد حاولوا منذ أول استخلافه ابعاده عن الخلافة ومبايعة ابن المعتصم (المستعين) بدلا منه ، بعد وفاة الواثق ، ولكن صغر سنه حال دون ذلك ، وزادت هذه النفرة بعد اغتيال المتوكل لايتاخ التركي الذي كان يعد من كبار قادتهم ، وكان مسؤولا عن كثير من الامور الحيوية المهمة

---

(١) اخبار البحتري ص ٨٥ – ٨٦ .

في الدولة[1] .

٢ ـ محاولة المتوكل الانتقال بعاصمته الى دمشق ـ تنكيلا بالاتراك ، وتقرباً من العرب ـ احدثت في نفوس قادة الاتراك فزعاً ورهبة ، وتنبهوا الى ما كان يراد بهم من الابعاد وخضد الشوكة ، فعقدوا العزم على التخلص من الخليفة بأي ثمن كان .

٣ ـ مصادرته ضياع كبار قادة الاتراك واقطاعها احد المقربين اليه من الوزراء .

٤ ـ نفرة ولده (المنتصر) مما قام به تجاهه ، الامر الذي اوغر صدره ضده فتألب مع قادة الاتراك للفتك بأبيه[2] .

٥ ـ ولعل انحراف المتوكل عن الطالبين ، وميل ولده المنتصر اليهم ، مما ساعد على وضع حد لنهاية الخليفة القتيل .

٦ ـ ويرى بعضهم ان من أسباب مصرع الخليفة اسرافه في أموال الدولة لتشييد القصور والعمائر[3] .

هذه هي الاسباب التي يظن انها تضافرت في قتل المتوكل . أما من قام بتدبير خطة القتل وتنفيذها ، وكيف كانت طريقة القتل هذه ؟ فتكاد المصادر تجمع على ان « بغا الصغير » المعروف بالشرابي كان الرأس المدبّر لهذه المؤامرة ، يؤازره المنتصر بن المتوكل ، وعدد من رجال الاتراك[4] .

ويروي المسعودي في المروج بشيء من الاطناب الطريقة التي

---

(١) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٣٣٥ .

(٢) هناك روايات كثيرة في معاملة المتوكل لابنه المنتصر ، ويخيل الينا ان الكثير منها لا يخلو من الزيادات والاضافات .

(٣) أنظر : تاريخ الطبري ٢٢٢/٩ ، زهر الآداب ٢٢٧/١ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٥٠ ، حياة البحتري وفنه ص ٩ ، مجلة الضياء ٣٢٩/٦ .

(٤) أنظر المراجع السابقة ، وثمار القلوب للثعالبي ص ١٩٠ .

استدرج بها بغا الصغير أحد الاتراك المتهورين لتنفيذ خطة القتل ، ويخيل الينا ان ما ذكره المسعودي لا يخلو من الطابع القصصي ، وان بغا لم يكن بحاجة الى اتباع هذه الطريقة التدرجية ـ اذا صحّ التعبير ـ حتى يتأكد من صلابة من رشح لهذا الامر ! ولعل حشر المنتصر في عداد من ناصبوا الاتراك العداء ما يوهن هذه الحكاية ، اذ المعروف عنه ميله اليهم ، ومحاباته لهم الامر الذي جذبهم اليه في حوك المؤامرة ضد أبيه[١] .

كما يروي المسعودي عن البحتري بشيء من الافاضة ما سبق مقتل المتوكل من مصادفات رآها في مجلس المتوكل ، وان الطابع القصصي كذلك واضح في أكثر أجزاء الرواية[٢] .

ويبدو ان مقتل المتوكل كان حدثاً جللاً ، مما دعا المؤرخين الى الاكثار من سرد الروايات المتعلقة بمصرعه هذا .

والحق ان اغتيال الخليفة قد أحدث موجـــة من السخط والأسى والاسف لدى الكثير من الناس ؛ لما كان عليه من السمعة الطيبة ، والاخلاق الدمثة ، ولما تجاسر عليه الموالي في الاقدام على قتـــل الخليفة والتطويح بهيبة الخلافة[٣] .

ويبدو ان مقة الناس للمتوكل هي التي دعتهم الى اختلاق الاحلام التي زعموا أنهـم رأوا فيها امارات تنبيء عن مصـرعه ومصرع وزيره الفتح[٤] .

ان الليلة التي قتل فيها المتوكل أصبحت تسمى « ليلة المتوكل » ؛ لانها كانت « ثلمة الاسلام وعنوان سقوط الهيبة ، وتاريخ تراجـــع الخلافة » كما يقول الثعالبي[٥] .

---

(١) أنظر : مروج الذهب ٣٤/٤ ـ ٣٦ .
(٢) أنظر : المصدر نفسه ٣٦/٤ ـ ٣٩ .
(٣) أنظر : الكامل في التاريخ ١٢١/٧ .
(٤) أنظر : تاريخ الطبري ٢٢٩/٩ ـ ٢٣٠ .
(٥) ثمار القلوب ص ١٩٠ .

لقد قتل المتوكل قتلة شنيعة وهو في مجلس أنسه ولهوه ، وذلك في ليلة الاربعاء بعد العتمة بساعة لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧هـ[١] .

رثى المتوكل غير واحد من الشعراء ، ولعل من أجود ما رثي به قصيدتان احداهما ليزيد بن محمد المهلبي ، والاخرى للبحتري ، وقبل ان نسوق القصيدة الثانية يجدر بنا ان نتحدث قليلا عن حضور الشاعر مجلس الخليفة ساعة الفتك به ، فبعض المراجع التاريخية لم تنوّه بمن كان في مجلس المتوكل ساعة القتل وانما اكتفت بذكر أسماء عدد من الذين اشتركوا في هـذه المؤامرة[٢] . في حين أشارت أخرى الى بعض من كان حاضرا في مجلس الخليفة ـ ولم يكن البحتري منهم ، حين الفتك به ، فذكرت ان بغا الشرابي رأس المتآمرين « أمر الندماء بالانصراف الى حجرهم ... فلم يبق الا الفتح وعثعث واربعة من الخاصـــة ، وأبو أحمد بن المتوكل ... »[٣] .

بيد ان مصادر أخرى أشارت بوضوح الى ان البحتري كان حاضراً المجلس ليلة اغتيال الخليفة ، فقد روى الصولي خبراً حدّث به البحتري نفسه قال فيه : « قال لي المتوكل يوماً : قل فيّ شعراً وفي الفتح ، فاني أحب أن يحيا معي ولا أفقده فيذهب عيشي ، ولا يفقدني فيذلّ ، فقل في هذا المعنى ، فقلت أبياتاً :

سيدي انت كيف أخلفت بعـدي   وتثاقلت عن وفـــاء بعهـــدي

وقلت فيها :

لا أرتني الايـــام فقـــدك يا فتـ   ـح ولا عرفت ـ ما عشت ـ فقدي

---

(١) أنظر : الطبري ٢٣٠/٩ ، والمروج ٣٦/٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٢٢٥/٣ ، وتاريخ الخلفاء ص ٣٥٠ ، وثمار القلوب ص ١٦٠ ، وجاء في المصدر الاخير : ان مقتل المتوكل كان في سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، وهو خطأ بالطبع فهذا هو تاريخ استخلافه لا مقتله .

(٢) أنظر : تاريخ اليعقوبي ٢٢٥/٣ ، وتاريخ الخلفاء ص ٣٥٠ .

(٣) الكامل في التاريخ ٩٨/٧ ، وتاريخ الطبري ٢٢٤/٩ ـ ٢٢٩ .

أعظم الرزء ان تقدم قبلي ومن الرزء أن تؤخر بعدي
حسداً ان تكون الفاً لغيري اذ تفرّدت بالهوى فيك وحدي

فتفاءلت لهما بأن يموتا جميعا ، فقتلا جميعا ، وكنت حاضراً فربحت هذه الضربة وأومأ الى ضربة في ظهره »[1] .

كما جاء في المروج على لسان البحتري أيضاً في صدد مقتل المتوكل ما يدل على حضور الشاعر المجلس وشهوده الحادثة بنفسه ، فقد جاء قوله : « ... وكان من عادته (أي المتوكل) انه اذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه ، قال فبينا نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل اذ أقبل « باغر » ومعه عشرة نفر من الاتراك وهم متلثمون والسيوف في أيديهم تبرق في ضوء تلك الشمع فهجموا علينا ... »[2] .

وجاء في ثمار القلوب عند الكلام على حادثة مقتل المتوكل أيضاً ورثائه من قبل الشعراء ما نصه : « وأكثر الشعراء في وصف هذه الوقعة ، فمنهم أحمد بن يزيد الاسدي ... ومنهم البحتري ، شهد القتل فقال من قصيدة :

لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر هرقتم وجنح الليل سود دياجره »[3]

وأشار الحصري الى هذه الحادثة فقال : « ورثاه البحتري ويزيد المهلبي بمرثيتين من أجود ما قيل في معناهما ، وكانا حاضرين ليلة قتله ، فاختفى أحدهما في طي الباب ، والآخر في قناة الشاذروان ... »[4] .

أما البحتري نفسه فيشير بوضوح في مرثيته للمتوكل الى حضوره

---

(١) أخبار البحتري ص ٨٤ _ ٨٥ .
(٢) مروج الذهب ٣٨/٤ .
(٣) ثمار القلوب ص ١٩٠ .
(٤) زهر الآداب ٢٢٨/١ .

الوقعة وانه دافع عن وليّ نعمته بيديه ، ولو كان معه سيفه لما تردد في امتشاقه واستخدامه فهو يقول :

صريع تقاضاه السيوف حشاشة ... يجود بها والموت حمر أظافره
أدافع عنه باليدين ، ولم يكن ... ليثني الأعادي أعزل الليل حاسره
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي ... درى القاتل العجلان كيف أساوره[١]

ويبدو لنا ان حضور الشاعر ساعة القتل ليس بغريب ولا بمستبعد ، فقد كان شاعر البلاط ، وأحد ندماء الخليفة والمقربين لديه .

لقد خلّد البحتري هذه الوقعة المؤلمة بمرثية تعدّ من أجود المراثي في بابها ، وهي تقع في ثلاثة وثلاثين بيتاً ، وقد استهلها بندب قصر الخليفة ومثواه الذي كان في منطقة القاطول ، حيث المدينة المتوكلية ، والقصر الجعفري العظيم الذي قتل فيه المتوكل ، فالمحل الذي على القاطول قد مشى فيه الخراب والدمار ، وتعاورته نوائب الدهر بالفناء والاندراس ، وفي هذا اشارة الى ما قيل عن المنتصر بعد نجاح المؤامرة ، حيث أمر بالانتقال الى سامراء ، كما أمر الناس بهجر المتوكلية ونقض قصورها وحمل الانقاض الى سامراء[٢] . وكأن الصبا في هبوبها المستمر على بقايا الرسوم والاطلال توفي نذوراً لها ، واذا كانت الوحشة والكآبة والاندراس تبدو واضحة على هذا الموضع ، فرب وقت مضى كان فيه مشرقاً مزهراً ناضراً . وهذا الجعفري القصر المشهور الذي قتل الخليفة في صحنه قد تغيّر حسنه ، وتبدّل أنسه ، وسرى الهدم في أقطاره ونواحيه ، وان ارتحال ساكنيه عنه فجأة قد أحال دوره ومقابره سواء ، وان زيارته تبعث في النفوس الاسى والحزن ، بعد ان كانت تبعث فيها البهجة والانشراح .

وان الشاعر لا ينسى – وقد رأى بأم رأسه ما أصاب نساء الخليفة

(١) الديوان ٢/١٠٤٨ .

(٢) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٧٠ .

وجواريه بعد مصرعه من ذعر وفزع ، وما آل اليه أمرهن بعد ذلك من تشتيت وتفريق ، وتحكي المصادر انه كان للمتوكل أربعة آلاف جارية ، ويرى البعض ان البحتري يشير في هذا البيت الى حيوانات حير الوحوش للمتوكل لا الى النساء ، في القصر الجعفري ، غير ان الشاعر ـ كما نرى ـ ما زال يصف القصر الجعفري ، أعظم قصور المتوكل ، وان ما أصابه من اندثار واندراس بعد ان انتقل المنتصر عنه الى سامراء ، دليل على انه المقصود بهذا البيت والابيات الخمسة الاخرى بعده ، فالقصر الذي كان في حير الوحوش لم يكن من الاهمية ما كان عليه الجعفري ، وان تشبيه النساء واطفالهن بالوحش والاطلاء والجاذر مألوف في أدبنا العربي .

ومن غير شك ان وصف الذعر الذي انتاب نساء الخليفة واطفاله بعد مصرعه اعظم تأثيراً في النفوس من وصف ما أصيبت به حيوانات الحير ؟

فهو لا ينسى ما ألمّ بالقصر الجعفري من تقويض الاستار ، وتهتيك الستائر بعد ان صيح فيه بالرحيل ، ونودي على أهله بالانتقال ، كما لا ينسى الوحشة التي كانت تعمه ، والكآبة البادية عليه ، وكأنه لم يكن دار أنس ومتعة ، ولم تكن له مناظر خلابة ، تسرّ العيون وتبهج القلوب ؟ وكأنه لم يكن مأوى الخلافة أيام عزها وبشاشتها ، ومقر الملك أيام اشراقه ونضارته ؟ وكأنه لم يكن القصر الذي جمعت اليه الدنيا كل ما لديها من بهاء وجمال ، فكان فيه العيش الغض ، والحياة الناعمة ، ثم يتساءل الشاعر بمرارة عن الحجاب الصعب لأبواب هذا القصر ومقاصره ، لقد تهتك هذا الحجاب وتمزّق ، فلم يعد كما كان قبل مصرع الخليفة ! فهذه الاوصاف كلها تشير بوضوح الى ان المقصود ـ كما أسلفنا ـ بهذا القصر القصر الجعفري !

ويتساءل الشاعر كذلك عن مصير عميد الناس (الخليفة) الذي

كان يتحمل أعباء الناس في الملمات والنوائب ، والذي كان ينهى الدهر اذا أراد ، ويأمره اذا شاء !

لقد اغتيل اغتيالاً وكان على مغتاله لو كان شجاعاً مقداماً أن يظهر له ويجاهره في أمره ، ولكنه الجبن والخيانة والتآمر ، انه قضى دون أن تدرأ عنه جنوده الموت ، ومات ولم تذد عنه أملاكه وذخائره ، وتأخر عن نصرة ولده المعتز من كان يأمل فيه العون والمعاضدة ، ولا غرو فالعزيز من يعزّ ناصره ، ولا سيما في الملمات والمكاره ، وان الموت قد تخـرّم الفتح خدين الخليفة ووزيره ، كما ان معاضديه من الامراء كانوا في منأى عنه ، ولو بقي الفتح حياً وقرب النائي لكان الامر على غير ما كان عليه ، ولو كان لعبيدالله بن يحيى بن خـاقان - وهو ابن أخي الفتح ووزير المتوكل - من الاعوان والانصار لما كان بوسع من تصدى لاغتيال الخليفة من الوصول الى غرضه وهدفه .

بيد ان الطبري أشار في تاريخه الى قعود عبيدالله عن نصر الخليفة حين سمع باغتياله ، وان أصحابه اجتمعوا اليه ، ووضعوا أنفسهم تحت امرته ، ولكنه تخاذل واحجم ، وقد أخذ عليه ابن الجهم هذا القعـود فهجاه في قصيدته التي رثى فيها المتوكل(١) ، قال الطبري في هذا الصدد : « فذكر ان ابا نوح احتال في الهرب من ليلته ، وعبيدالله جالس ينفـذ الامور ، وبين يديه جعفر بن حامد ، اذ طلع عليه بعض الخدم ، فقال : يا سيدي ، ما يجلسك قال : وما ذاك ؟ قال : الدار سيف واحد ، فأمر جعفر بالخروج ، فخرج وعاد ؛ فأخبره أن أمير المؤمنين والفتح قد قتلا ، فخرج فيمن معه من خدمه وخاصته ، فأخبر أن الأبواب مغلقة ، فأخذ نحو الشط ، فاذا أبوابه أيضا مغلقة ، فأمر بكسر ما كان مما يلي الشط ، فكسرت ثلاثة أبواب حتى خرج الى الشط ، فصار الى زورق ، فقعد فيه

---

(١) انظر : ديوان علي بن الجهم ص ١١٨ .

ومعه جعفر بن حامد وغلام له ، فصار الى منزل المعتز ، فسأل عنه فلم يصادفه ، فقال : انا لله وانا اليه راجعون ؟ قتلني وقتل نفسه ، وتلهف عليه ، واجتمع الى عبيدالله أصحابه غداة يوم الاربعاء من الابناء والعجم والارمن والزواقيل والاعراب والصعاليك وغيرهم وقد اختلف في عدتهم ، فقال بعضهم : كانوا زهاء عشرين الف فارس ، وقال آخرون وكان معه ثلاثة عشر ألف رجل ، وقال آخرون : كان معه ثلاثة عشر الف لجام ، وقال المقللون : ما بين الخمسة آلاف الى العشرة آلاف ، فقالوا له : انما كنت تصصفينا لهذا اليوم ، فأمر بأمرك ، واذن لنا نمل على القوم ميلة ، نقتل المنتصر ومن معه من الاتراك وغيرهم ، فأبى ذلك ، وقال : ليس في هذا حيلة ، والرجل في أيديهم - يعني المعتز »[1] .

ان ما اجترحه الجناة من الاقـدام على القتل كان بدافع الاماني والاحلام التي عقدوها على ذلك فأضلتهم ، وأعمت بصائرهم ، وان موت الخليفة كان قدراً من الاقـدار ومدة بلغت منتهاها ، فصرع ولم يحسب لرهطه حساب ، ولم يلتفت الى أنسابه وذوي رحمه ، وقـد تناوشته السيوف فقضى بين أشفارها يجود بنفسه والموت من حوله أحمر الاظفار ، دامي المناسر ، وان الشاعر كان يذود عنه بيديه اذ كان أعزل من السلاح ، ولو قيض لسيفه ان يكون معـه لعلم ذلك القاتل العجلان كيف يواثبـه ويصاوله ، وفي هذا اشارة الى الرهبة التي كانت تسيطر على المغتالين من الاقدام على هذه الفعلة الشنيعة . والشاعر بعد ان تحسّر على تخلّفه في الذود الفعال عن وليّ نعمته آل على نفسه ان يمتنع عن احتساء الراح الا اذا أخذ بذحل القتيل[2] ، ولكنه رجع الى نفسه واليأس يعصره ، والألم

---

(١) تاريخ الطبري ٩/٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢) يبدو ان البحتري برّ بما أخذ به نفسه من الامتناع عن احتساء الراح لفترة تربي على السنة ، حداداً على المتوكل والفتح ، وقد أشار الى ذلك أكثر من مرة في ثنايا شعره ، فقال من قصيدة يمدح بها عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وابن أخي الفتح :

يحزّ في قلبه ، فكيف يمكن الأخذ بوتر وليّه والموتور هو الواتر ، وتبلغ الثورة في نفس البحتري ، وتهيج عاطفته ، وتلتهب مشاعره فاذا به يصرخ من اعماقه صرخة مدوية فيها كل دلائل الاتهام للمنتصر وليّ عهد والده القتيل ، هل أضمر وليّ العهد هذا الغدر بأبيه ، واذا كان ذلك كذلك أفليس من العجب العجاب أن يعهد بولاية العهد لغدّار مثله ؟ ولكن الشاعر لا يكتفي بهذا ، فهو يدعو لهذا الغدّار ان لا يتمتع بملك أبيه ، وألا يسمع صوته او دعاء الآخرين له على المنابر ، بل هو يقول كالمتهدد والمتوعد لهذا الولي العهد ، ولمن شاركوه في مؤامرته ، بأن لا أمل له في طلب النجاة ، ولا لمشاركيه في الاثم والاجرام .

وبعد هذه الثورة الطاغية والاتهام الصارخ يهدأ الشاعر بعض الشيء فيثوب الى نفسه ليقرر بان دم الخليفة المسفوح من الدماء الطاهرة الزكية ، وان الليلة التي قتل فيها لهولها ورهبتها أسماها « ليلة جعفر » ، فهذا الدم المطلول أهرق في ليلة داجية مظلمة ، ويمضي البحتري متوعداً للجناة ، ومحفّزاً لعواطف ابن القتيل ولعله يريد به المعتز ، فيقول : كأن الجناة لم يدروا من سيخلف المتوكل من ولاة عهده ، الذي سينتقم لدم أبيه بقتل القتلة بالمرهفات من السيوف ، والمواضي من الصوارم ، غير ان المعتز على الرغم من بسالته وقوته — لم يكن بوسعه ان يثأر لابيه ، كما توقع الشاعر ، وقد أشار الثعالبي في ثمار القلوب الى هذا فقال : « وعلى ذكر هذا القميص (أي قميص عثمان) فان المتوكل لما قتله الاتراك بمواطأة المنتصر وأفضى الأمر بعده وبعد المنتصر والمستعين الى المعتز ، لم تزل أمه قبيحة

أمتّ اليك بالذمـــام الذي خـلا ومنزلة من جعفر ليس تجحـــد
واني هجرت الراح حـولا مجرّماً له ، وشهودي بالذي قلت شهّد
(الديوان ١/٥١٧) . وقال أيضا من قصيدة في مدح ابراهيم بن المدبر :
واني هجر للمدام وقـــد جـلا لنا الصبح من قطربل وبلشـكر
وكيف تعاطى اللهو والرأسمخلس مشيباً وشربالراح من بعدجعفر
(الديوان : ٢/١٠٦٢) .

تحرّضه على الايقاع بقتلة أبيه وتلومه على ميله لهم دون طلب الثأر منهم ، وكان المعتز يعدها ويمنّيها ، وهو يعلم انه لا يقوى عليهم مع كثرة عددهم ، وشدة شوكتهم وغلبتهم على أمور الخلافة ، فأبرزت قبيحة يوماً للمعتز قميص المتوكل الذي قتل فيه وهو مضرّج بالدم ، وجعلت تبكي وتبالغ في التقريع والتحريض كل المبالغة ، فلما طال ذلك منها قال لها المعتز : يا أمي ارفعي القميص والاّ صار قميصين ، فعندها أمسكت ولم تعد لعادتها »(1) .

وينهي الشاعر مرثيته راجياً ان تردّ أمور الناس الى خلف شبيه بشخصية الخليفة القتيل ، شخص تتجلى فيه قوة الأناة ، وحصانة الرأي ، وتقليب الآراء في الشدائد والملمات ، اذا ما تسرّع الاخرق العجل حين يدهمه الامر ، ويفجأه الخطب :

محلٌّ على القاطول أخلق دائرهْ … وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
كأن الصَّبا توفي نذورا اذا انبرت … تراوحه أذيالها وتباكره
ورب زمان ناعم – ثَمَّ – عهده … ترقّ حواشيه ، ويونق ناضره
تغير حسن الجعفري وأنسه … وقوض بادي الجعفريّ وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة … فعادت سواء دوره ومقابره
اذا نحن زرناه أجد لنا الاسى … وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم أنس وحش القصر اذ ريع سربه … واذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت … على عجل أستاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به … أنيس ، ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة … بشاشتها ، والملك بشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها … وبهجتها والعيش غض مكاسره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت … بهيبتها أبوابه ومقاصره
وأين عميد الناس في كل نوبة … تنوب ، وناهي الدهر فيهم وآمره

(1) ثمار القلوب ص ٨٦ .

تخفَّى له مغتاله تحت غـرة ... وأولى لمن يغتاله لو يجاهـره
فما قاتلت عنه المنايا جنـوده ... ولا دافعت أملاكه وذخائره
ولا نصر المعتز من كان يرتجي ... له ، وعزيز القوم من عز ناصره
تعرض ريب الدهر من دون فتحه ... وغيب عنه في خراسان طاهـره
ولو عاش ميت ، او تقرب نازح ... لدارت من المكروه ثَمَّ دوائره
ولو لعبيد الله عون عليهـم ... لضاقت على وراد أمره مصادره
حلـوم أضلتها الاماني ومدة ... تناهت ، وحتف أوشكته مقادره
ومغتصب للقتل لم يخش رهطه ... ولم يحتشم أسبابه وأواصره
صريع تقاضاه السيوف حشاشة ... يجود بها والموت حمر أظافره
أدافع عنه باليدين ، ولم يكـن ... ليثني الاعادي أعزل الليل حاسره
ولو كان سيفي ساعة القتل في يدي ... درى القاتل العجلان كيف أساوره
حرام عليّ الراح بعدك او أرى ... دما بدم يجرى على الارض مائره
وهل أرتجي أن يطلب الدم واتر ... يد الدهر ، والموتور بالدم واتره ؟
أكان وليّ العهد أضمر غـدرة ... فمن عجب أن وليّ العهد غادره
فلا مليّ الباقي تراث الذي مضى ... ولا حملت ذاك الدعـاء منابره
ولا وأل المشكوك فيه ولا نجـا ... من السيف ناضي السيف غدرا وشاهره
لنعم الدم المسفوح ليلة جعفـر ... هرقتم ، وجنح الليل سود دياجره
كأنكـم لم تعلمـوا من وليـه ... وناعيـه تحت المرهفات وثائره
واني لارجـو ان ترد أموركـم ... الى خلف من شخصه لا يغـادره
مقلب آراء تخـاف أناتـه ... اذا الاخرق العجلان خيفت بوادره (١)

لقد اطرى هذه المرثية عدد من الادباء القدامى والمحدثين ، فقال ثعلب من القدامى : « ما قيلت هاشمية أحسن منها ، وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب »(٢) .

---

(١) الديوان ٢/١٠٤٥ ـ ١٠٤٩ .
(٢) سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ١١٨ .

اما المحدثون فقد أشادوا بحسن تصرف الشاعر في مرثيته هـــذه ، وبجودة سبكه لها ، واحتفاله بوحدة الموضوع ، فقال الدكتور البصير في ذلك : « على انك اذا تأملت رائية شاعرنا في رثاء المتوكل على الله رأيت انه يتصرف فيها تصرف الشاعر المثقف الذي يعرف كيف يعبر عن مشاعره وانفعالاته ، وكيف يصف عظائم الامور ، وجلائل الاحداث وصفا صادقا مستفيضا ، وكيف يبتدىء بسرد ما لديه ، وكيف يتدرج في ذلك حتى يبلغ قمة بيانه ، وكيف ينتهي .. وهكذا ينشىء من مرثيته هذه وحدة بيانية مطردة الاجزاء ، متماسكة الاطراف ، منسجمة كل الانسجام »[1] .

ولعل أحسن من درس هذه القصيدة دراسة فنيـــة تتصل بموسيقى الالفاظ ومشاكلتها للمعاني هو الدكتور شوقي ضيف حيث يقول : « ومع ذلك نستطيع ان نلاحظ بوضوح ان البحتري كان يشاكل بين الفاظـــه ومعانيه مشاكلة دقيقة ، واقرأ له رثاءه للمتوكل اذ يقول :

محل على القاطول أخلق داثره

فانك تحس بالقوة والعنف في هذا الرثاء ، اذ اختار البحتري الفاظه من ذوات الحروف الضخمة ، أو من هـــذا النوع الذي كانوا يسمونه بالجزل ؛ لانه غاضب ثائر ، وكأنه ينحت الالفاظ نحتا ليعبر عن هـــذا الغضب وتلك الثورة التي أعلنها فيما بعد من القصيدة ، اذ دعـــا الى الانتقاض على من قتلوا المتوكل ، وكان الخليفة الجديد هو الذي دبر هذه المؤامرة ، وليس من شك في ان البحتري كتب هذه القطعة بمفتاح موسيقى محكم ، فقد عبر بهذه الالفاظ الضخمة عن عاطفة الحزن الثائرة ، حتى لكأن الالفاظ لها قعقعة السلاح ودوي المواقع التعسة الحزينة ، وقد وفق في ربط القوافي بالهاء الساكنة ، فجعل الصوت بعد انطلاقه على الكلمات والمقاطع ينخفض فجأة عند القافية ، وكأنه لم تعد فيه بقية ، ثم يعلو وينطلق

---

(١) في الادب العباسي ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ الطبعة الثانية .

في الاندفاع على البيت الثاني ، وما يلبث ان ينخفض فجأة كرة أخرى ، وهكذا ما يزال الصوت بين ارتفاع وانخفاض كأن الشاعر نائح ، فهو يرتفع بالصوت ، وما يلبث ان ينخفض به لشدة التأثر والتعب ، وبذلك مثل البحتري زفرات الحزن تمثيلا جيدا ، وندب المتوكل الملك المقتول على عرشه ندباً خالداً »[1] .

فالقصيدة اذن مكتملة الاجزاء ، تامة الوحدة العضوية ، لا تنقضها العاطفة المشبوبة ولا الشعور الفياض ، ولا يتخلف شيء فيها من الالفاظ أو المعاني ، وهي الى جانب كل ذلك صرخة مدوية في وجه المتآمرين الذين اشتركوا في اغتيال الخليفة ، وهي تمثل أقصى ما بلغه شاعر في الاندفاع العاطفي والوجداني حتى ليخيل الينا ان البحتري في هذه القصيدة نسيج وحده ، ولعل هذا ما دعا ثعلبا الى القول ، وقد لمح فيها هذا الاندفاع العنيف « ... وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب » . وهذا التصريح الواضح في هذه القصيدة يجرنا الى مسألة أخرى وهي متى أنشأ البحتري هذه المرثية ، هل أذاعها على الناس في عهد المنتصر المتهم باغتيال والده ؟ أو انه أنشأها في عهد المعتز بن المتوكل في أيام استخلافه ؟

ولعل أول اشارة الى انشاء الشاعر لهذه القصيدة في عهد المنتصر هو ما ذكره ثعلب فيها آنفا ، أما شارح ديوان البحتري فيقول : « نرجح ان الشاعر نظمها يوم مصرع المتوكل بالذات ، فان الى جانب التأثر السريع للحادث الذي شهده أبياتا تنبىء عن أمله في ان يلي الخلافة المعتز دون المنتصر ، أي يوم (٤) شوال سنة **٢٤٧**هـ »[2] .

في حين يذكر الصولي انه سأل عبدالله بن المعتز في أمر هذه القصيدة قائلا : « أكان البحتري يجسر أن يقول لما قتل المتوكل في يوم المنتصر :

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٧٦ ــ ٧٧ .

(٢) الديوان ٢/١٠٤٥ الحاشية .

لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر هرقتم وجنح الليل سود دياجره
أكان وليّ العهد أضمر غدرة ومن عجب أن وليّ العهد غادره
فلا مليّ الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره

فقال لي : انما عمل هذه الاشعار في أيام المعتز ، يتقرب بها اليه »[1] .

واغلب الظن ان الشاعر نظم هذه القصيدة بعد اغتيال ولي نعمته المتوكل ولكنه لم يشعها في الناس ، ويذعها عليهم الا بعد انقضاء عهد المنتصر ؛ اذ من العسير على شخص كالمنتصر الذي اشترك في مؤامرة الاغتيال ، وفي التطويح بحكم أبيه ان يتقبل ـ مهما كان مسماحاً راجح الحصاة ـ مثل هذا الشعر الذي يشير بصراحة متناهية الى اتهامه بالقتل والى الدعاء عليه ومؤازريه من القتلة بالموت والدمار ، واذا صح هذا فان ما ذكره الصولي أقرب الى الصواب ، وادعى الى القبول . أما ان في القصيدة أبياتا تنبيء عن أمل الشاعر في أن يلي الخلافة المعتز دون المنتصر فهو أمر لا يعنى كونها أنشئت في عهد المنتصر ، ولكن من المستبعد أن تكون أذيعت في عهده لما قدمناه .

ونحن نعرف ان البحتري كان كثير التقلب والتلون والمداراة للخلفاء والامراء ورجال الدولة ، وان له في المنتصر مدحة بعد استخلافه يشيد فيها بأخلاقه وصفاته ومعاضدته للطالبين ، فلو عرف عنه انه قال القصيدة المذكورة لما تردد في عقابه أو عتابه على الاقل .

غير ان المرزباني ذكر في موشحه ما يشير الى غضب المنتصر على البحتري واطراحه له ، وانه لم يرض عنه الا بوساطة أحمد بن الخصيب الذي تمكن ـ لقربه من المنتصر ـ أن يسترضيه له ويوصل اليه مديحه ، ويأخذ له منه مالا قال : « ومثل حديث البحتري مع المسنعين ما أخبرنيه محمد بن يحيى ، قال : ما رأيت أقل وفاء من البحتري ، ولا أسقط ؛ رأيته قائما ينشد أحمد بن الخصيب مدحا له فيه ، فحلف عليه ليجلسن ،

---

(١) اخبار البحتري ص ١٠٢ .

ثم وصله واسترضى له المنتصر ، وكان غضبان عليه ، ثم اوصل له مديحا اليه ، وأخذ له منه مالا فدفعه اليه ... »[1] .

ونحن بالطبع لا نعرف سبب غضب المنتصر هذا على الشاعر ، ويخيل الينا انه ليس بسبب المرثية الآنفة الذكر ، ولعل تأخر الشاعر في مديحه له هو السبب في هذا الغضب ، اذ من المعلوم ان الشاعر لم يقصد الخليفة الجديد الا بعد ان تظاهر بالحج ، فرارا مما ألمّ به من جراء مصرع المتوكل .

الامام البحر :

وفي الديوان خمسة أبيات في امتداح المتوكل وهي منسوبة للبحتري في حين تنسبها بعض المراجع الاخرى الى علي بن الجهم ، وقد علق شارح الديوان عليها بقوله : « وفي يقيننا انها للبحتري ، ولعل ابن الجهم تحدث بنسبتها الى نفسه ليسيء الى البحتري الذي كان يبغضه ، وللبحتري فيه هجاء ، وقد تكرر فعل هذا الصنيع من ابن الجهم »[2] .

ويخيل الينا ان ما ذهب اليه الشارح بعيد عن الحق ، وان اتخاذه من العداء القائم بين الشاعرين سببا لادعاء ابن الجهم انها له ، غير كاف ، ومن الغريب حقا ان يعمد شاعر كبير كابن الجهم الى مقطوعتين للبحتري فينتملهما[3] متوخيا من ذلك الاساءة الى شاعر شهير كالبحتري .

ولا ندري هل ان انتحال ابن الجهم المزعوم لهاتين المقطوعتين قد أثر على سمعة البحتري وحط من منزلته الشعرية ؟

وقد لا نعدو الصواب اذا ما زعمنا ان هذه المقطوعة تقرب في روحها وأسلوبها من شعر ابن الجهم ، وتبعد فيهما عن قريض البحتري !

---

(١) الموشح ص ٥١٥ وأنظر : أخبار البحتري ص ١١٢ – ١١٣ .
(٢) الديوان ٢/١٠١٣ الحاشية .
(٣) أنظر : ص ١٥٥ حيث أشرنا الى المقطوعة الاولى هناك .

أما الابيات فهي :

بسر من را لنا امام   تغرف من بحره البحار
خليفة يرتجى ويخشى   كأنه جنة ونار
كلتا يديه تفيض سحاً   كأنها ضرة تغار
فليس تأتي اليمين شيئاً   الا أتت مثلها اليسار
فالملك فيه وفي بنيه   ما بقي الليل والنهار[1]

بعد مقتل المتوكل :

ان حادثة مقتل المتوكل والفتح قد اثرت تأثيرا بعيدا في نفس البحتري كادت ان تكون الحد الفاصل بين ما كان يلقاه الشاعر في بلاط الخليفة من منزلة كبرى ، ونعيم سابغ ، وبين هبوط ساحق ، ومسألة ملحة . وعلى الرغم مما وصله به الخلفاء والوزراء بعد اغتيال ولي نعمته ، ولا سيما ابنه المعتز ؛ فان البحتري ظل يحن الى ايامه الاولى في كنف المتوكل والفتح ، وكان يهتبل كل فرصة مواتية ليعلن تشوقه وحنينه الى تلك الايام الجميلة التي عاشها رخيّ البال ، مهيب الجانب ، فهو اذا ما تصدى لهجاء شخص ولو كان قائدا شهيرا كعلي بن يحيى الارمني ، لم يجد مادة لهجائه سوى المفاضلة بينه وبين ممدوحيه السابقين : المتوكل والفتح ، فيقول :

أمن بعد وجد الفتح بي وغرامه   ومنزلتي من جعفر ومكاني
أكلّف مدح الارمنيّ على الذي   لديه من البغضاء والشنآن
ومن خلق يستنكف الكلب أن يرى   له جار بيت او رضيع لبان
نديميّ ! لا زال السحاب موكلا   بجودكما بالسح والهطلان
فلو كان صرف الدهر حرّاً عداكما   اليّ ، وما ناصاكما وعداني[2]

---

(١) الديوان ٢/١٠١٣ ـ ١٠١٤ وأنظر الحاشية حيث اشار الشارح الى المصادر التي نسبت هذه الابيات الى علي بن الجهم .

(٢) الديوان ٤/٢٢٧٩ .

أو يقول أيضا من قصيدة يهجو فيها الارمني المذكور ويشير الى عطايا المتوكل ونعمه عليه :

تخل من الاطماع اما تخلت ... وولّ صروف الدهر ما قد تولت
لقد كان لي فيما تطول جعفر ... به من أياد أنهضت فأقلت
ذخائر تنهى النفس عما تجشمت ... وما استحسنت من عذرها واستحلت (١)

وهو حين يتعرض لامتداح شخصية مهمة تسبغ عليه ما تسبغ من الاموال الطائلة ، وتنتشله من وهدة الفاقة ، وتنقذه من براثن العوز ، تتراءى له صلته بالمتوكل والفتح فيحن اليها ، ويحلو له ان يذكرها في معرض امتداحه ، فهو يقول من قصيدة يمتدح بها محمد بن عبدالله بن طاهر :

تداركني الاحسان منك ومسّني ... على حاجة ذاك الجدا والتطوّل
ودافعت عني حين لا الفتح يبتغى ... لدفع الذي أخشى ولا المتوكل (٢)

ويقول من أخرى له في عبيدالله بن يحيى بن خاقان :

اعتدّ عزك من وفود مذاهبي ... وسعود أيامي وحسن زماني
واذا المسافة دون نائل جعفر ... بعدت عليّ فان نيلك دان (٣)

ويقول كذلك من قصيدة في مدح ابي الصقر اسماعيل بن بلبل ، وكتب بها الى المبرد :

مضى جعفر والفتح بين مرمّل ... وبين صبيغ في الدماء مضرّج
أأطلب أنصارا على الدهر بعدما ... ثوى منهما في الترب أوسي وخزرجي؟
اولئك ساداتي الذين بفضلهم ... حلبت أفاويق الربيع المثجّج

---

(١) نفسه ٣٦٧/١ ·

(٢) الديوان ١٧٩٥/٣ ، وأنظر : زهر الآداب ٢٢٩/١ وجاء فيه : « وقد كان البحتري يرتاح في كثير من شعره الى ذكره وذكر الفتح بن خاقان » ·

(٣) الديوان ٢٢٤١/٤ ·

مضوا أمماً قصدا وخلفت بعدهم أخاطب بالتأمير والى منبج[1]

بل ان البحتري ليردد حنينه واشتياقه الى أيام المتوكل والفتح حتى في شعره الذي ينشئه حين يؤخذ منه غلام ، فهو يقول من أبيات له في غلام له ، أخذه منه ابو الصقر اسماعيل بن بلبل ، ويشير فيها الى قصور دمعه في امداده وتقصير وجده في التخفيف عن تباريحه حين وقعت الواقعة بممدوحيه :

عسى آيس من رجعة ابين يوصل ودهر تولى بالأحبة يقبل
أيا سكناً فات الفراق بأنسه وحال التعادي دونه والتزيّل
بكرهي رضا العذّال عني ، وانه مضى زمن قد كنت فيه أعذّل
فلا تعجبن ان لم يغل جسمي الضنى ولم يخترم نفسي الحمام المعجّل
فقبلك بان الفتح عني مودّعاً وفارقني شفعاً له المتوكل
فما بلغ الدمع الذي كنت أرتجي ولا فعل الوجد الذي خلت يفعل
وما كل نيران الجوى تحرق الحشا ولا كل أدواء الصبابة تقتل[2]

وواضح ان البحتري في هذه الامثلة يمثّل الشاعر الوفي ، الذي لم ينس أو يتناسَ من أحسن اليه ، وأفاض عليه من نعمه !

---

(١) نفسه ١/٤١٨ ، وأنظر : زهر الآداب ١/٢٢٩ .
(٢) الديوان ٣/١٨٩٢ ـ ١٨٩٣ ، زهر الآداب ١/٢٢٩ .

الفهرست

تنبيه : وقعت في ثنايا الكتاب – على الرغم من الحيطة والحذر – بعض الأخطاء المطبعية ، ارتأينا ابقاءها على حالها ثقة بنباهة القارىء وفطنته •

٣٠/١٠٠٠/١٤/٧/١٩٧٠